

الفكر اللساني



♦♦ مجلة علمية محكمة
في العلوم اللغوية التراثية
واللسانيات الحديثة

مجلة الفكر اللساني - علمية محكمة - تصدر عن مخبر المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية - كلية الآداب منوبة

فيفري / فبراير

2024

مجلة «الفكر اللساني»
مجلة علمية محكمة ومتخصصة

مخبر «المباحث الدلالية»
واللّسانيات الحاسوبية»



أسّس سنة : 2018

مجلة «الفكر اللساني»

مجلة علمية محكمة ومتخصصة

العدد السادس	فيفري 2024
--------------	------------

كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة 2010 تونس
الهاتف القارّ: 216.71.600.700 (المكتب 1173)
البريد الإلكتروني: alfikr.alissani@gmail.com

إدارة المجلة

المدير المؤسس :

أ.د. عبدالسلام عيساوي

إدارة التحرير:

رئيس التحرير:

أ.د. خالد ميلاد

نائب الرئيس :

- أ.د. فرح زعيم.
- أ.د. لبنى بن سالم .

نظرة في كتاب :

- في العربية : أ.د. المنصف عاشور - أ.د. شمس الدين الرحالي، أ.د. وسام العربي
- في الأنجليزىة : أ.د فتحي هلال. أ.د نادية بوشهيو
- في الفرنسية : أ.د ثرياء بن عمر ، أ.د إيناس بن رجب . أ.د هند السوداني

هيئة التحرير:

- أ.د. خالد ميلاد.
- أ.د. شكرى مبخوت .
- أ.د. مليكة الولباني .
- أ.د. العادل خضر.
- أ.د. عبد السلام عيساوي .
- أ.د. نور الهدى باديس .
- أ.د. إبراهيم بن مراد.
- أ.د. توفيق قريرة.

- أ.د. شكري السعديّ.
- أ.د. شمس الدين الرحاليّ.
- أ.د. سامية قصاب الشرفي.
- أ.د. وسام العربيّ.
- أ.د. فرح زعيم.
- أ.د. أ.د. هند السودانيّ.
- أ.د. لبنى بن سالم.

الهيئة العلميّة الموسّعة :

- من المغرب: أ.د. محمد غاليم ، أ.د. أحمد المتوكل ، أ.د. محمد الخطابي ، أ.د. محمد الرحالي ، أ.د. عبدالسلام اسماعيلي علوي .
- من الجزائر: أ.د. صالح بلعيد، أ.د. مسعود الصحراوي، أ.د. عايدة حوشي .
- من السعودية: أ.د. نوال الحلوة، أ.د. علي شاير، أ.د. عبدالرحمان فهد .
- من قطر: أ.د. علي الكبيسي، أ.د. رشيد بوزيان ، أ.د. أحمد صفر .
- من عمان: أ.د. خليفة بن أحمد القصابي ، أ.د. حمود النوفلي، أ.د. زاهر الداودي .
- من الإمارات: أ.د. لعبيدي بوعبد الله .
- من مصر: أ.د. عمرو مذكور .
- من سوريا: أ.د. سامر رضوان .
- من فرنسا: أ.د. فرانسوا راستي، أ.د. جاك لوفي .
- من أستراليا: أ.د. جوزيف لوبيانكو (جامعة ملبورن) .

التعريف بالمجلة:

هي مجلة علميّة محكمة متخصصة في نشر الدراسات التي تتنزل في المباحث اللسانية والعلوم اللغويّة والمعجميّة تشرف عليها هيئة علميّة دوليّة تتألف من كبار الأساتذة والباحثين والأكاديميين. تهدف هذه المجلة إلى نشر المعرفة اللسانية وتعميمها وإيصال التفكير اللغويّ وفلسفته إلى المتقبلين المتخصصين في علم اللسانيات والتعريف بالمحاولات العلميّة القيّمة، التي ينشط لها الباحثون استثمارا لطاقتهم ورؤاهم في التجديد والإضافة المعرفيّة وتطوير أساليب التفكير ومناهج التحليل وطرائق المعالجة ومواكبة جديد النظريات.

هي مجلة فصلية وتصدر بثلاثة ألسن (عربية، فرنسية وإنجليزية) تعتمد الهيئة العلمية في تحريرها على معايير علمية صارمة وشروط منهجية دقيقة وملزمة تسير حركة البحث العلمي العالمي وتساهل مستجداته.

وستدور أعمال المجلة في كل عدد على محور من محاور البحث اللساني في مختلف اتجاهاته وأطواره وآلياته مما تقترحه الهيئة العلمية ومما يواكب نبض القضايا وجديد النظريات، ومما يؤصل أيضا لتاريخ التفكير اللساني من المرحلة الكلاسيكية إلى المرحلة الحديثة.

ولا تقتصر أعمال المجلة على المقالات اللسانية فحسب إنما تنفتح على كل المباحث التي تستثمر اللسانيات نتائجها وتتخذ منها خلفية نظرية وأساسا مرجعيا شأن علم النفس وفلسفة اللغة والعلوم العصبية وعلوم الإعلامية والبيولوجيا والعلوم الإنسانية والاجتماعية... وذلك تعزيزا وتوسيعا لآفاقها وتكثيفا لمادتها وتنمية لصلات الوصل بين اللغة ومختلف العلوم.

وستعمل المجلة على إشهار البحوث والباحثين وتضمن جميع حقوقهم الفكرية والأدبية.

دليل الباحث: مجلة الفكر اللساني

يقدم الباحث مخطوط بحثه بما يتوافق مع تعليمات النشر في مجلة الفكر اللساني الواردة أدناه:

المرسلات للمجلة: عناوين التراسل.

ترسل البحوث بصيغة word مرفقة بخطاب طلب نشر إلى إدارة هيئة التحرير موجهة لرئيس هيئة التحرير على البريد الإلكتروني الخاص بالمجلة ويشترط أن تكون المشاركات مصححة ومراجعة ومتوافقة مع معايير النشر وقواعده في المجلة الموضحة في هذا الدليل:

• البريد الإلكتروني: alfikr.alissani@gmail.com

• مقر المجلة: كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، 2010 تونس.

رقم الهاتف القار: 216.71.600.700 (المكتب: 1173).

رقم الهاتف الجوال: 216.52.391.760 - 216.98.352.547

شروط النشر

قواعد عامة:

- إرسال البحث المبتكر وغير المدروس سابقا مع تجنب إرساله لأكثر من جهة حتى يصله رد من المجلة.
- الباحث مسؤول عن عمليات الاقتباس والأمانة العلمية ويتحمل المسؤولية الكاملة عن صحة المعلومات والاستنتاجات ودقتها، والحقوق الفكرية الواردة فيها.
- الآراء والمعلومات الواردة في البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة،
- التقيّد بسياسة النشر وتوثيق البحث.
- يراعي في أوليّة النشر في المجلة تاريخ تسلم البحث وتاريخ قرار التحكيم وتنوع موضوع المشاركات.
- بعد قبول البحث للنشر يجب على الباحث أن يرسل تعهدا بعدم نشره في مجلة علمية أخرى..
- ترسل إلى الباحث نسخة ورقية ونسخ إلكترونية من العدد الذي شارك فيه بعد إصداره.
- قد يتم رفض البحث لعدة أسباب مثل عدم أصالة البحث أو أن الفكرة لا تتناسب مع المضمون العام للمجلة أو غيرها من الأسباب العلمية.

خطوات النشر بالمجلة:

- إثر استلام البحث عبر بريد المجلة يتم إشعار بالوصول من قبل إدارة التحرير.
- يتم التحكيم من قبل مجموعة من الخبراء والمختصين في مجال البحث المقدم، (على الأقل محكمين) فإذا قبل البحث يتم إرسال الموافقة على نشره إلى إدارة المجلة والتي بدورها تعد البحث للنشر.

- يتم إبلاغ صاحب المشاركة بالنتيجة مرفقة بتعديلات الفاحصين في حال القبول، أو باعتذار عن عدم القبول.
- بعد استلام إدارة المجلة النسخة المعدلة يرسل للباحث الوعد بالنشر موقعاً من رئيس هيئة التحرير.

الشروط الفنية للكتابة:

1. ألا يزيد عدد صفحات البحث عن 30 صفحة من الحجم العادي (A4).
 2. إذا كانت لسان البحث العربية يتم استخدام خط من نوع «Tradionnel Arabic»، أما إذا كان لسان البحث الانجليزية يستخدم خط نوع «TimeNew Romain».
 3. يتم إعداد الصفحة بحيث تُترك هوامش 2.5 سم من جميع الاتجاهات.
 4. تكون مسافة التباعد بين الأسطر بمقدار 1.5 سم.
- إعداد العناوين وبيانات الباحثين:
- مواصفات إعداد الصفحة الأولى الخاصة بالعنوان وبيانات الباحثين:
- أ- مواصفات إعداد العنوان الرئيس للبحث:
1. يتم توسيط العنوان في الصفحة.
 2. يكون نوع الخط كما ذكر بالشروط العامة أعلاه.
 3. يكون الخط غامقا (حجم 22).
- ب- كتابة اسم/اء الباحث/ين:
1. تكتب أسماء الباحثين تحت عنوان البحث على يسار الصفحة.
 2. يكتب اسم الباحث ولقبه.
- *إذا كان الباحث أعجمياً، يكتب اسمه ولقبه بالحروف اللاتينية بين قوسين بعد اسمه ولقبه بالعربية.
3. يكون الخط غامقا (حجم 18).
 4. يوضع تحت اسم الباحث، اسم الكلية، اسم المؤسسة.

محتويات البحث:

يجب أن يتضمن البحث المحتويات التالية:

1. الصفحة الأولى تتضمن فقط عنوان البحث وملخصه والكلمات المفاتيح باللسان المكتوب به البحث.
- (في حال كتابة البحث بالعربية تُطلب كتابة ملخص باللغة بالإنجليزية أما في حال كتابة البحث باللغة الانجليزية فيجب إعداد ملخص بالعربية).
2. قائمة المراجع مصنفة إلى مراجع عربية ومراجع أجنبية.

العنصرية:

ملاحظات تتمحور حول تلافي العنصرية:

1. يجب ألا يتضمن المخطوط أي عبارات تسيء إلى شخصية طبيعية أو اعتبارية.
2. عدم الإشارة إلى العنصرية والتمييز فيما يتعلق بالأيديولوجيات والأديان وغيرها.

ملخص البحث:

الشروط المتعلقة بإعداد ملخص البحث:

1. يرد الملخص في الصفحة الأولى (بلسان البحث)، يليه في نفس الصفحة ملخص بلسان آخر بالفرنسية أو الإنجليزية.
2. توضع كلمة ملخص بسطر مستقل بخط غامق (حجم 20).
3. بعدها يكتب الملخص بخط عادي (حجم 18).
4. لا يتجاوز عدد أسطر ملخص البحث (10 إلى 15 سطرا) سواء الملخص بالعربية أو الملخص بالأعجمية.
5. بعد الانتهاء من كتابة الملخص أدناه مباشرة توضع الكلمات المفاتيح ولا تتعدى (10 كلمات) ويكون حجم الخط عاديا (حجم 18).
6. ينطبق على الملخصين بالعربية والانجليزية نفس الشروط مع مراعاة نوع الخط.

إعداد العناوين الرئيسية والفرعية و متن البحث:

الشروط المتعلقة بإعداد متن البحث:

1. تكون العناوين الرئيسية في البحث الواردة في بند محتويات البحث خط (20) غامق.
2. العناوين الفرعية خط غامق (حجم 18).
3. المتن ومكوناته خط عادي (حجم 18).
4. عنوان الجدول غامق (حجم 16).
5. عنوان الشكل غامق (حجم 16).
6. محتويات الجدول عادي (حجم 14).
7. قائمة المراجع خط عادي (حجم 18) بالنسبة إلى المراجع الأعجمية خط عادي (حجم 16).

إعداد الجداول والأشكال:

- الشروط المتعلقة بإعداد الجداول والأشكال:

1. يكتب عنوان الجدول فوق الجدول ويجب أن يأخذ رقما كما يلي (جدول 1: إسم الجدول).
 2. يجب أن تأخذ الجداول أرقاما تسلسلية.
 3. يجب أن يتوسط الجدول الصفحة.
 4. عندما يشار في متن البحث إلى جدول ما يجب ذكر رقمه.
 5. تدرج أو ترسم الأشكال في منتصف الصفحة.
 6. يرقم الشكل أسفله وبشكل تسلسلي ويوضع عنوانه أسفل (شكل 1: اسم الشكل المصدر).
 7. يجب ذكر مصدر الشكل وإحالة وفق شروط الإحالة العلمية.
 8. عندما يتم ذكر شكل ما في متن البحث يجب ذكر رقمه.
 9. يترك فراغ سطر واحد قبل بداية الجدول وكذلك بعده وكذلك الأشكال.
- *بالنسبة إلى الأشكال والرسوم والخطاطات تُدرج في متن البحث في صيغة صورة JPEG.

إعداد المعادلات الرياضية:

- الشروط المتعلقة بكتابة المعادلات:

1. تعطى المعادلات أرقام تسلسلية ويوضع الرقم بين قوسين كما يلي :

$$Y = a + Bx \quad (1)$$

2. يفضل استخدام برنامج ميكروسوفت للمعادلات الموجود ضمن حزمة Word لكتابة المعادلات.

3. يجب أن يوضع أسفل المعادلة تفسيرٌ وتوضيحٌ للمتغيرات الداخلة فيها.

إعداد قائمة المراجع:

الشروط المتعلقة بإعداد قائمة المراجع:

1. إذا كان البحث مكتوباً باللغة العربية يجب أن تفصل المراجع العربية عن المراجع الأجنبية.
 2. إذا كان البحث مكتوباً باللغة الانجليزية تدمج المراجع العربية والأجنبية وتكتب بالإنجليزية.
 3. ترتب المراجع ترتيباً أبشياً باللسانين المعتمدين.
 4. ما يدرج في قائمة المراجع يجب أن يكون قد وثق في متن البحث.
 5. عدم وضع المراجع أو الملاحظات في هوامش البحث إنما توضع قبل قائمة المراجع على شكل Foot notes .
 6. تتم عملية التوثيق في متن البحث وإعداد قائمة المراجع وفق أسلوب المجلة الموضح أدناه والمستند إلى أسلوب APA.
- * إذا اعتمد المرجع مرةً واحدة تذكّر في الهامش جميع معلوماته البيبليوغرافية ولا يدرج في قائمة المراجع، أما إذا اعتمد أكثر من مرة فلا يذكر إلا لقب المؤلف، سنة الصدور، رقم المجلد، رقم الصفحة فحسب.
- * إذا ذكر المرجع في الهامش ثم أحيل إليه مرةً أخرى تاليه، فلا يذكر تدرج في الفقرة الموالية.

التوثيق في متن البحث وإعداد قائمة المراجع

أولاً: الاقتباس والإشارة إلى مرجع في متن البحث.

- القواعد الخاصة بالاقتباس في متن البحث:

1. يوضع اسم العائلة، وسنة النشر بين قوسين وإذا كان الاقتباس من كتاب يذكر رقم الصفحة وعند اقتباس من صفحات متعددة وجب ذكرها.
وعند الاقتباس من بحث لباحثين فيوضع بين قوسين اسم العائلة للباحث الأول واسم العائلة للباحث الثاني ثم العام.
2. لا يجوز استخدام الهوامش للإشارة إلى المرجع الذي اقتبس منه الباحث، وإنما في متن البحث يتم استخدام الإرشادات الواردة في نقطة رقم (1) أعلاه.
3. عند الاقتباس من مرجعين لباحث نُشرا في السنة نفسها، يوضع بجانب الأول أ والثاني ب.
4. في حال الاستشهاد ببحث لثلاث باحثين فأكثر يوضع اسم العائلة للباحث الأول ويليهِ وآخرون ثم سنة النشر، وإن لزم رقم الصفحة.
5. في حال تعدد الباحثين المقتبس منهم لنفس الفكرة (اسم العائلة للباحث 1، سنة النشر، اسم العائلة للباحث 2، سنة النشر، يطبق ما ورد بالنقاط من 1-4 عند ذلك وأيضا بنسبة للمقالات باللسان الأعجمي.
6. في حال الاقتباس من إحصائيات منظمة يذكر بين قوسين (اسم المنظمة، السنة).

ثانيا: إعداد قائمة المراجع

- القواعد الخاصة بإعداد قائمة المراجع:
- * تتضمن قائمة المراجع الأعمال التي استشهد بها في متن البحث.
- * ترتب المراجع ترتيبا أبثيا.
- * إذا كانت لسان البحث العربية يتم تقسيم المراجع إلى مراجع عربية وأجنبية وكل منها يرتب أبثيا وتوضع المراجع العربية أولا.
- * عند كتابة البحث بالإنجليزية يتم سرد جميع المراجع بالإنجليزية ولا تقسم إلى عربية وأجنبية.
- * عندما يكون لأحد المؤلفين أكثر من بحث ترتب زمنيا.

* لا يستخدم وآخرون al et.، في قائمة المراجع بل يذكر أسماء كل الباحثين اسم العائلة، اسم الباحث.

- توثيق كتاب منشور:

اسم المؤلف الأخير، الاسم الأول، (سنة النشر)، اسم الكتاب، الطبعة، المدينة-الدولة، دار النشر.

- توثيق بحث منشور في مجلة محكمة:

اسم المؤلف الأخير، الاسم الأول، (العام)، اسم البحث بين ظفرين، اسم المجلة، المجلد (العدد)، مدينة النشر، أرقام الصفحات (من... إلى).

- توثيق كتاب مترجم:

نفس طريقة توثيق الكتاب مع مراعاة التوضيح أدناه:

اسم المؤلف الأصلي، (السنة)، اسم الكتاب، الطبعة، ترجمة (---)، المدينة-الدولة، دار النشر للباحث الأصلي.

- توثيق الرسائل الجامعية:

اسم المؤلف الأخير، الاسم الأول، (السنة)، اسم البحث، عنوان الرسالة، رسالة ماجستير / دكتوراه غير منشورة، اسم الجامعة، اسم الدولة.

- توثيق من منشورات منظمة:

اسم المنظمة، (السنة)، اسم الإحصائية، رقم الإصدار.

الفهرس

17	التقديم
19	المقوّمات الشكليّة والدلاليّة لعملية القول أ.د. منية عبيدي كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس.
35	المصطلح اللّسانيّ والمصدر الصّناعي أ.د. منانة حمزة الصفاقسي كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان، جامعة القيروان - تونس.
65	جدليّة الهامش والمركز في اللّغة والمجتمع (من خلال «طرنّو») أ.د. عادل زراعي كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس.
99	اللاتناهيّ الاستعاريّ و مقولة التفضيل المطلق أ.د. محمد عزيز الأحمر كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس.
121	قراءة في مساهمة اللسانيين في تطوير تعليمية اللغة العربية أ.د. محمد عبد الله محمد الشيخ المعهد العالي المهني للغات وللترجمة والترجمة الفورية (ISPLTI) - موريثانيا.
137	مصطلح الإمامة بين إطلاقيّة الدلالة وإنحسار التّداول: كتاب «أوائل المقالات في المذاهب والمختارات» للشيخ المفيد أنموذجا أ.د. عبد القادر العثماني كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس.
177	التّركيبية والتّرجمة أ.د. حسن بن سليمان كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس.

المقدمة

تمثل مجلة «الفكر اللساني» مجمعا علميا يزخر بالأعمال العلمية الأكاديمية التي تنبع من منابع الجامعات وتستثمر طاقات الباحثين في بحث السديد من الإشكاليات والقيم من المطارحات في صميم اللغة وفلسفتها تفكيرا وتداولاً.

وقد نشأت هذه المجلة استجابة ملحة لما اقترحه الدارسون من الأساتذة والطلبة ممن تشغلهم قضايا التفكير اللساني، وتستأثر باهتمامهم مسائل جوهرية تحتاج إلى مزيد التأصيل وتعميق التدبر والتمحيص. وهو مالم تتسع له الأطروحات والرسائل الجامعية من الموضوعات والمباحث.

فمن المسائل والإشكاليات ما تضيق عنه الرسائل الجامعية، وما يعرض له الباحثون عَرَضاً دون أن يتعمقه علما ويتوغلونه فهما وتحليلاً ونقداً على بالغ أهميته وقيمته. فيستأنفون التفكير فيه ويختصونه بفائض العناية، ويعيدون فيه النظر في مطلق الحرية وطبع الأريحية، مما يفسح لهم المجال للإبداع والابتكار بالجديد حيث يُطلق المُقَيّد وينسبط الفكر بالمعاني الأملعية. وهو ما نشأت لأجله هذه المجلة واستوت على عرش البحث اللساني لتحقيقه بإشراف صفوة من الأساتذة والباحثين من كافة المغرب والخليج العربيين وأروبا وأستراليا، وذلك لتتفتح النفوس وتتلاقح الأفكار وتتقارح العقول، ويستفيد الشباب من تجارب السابقين ممن يقدمون الأفكار الأصلية النوعية والمستجدة على ما يبلي ولا يجدي نفعاً، وممن يتطارحون أبلغ الإشكاليات وأعمقها في التفكير.

ومن أؤكد أهدفنا من هذه المجلة نذكر:

* مواكبة أحدث الدراسات اللسانية والتفاعل معها وإيصالها إلى القارئ ضرب من التيسير والتأصيل.

* إعادة النظر في بناء المعرفة اللسانية وذلك بإثارة القضايا والمشكلات المسكوت عنها في المباحث اللغوية، وإطلاق أيادي الباحثين الشباب سبيل

التجديد وتشوير القديم وتجاوزّه.

* نشر المعارف اللغويّة والإحالة على مواردها وأوكّد مراجعتها والإسهام في تعزيز حركة الترجمة المصطلحية ومزيد تنميتها وتعميقها، وذلك بالانفتاح على الأعمال العلميّة الأجنبيّة والغربيّة ومواكبة حركة البحث اللسانيّ في العالم.

* إنشاء فضاء بحثيّ متخصص يكون قَصًا على الدراسات اللسانيّة ووفقا عليها، ويكون وجهةً للباحثين وموئلاً لأفكارهم وطموحاتهم وكما يقول راستي «من مصلحة اللسانيات اليوم توحيد جهودها ومواجهة التحدّيات المتعدّدة التي يرفعها الأدب» فلن تألّو المجلّة جهدا في نشر القيمّ والمفيد من الدراسات اللسانيّة والمستقيم الذي يجدّد ويؤصّل للمعرفة وللتفكير.

المدير المؤسّس

أ.د. عبد السلام عيساوي

المقومات الشكلية والدلالية لعملية القول

أ.د. منية عبيدي

مخبر «المباحث الدلالية واللّسانيّات الحاسوبية» (LR18ES46)
كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة – تونس

ملخص:

ننطلق في هذا المقال من طرح إميل بنفنيست لعملية القول لنبحث في مقوماتها الشكلية والدلالية، خاصة وأن بنفنيست يُعتبر من الأوائل الذين اهتموا بدلالة القول إلى جانب شكله وتركيبه، وذلك ضمن عملية التواصل، إذ درس منزلة الإنسان في اللغة، وحدّد العناصر التي تؤثر في دلالة عملية القول. فلا يتحقّق الجانب الدلالي للقول إلا بتحقيق الجانب الشكلي الذي يشمل الإنجاز الصوتي وآلية هذا الإنجاز. فتكون دلالة القول بين متكلم ينشئ المخاطب ويرسيه بغضّ النظر عن حضوره أو غيابه، ومقام يتحقّق فيه القول، وتعود المشيرات المتنوعة على عناصره. كما تتدخل الصيغ الزمانية في تحديد دلالة القول إلى جانب ما يختاره المتكلم من تركيب من بين التراكيب الممكنة. وسنحاول أن نقف على المقومات الشكلية والدلالية لعملية القول انطلاقاً من مقال بنفنيست *l'appareil formel de l'énonciation* وذلك لتأكيد مساهمته في إرساء قواعد نظرية دلالية حين كان الاهتمام منصباً على الجانب الشكلي التركيبي؟

الكلمات المفتاح عملية القول، المقومات الشكلية، المتكلم، المخاطب، المقام، الدلالة، الإحالة، الصيغ الزمانية.

Résumé :

Dans cet article, nous partons de la présentation par Emile Benveniste du processus de l'énonciation pour en étudier les composantes formelles et sémantiques, d'autant plus que Benveniste est considéré comme l'un des premiers à prêter attention au sens du l'énonciation, outre sa forme et sa structure, dans le processus de communication, et il a identifié les éléments qui affectent le sens du processus de l'énonciation. L'aspect sémantique d'un énoncé n'est obtenu qu'en réalisant l'aspect formel, qui inclut la réalisation phonétique et le mécanisme de cette réalisation. La signification de l'énoncé naît entre un locuteur qui crée et ancre le destinataire, indépendamment de sa présence ou de son absence, et un lieu dans lequel l'énoncé s'accomplit et où les différents signes renvoient à ses éléments. Les formes temporelles interviennent également dans la détermination du sens de l'énoncé, en plus de la structure que le locuteur choisit parmi les structures possibles. Nous tenterons de comprendre le fonctionnement des composantes formelles et sémantiques du processus de l'énonciation, à partir de l'article de Benveniste « l'appareil formel de l'énonciation », afin de confirmer sa contribution à l'établissement des fondements d'une théorie sémantique lorsque l'intérêt se portait sur l'aspect formel et syntaxique.

Mots-clés Le processus de l'énonciation, Les composantes formelles, Le locuteur, Le destinataire, La situation, La connotation, La référence, Les formules temporelles.

1 - مقدمة:

هيمن التياران البيوي والتوليدي على الدراسات اللسانية الغربية طيلة العقود الست الأولى من القرن العشرين. وكان التوجّه الغالب التركيز على دراسة النظام (الصوتية والصرف والإعراب) وتمثّل ذلك بالخصوص في جملة من المسلّمات والمصادر والمفاهيم النظرية والمبادئ المنهجية التي أفضت إلى تراجع مجال اللسانيات تراجعاً ضاق به عدد من الدارسين، فظهر

تيار آخر غايته دراسة النشاط اللغوي بربطه بمستعمله وبالسياقات المقامية المختلفة التي ينجز فيها.

وكان بنفينيست⁽¹⁾ واحدا من رواد هذا الاتجاه إلى جانب - أو بعبارة أدق قبالة - رواد آخرين من قبيل «أوستن» و«سورل». وقد تجسّمت مساهمته في وضع اللبّات الأولى التي أسّس عليها أصحاب المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب مدرستهم، وذلك من خلال عناية بنفينيست الخاصّة في كتابه «قضايا في اللسانيات العامة» بـ «عملية التواصل» و«منزلة الإنسان في اللغة».

ومن بين المفاهيم المحورية المؤسّسة لمنزلة الإنسان في اللغة والفتاحة للمباحث الدلالية/ التداولية، طرح بنفينيست ما سمّاه l'énonciation² وكان ذلك موضوع مقال عنوانه: L'appareil formel de l'énonciation «الشكل النظري لعمل القول».

فما هي المقومات الشكلية والدلالية لعملية القول انطلاقا من هذا المقال؟

2 - عملية القول l'énonciation عند بنفينيست:

قبل البحث في المقومات الشكلية والدلالية لعملية القول لا بدّ من تعريف عملية القول وبيان علاقتها ببعض المفاهيم المجاورة لها.

1.2. عملية القول ليست النصّ المقول ولا الفعل الدال على القول ولا التلفظ بالأصوات:

سعى بنفينيست في بداية مقاله إلى إبعاد مجموعة من المفاهيم يمكن أن يتوهّمها القارئ من عبارة l'énonciation³، وهي النصّ المقول والفعل الدالّ على القول والتلفظ بالأصوات:

- عملية القول ليست النصّ أو الخطاب المقول:

(1) Emile Benveniste - ، ولد بسوريا سنة 1902، وتوفي بباريس سنة 1976، عرف بأعماله حول النحو المقارن للغات الهندوأوروبية، أسّس سنة 1961 صحيفة ليفي ستراوس وبيار قورو مجلة L'homme وهي مجلة فرنسية أنثروبولوجية، شغل مدير دراسات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، ودرّس في collège de france، أما كتاب problèmes de linguistique générale فهو في جزئين صدر الجزء الأول سنة 1966 وتبعه الجزء الثاني سنة 1974، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات.

أكد بنفنيست منذ البداية على أنّ المقصود بمصطلح l'énonciation «عمل القول» ليس «نصّ المقول»، وإنما عملية القول في حدّ ذاتها، وهو بذلك يفترض أن هنالك اختلافا بين texte de l'énoncé أي النصّ المقول وعملية القول énonciation. يقول: «إنّ موضوع بحثنا هو عمل إنتاج القول «l'acte de produire un énoncé» نفسه وليس نصّ المقول «le texte de l'énoncé»»⁽²⁾.

– عملية القول ليست الفعل الدال على القول أي الفعل «قال» أو ما يوافقه في سائر اللغات:

أما التنبيه الثاني الذي استند إليه لتسييج موضوع المقال فيتمثل في أنّ عملية القول تختلف عن الأفعال الدالّة معجمياً على القول والتي تستعمل في نقل القول وحكايته، أي ما يسمى les verbes délocutifs ، وقد خصّها بمقال في الجزء الثاني من كتابه ضمن الباب المعنون بـ «l'homme dans la langue»⁽³⁾

3 - تعريف «عملية القول» وطرق تناولها:

1.3. تعريف عملية القول:

عرّف بنفنيست عملية القول بكونها: «تلك العملية التي بمقتضاها تُشغّل اللغة»⁽⁴⁾ بواسطة القيام باستعمال فردي لها»⁽⁵⁾. وبما أنه عمل فردي فهو يخضع لقاعدة التملك appropriation أي أنّ المتكلّم يصبح بمقتضاه مالكا أو ممتلكا للجهاز النظري للغة. وتكون عملية القول من «فعل المتكلم الذي يقوم بتعبئة طاقات اللغة لحسابه»⁽⁶⁾ أي أنه عمل ينجزه المتكلم.

فعملية القول يمكن أن تفصّل في ثلاث عمليات متعلقة، وهي:

– تشغيل اللغة.

(2) T2, p.80.

(3) T2, p.277..

(4) Mise en fonctionnement.

(5) « L'énonciation est cette mise en fonctionnement de la langue par un acte individuel d'utilisation » T2, p.80.

(6) Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, « cet acte est le fait du locuteur qui mobilise la langue pour son compte » p.80.

— تملك المتكلم للغة.

— تعبئة طاقات اللغة لحساب المتكلم.

ولا يخفى ما في هذه الحدود من مجاز (تشغيل، تملك، تعبئة)، ونحن نقدر أنّ هذه العبارات المجازية ليست من باب تنميق الكلام، بل هي من باب محاولة الاقتراب بواسطة المجاز من المعنى المقصود، لأنّ التعبير الحقيقي يخذلنا ولا يسعفنا فيه.

2.3. طرق تناول عملية القول:

ذكر بنفنيست أنّ عملية القول يمكن أن يتمّ تناولها من ثلاث زوايا وهي:

— الإنجاز الصوتي.

— وآلية الإنجاز الصوتي.

— والخصائص الشكلية لعمل القول.

وهذه الزوايا متفاوتة الأهمية، وستتحدّث عنها مرتبة ترتيباً تصاعدياً من حيث أهميتها.

1.2.3. الإنجاز الصوتي «la réalisation vocale de la langue»:

يُعتبر الإنجاز الصوتي أقرب الوجوه إلى الملاحظة المباشرة. والأصوات التي تصدرها في نطاق لغة معينة أو في اللغة بصورة عامّة تمثل موضوع علم الأصوات، بفروعه المختلفة. ولئن كان هذا الجانب مظهراً من مظاهر عملية القول فهو لا يمثل أهمّها. فعملية القول لا تنحصر في عملية إنجاز الأصوات أي التلفظ بها (ولهذا السبب نرجّح ترجمة énonciation بعملية القول لا بالتلفظ).

2.2.3. آلية إنجاز القول «le mécanisme de la réalisation du discours»:

ليست هذه الظاهرة تكراراً للسابقة مثلما توحي به التسمية، بل هي وجه آخر من وجوه عملية القول. وبما أنّ القول هو تحويل فردي للغة إلى خطاب فإنّه توجد مسألة جوهرية وهي «كيفية تشكل المعنى في الكلمات» و«إلى أي حدّ يمكن الفصل بينهما [المعنى والكلمة]» و«كيف يمكن أن نصف فعل أحدهما في الآخر؟».

تصبّ هذه المسائل في ما يسمّى la sémantisation de la langue «دلالة اللغة» التي توجد في قلب عملية القول وتفضي إلى نظرية الدليل وتحليل العملية الدلالية أو التدلال كما يترجم بعض الباحثين كلمة la signifiante. و«آلية إنجاز القول» تُنوّع أيضا الصيغ اللغوية وتولّد بعضها من بعض، وهي مباحث تناولتها النظريات التحويلية وتناولها النحو العام حسب النظريات اللسانية السائدة قبل العقد السابع من القرن 20 .

3.3.2. الخصائص الشكلية لعملية القول:

«les caractères formels de l'énonciation»⁽⁷⁾

تمثّل زاوية النظر هذه الموضوع الذي من أجله وضع بنفنيست هذا المقال، «l'objet propre de ces pages»⁽⁸⁾ على حدّ تعبيره. وقد حاول رصد الخصائص الشكلية لعملية القول من خلال الاستعمالات الفردية التي تحقّق اللغة. واعتبر أن هذه الخصائص يمكن أن تقبل التجريد بوصفها ثوابت تتوفّر في كلّ عمل قول مهما كان قصره. ولعلّ أهمية هذه الفرضية هي محاولة تقديم ثوابت قابلة لأن تمثّل في صورة جهاز أو نظام شكلي مجرد، والبحث عن تلك الثوابت بين مقوّمات كان يرجع إلى الإنجاز المتجدّد التابع للكلام la parole بالمفهوم السوسيري المستعصي عن التجريد والمقصى من موضوع اللسانيات. وفيما يلي عرض لأهم مقوّمات عملية القول كما تمثّلها بنفنيست.

4 - الخصائص الشكلية لعملية القول

: «Les caractères formels de l'énonciation»

قسّم بنفنيست هذه الخصائص إلى مجموعتين:

- مجموعة الخصائص الضرورية الثابتة في جميع الألسن.
 - مجموعة الخصائص العرضية الخاصة بلسان معين.
- ويعرض هذه الخصائص مرتبة حسب النقاط التالية:

(7) Benveniste, T2, p.81.

(8) Benveniste, T2, p.81.

- عملية القول في حد ذاتها.
- الأحوال/المقام الذي يتحقق فيه عمل القول.
- الأدوات التي يتحقق بها.

1.4. الخصائص المتعلقة بعملية القول:

من الصعب تقديم هذه المقومات في صورة قائمة نعددها، لاتصال كل واحد منها بالآخر وشدة اتصاله أيضا بالدور أو الوظيفة التي يحتلها في عملية القول. فلا بد إذن أن نؤكد على أن قيمة هذه المقومات لا تكمن في تعدادها بقدر ما تكمن في دور كل منها وتعلق تلك الأدوار بعضها ببعض. وهي كالتالي:

- المتكلم:

لا يقتصر الأمر على الحضور المادي للشخص بل هو الحضور الذي بواسطته يحقق جملة من العمليات ويقوم بعدد من الوظائف التي هي كما سبق أن ذكرنا من «قبيل تشغيل اللغة وتعبئة لطاقتها لحسابه الخاص». وبمقتضى هذه العمليات:

- تتحول اللغة من الإمكان إلى التحقق في شكل خطاب منجز، أنجزه متكلم في صورة صوتية تبلغ سامعا، وتقتضي جوابا في صورة قول آخر.
- يكون القول باعتباره عملا فرديا عملية امتلاك أو تملك un procès d'appropriation للجهاز النظري للغة بمقتضاه يعلن المتكلم عن قيامه بدور المتكلم.

- «إنشاء» المتكلم للمخاطب:

بمجرد أن يتقمص المتكلم دور المتكلم فإنه يكون المخاطب وينشئه ويرسيه بغض النظر عن كيفية حضوره، فكل عمل قول سواء كان صريحا أو ضمينا هو كلام يفترض وجود مخاطب⁽⁹⁾. والمتكلم بمجرد أن يشرع في عملية القول يرسي متلقيا⁽¹⁰⁾.

- الإحالة:

(9) « Toute énonciation est, explicite ou implicite, une allocution, elle postule un allocataire » T2, p.82.

(10) « Dès que le locuteur se déclare locuteur il implante l'autre en face de lui ». T2, p82.



«الإحالة هي جزء لا يتجزأ من عمل القول»⁽¹¹⁾، فكل من المتكلم والمخاطب بحاجة إلى الإحالة، المتكلم بحاجة إليها لعقد نوع من العلاقة بالكون، والمخاطب بحاجة إليها ليكون مشاركاً له في عملية الخطاب، ويتم ذلك عادة عبر إرساء اتفاق ومواضعة حول الإحالة على نفس الصورة. إلى جانب هذه المقومات لعملية القول يضيف بنفنيست ما يسميه بمؤشرات عملية القول.

2.4. مؤشرات عملية القول:

تشرع هذه الركائز الثلاثة (قيام المتكلم بواسطة عملية القول وإنشاء المخاطب وإقامة الصلة بالعالم عبر عملية الإحالة) لوجود نوع معين من الوحدات اللغوية تختلف من حيث طبيعتها الدلالية عن سائر الوحدات المعجمية لعدم دلالتها على مفاهيم معجمية واقتصارها على الإحالة على وقائع تخاطبية ناتجة عن كل عملية قول. يقسم بنفنيست هذه المؤشرات إلى ثلاثة وهي:

- مؤشرات الشخص «indicateur de personne»
- والمشيريات المقامية (تضم أسماء الإشارة وظروف المكان والزمان...)

«Indicateur d'ostension, indicateur de temps, indicateur de lieu, indicateur de l'objet... »

— والصيغ الزمانية «les formes temporelles»⁽¹²⁾.

— مؤشرات الشخص

• المتكلم الممثل في الضمير «أنا»

يعرّف بنفنيست الضمير «أنا» كالتالي «أنا» هو الشخص الذي يتلفظ بالخطاب الذي يتضمن التحقق اللغوي للصيغة «أنا»⁽¹³⁾. ويشير إلى وجوب الانتباه إلى الاختلاف الجوهرى بين الضمير «أنا» والاسم الذي يمثل مدخلا معجميًا، فعلاوة على الفوارق الشكلية بين ما تقتضيه البنية الصرفية والتركيبية لضمير المتكلم والبنية الصرفية والتركيبية التي يقتضيهما الاسم المظهر يوجد فارق أعمق وأعم؛ فالمدخل المعجمية الاسمية تحيل على «مفهوم ثابت» و«موضوعي» مكن أن يظل افتراضياً أو أن يتحقق بالفعل في شيء معين ويظل كما هو في الصورة التي يوحي بها «une notion constante et objective»⁽¹⁴⁾. أما الضمير «أنا» فلا يحيل على نفس الصورة ولا يوجد شيء معين يمكن أن يحيل عليه فيظل ثابتاً لا يتغير، ف«كل» «أنا» له في كل مرة إحالته التي يختص بها ويوافق في كل استعمال كائناً فرداً مقصوداً في فرديته⁽¹⁵⁾.

ويمكن تفسير هذا التحول المطرد في إحالة «أنا» بكون «أنا» حقيقة خطابية «(16) c'est une réalité de discours» ، وبالتالي فإن إحالته تتحدد في «نطاق اللغة لا في نطاق الأشياء الممثلة بالمدخل المعجمية الاسمية. فعلاقة الضمير «أنا» بالخطاب علاقة لا تنفصم فلا يمكن تعريف الـ«أنا» خارج نطاق الخطاب

(12) Benveniste, t2, p.83.

(13) «Je est l'individu qui énonce la présente instance de discours introduisant la situation d'«allocation»» t1, p.253.

(14) Benveniste, t1, p.252.

(15) Benveniste, t1, p.252. «...et correspond chaque fois à un être unique, posé comme tel».

(16) Benveniste, t1, p.252.

الذي يحدث فيه⁽¹⁷⁾، ولا يتحقّق الضمير «أنا» صيغة لغوية إلا في نطاق عمل القول.

• المخاطب الممثل في الضمير «أنت»

ينطلق بنفنيست مما توصّل إليه في تعريفه للضمير «أنا» ويضيف إليه شرطا من شروط تحقّق الخطاب وهو وجود المخاطب حاضرا كان أو متخيلا، إذ لا يمكن أن تتحقّق إحالة الضمير «أنت» إلا في نطاق الخطاب ولا يمكن أن يتحقّق صيغة لغوية إلا في نطاق عمليّة القول الذي تذكر فيه الصيغة اللغوية أنت⁽¹⁸⁾. فشأنه من هذه الزاوية شأن المتكلّم، لأنّه مثله حقيقة تخاطبيّة.

ويمكن أن نختم هذا الحديث عن الضمائر بحصر بنفنيست ضمائر الشخص في المتكلّم والمخاطب باعتبارهما يكوّنان الزوج [أنا / أنت] وإخراج ضمير الغائب من ضمائر الشخص لا اعتباره خارج الحدود الإنجازيّة لعمليّة القول.

• صيغ الإشارة

ليس من الضروري في هذه الحالة الحديث عن قرائن الإشارة وعلاماتها (التي من قبيل هذا، ذاك، هنا...)، إذ يقتصر الأمر في الإشارة على اقتضاؤها لعمل القول، وعلى كونها تقتضي إشارة حسية إلى شيء معيّن حاضر ترافق التلفّظ بالصيغة التي تدلّ على الإشارة. وتشترك الضمائر وصيغ الإشارة في عدّة خاصّيات أهمّها:

• أنّها تحيل دائما على أفراد سواء تعلّق الأمر بأشخاص أو أزمنة أو أماكن، في حين أنّ العناصر الاسميّة تحيل على متصوّرات،

• أنّ ما يميز هذه العناصر الإشاريّة هي سمة التولّد والتجدّد، إذ أنّها في كلّ عمل قول ناتج عن عمل فردي تتغيّر إحالتها أي هي كما يقول بنفنيست «تتولّد من جديد كلما جدّ عمل قول وفي كلّ مرّة تتجدّد إشارتها إلى شيء»⁽¹⁹⁾

(17) «Je ne peut etre identifié que par l'instance de discours qui le contient et par là seulement» Benveniste, t1, p.252.

(18) «L'individu allocuté dans la présente instance de discours contenant l'instance l'inguistique tu».

(19) «ils sont engendrés à nouveau chaque fois ils désignent à neuf» T2, p.83.



لا بدّ أن تتزامن هذه المشيرات مع تحقّق الخطاب، وبذلك تكتسب طابع الانفراد والخصوصيّة. إذ أن الإشارة تعيّن شيئاً تدلّ عليه الإشارة الحسيّة المصاحبة لتحقّق الخطاب.

وفي نفس المستوى مع أسماء الإشارة نجد الظروف والمركبات الظرفية «les adverbess et les locutions adverbiales» التي من قبيل اليوم، أمس، خلال ثلاثة أيام...⁽²⁰⁾ والتي هي بدورها في علاقة مع «أنا» و«أنت» علاقة تساهم في تحقّق عمل القول⁽²¹⁾، إذ أنّ تحديد المجال الزماني والمجال المكاني الذي تتحقّق فيه عملية القول هو أيضاً مصاحب لتحقّق «الخطاب الراهن» الذي تحقّقه عملية القول بمؤشر الشخص.

– الصيغ الزمانيّة «les formes temporelles»

هي المجموعة الثالثة من الصيغ اللغويّة المتعلقة بالأنا الذي يمثّل قطب عمل القول. فالإنسان لا يستطيع أن يحيا الحاضر ويجعله حاضرا إلا بواسطة إقحام الخطاب في العالم. وينطلق بنفسيست من التمييز بين الزمان اللغوي والزمان غير اللغوي أي الكرونولوجي أو التاريخي. وهذا الأخير يتمثّل في الزمان الفيزيائي وهو متواصل ومتجانس ولا حدود له. وهو يتّخذ بعض الأحداث الطبيعية وحدات للتقسيم مثل حركة الكواكب وهي وحدات تجري في الزمان دون أن تكون الزمان في حد ذاته. أما الزمان اللغوي فيتعلّق بعملية القول في حدّ ذاتها ويتولّد عنها.

(20) T1, p.253.

(21) «L'essentiel est donc la relation entre l'indicateur (de personne, de temps, de lieu, d'objet montré, etc.) et la présente instance de discours» T1, p.253.

ويقصد بنفنيست بالصيغ الزمانية كل الصيغ التي تعبر عن الزمان بالمفهوم اللغوي وتتحدد بعلاقتها بالـ «أنا»، أي أن الـ «أنا» هو الذي يكون محور هذه الصيغ باعتباره مركزا لتنظيم الزمن حوله ومحور عمل القول. وهذا الزمن الذي يوافق حاضر التلفظ هو جزء تابع لهذا الجهاز النظري الضروري لعمل القول. أما الوجه في لزومها لعملية القول فهو أن مقولة الحاضر لا تنشأ إلا بعملية القول وفيه، وبدونه لا وجود لها، ففي جميع اللغات يتجدد الحاضر مع كل عملية قول جديدة. وانطلاقا من مقولة الحاضر تتأسس بقية الأزمنة فـ «الحاضر بالذات هو منبع الزمان» «la source du temps»⁽²²⁾ وهذا لا يكون ممكنا إلا بعمل القول.

ويؤكد بنفنيست أهمية عملية القول في حياة الإنسان بصفة عامة بقوله «لا يملك (الإنسان) أي طريقة أخرى ليحيا «الآن» ويجعله حاضرا إلا بتحقيقه بإقحام الخطاب في العالم»⁽²³⁾.

ويجري بنفنيست هذا التحليل على بقية العناصر اللغوية التي يمكن أن تطابق المؤشرات السابقة شكلياً ويشرّع لذلك بالطابع النظامي للغة إذ هو الذي سيمكّنه مثلا من تحليل الفعل واعتبار الصيغ الفعلية لا تتحقق إلا بتزامن الأحداث التي تدلّ عليها مع تحقق عمل القول.

4 - عملية القول محققة للوظائف الإعرابية الكبرى ومؤثرة في الدلالة والتأويل:

إضافة إلى العناصر السابقة التي تولّدها وتتحكم فيها، توفر عملية القول الظروف الضرورية اللازمة لتحقيق الوظائف الإعرابية الكبرى. «فبمجرد أن يبدأ المتكلم في استعمال اللغة للتأثير في سلوك السامع فإنه يملك على ذمته جهازا من الوظائف [...] من تلك الوظائف الاستفهام باعتباره قولا ينجز ليستدعي

(22) «le présent est proprement la source du temps» T2,p.83.

(23) «l'homme ne dispose d'aucun autre moyen de vivre le «maintenant» et de le faire actuel que de le réaliser par l'insertion de discours dans le monde» T2,p.83.

جواباً⁽²⁴⁾. وكلّ ما يتعلق بالاستفهام من حيث الأساليب والصيغ اللغوية وتنظيم الكلام تابع لعمل القول.

وفي نفس الصنف يمكن إدراج الأساليب والصيغ اللغوية وتنظيم الكلام المتعلق بما يسمّى أساليب الطلب كالأمر والنداء التي تقتضي علاقة مباشرة للمتكلّم بالمخاطب وعلاقة مباشرة بزمان القول، ومثل ذلك الخبر، وحتى النفي

والإثبات عند تحقّقهما في صيغ من قبيل «نعم» و«لا».

نلاحظ من خلال ما سبق أن بنفيسيت يعني بهذه الوظائف الإعرابية الكبرى ما أصبح يسمّى عند غيره من الباحثين أمثال «أوستن» و«سورل» الأعمال اللغوية، وبالتالي فإن بنفيسيت يعتبر أنّ هذه الأعمال أو الأساليب أو الوظائف تابعة لعملية القول ولا يمكن أن تتحقّق إلا في نطاقه.

ويؤكّد بنفيسيت على أن عملية القول تُنشئ تلك العلاقة التخاطبية بالمخاطب أو المتلقي أو السامع، وهو ما يسميه بـ *le cadre figuratif de l'énonciation* أي «الإطار الشكلي للقول»، باعتبار أن القول يقتضي شخصين أو وجهين *deux figures* يمثّل الواحد منطلقاً والآخر منتهى وهدفاً للقول. وهذه البنية هي بنية الحوار، حيث يتواجه شخصان ويتناوبان على عمل القول⁽²⁵⁾.



(24) T1, p.84.

(25) T1, p.85.

خاتمة:

قامت عملية القول عند بنفنيست على أقطاب رئيسية هي المتكلم والمخاطب ومشيرات مقامية متمثلة في أسماء الإشارة وظروف الزمان وظروف المكان، وتكوّن هذه المشيرات مجتمعة جهازا يمكن من تحويل اللغة إلى عملية قول وبالتالي إلى خطاب له دلالاته. وبذلك أسّس بنفنيست لهيكله حقيقية لهذه المسألة وفتح بذلك الباب أمام الباحثين في هذا المضمار.

كما نلاحظ أن تشعب عملية التواصل وتطور وسائلها لا يمكن أن ينفي هذه المقومات الشكلية والدلالية لعملية القول، وإنما يمكن أن ننطلق منها لتوسّع في كيفية تحقّقها.

إن هذا الشكل النظري بكل ما تقتضيه هذه العبارة من عمق واقتضاء لعناصر ومكوّنات ثابتة تتوفّر في كلّ عملية قول فردي، كان بمثابة التأسيس لتجذّر عملية الخطاب وعملية القول في السياق، وربطها بدلالاتها وبمستعملها، وقد أثر هذا الاتجاه في توسّع مسار الدراسات اللسانية الحديثة بإفضائه إلى مباحث دلالية متنوعة.

كان لهذا الجهاز المفهومي أثر كبير في اللسانيات الحديثة، ونحن نجد أغلب مقوماته في النحو العربي منذ سيبويه، وهذا يدلّ على أنّ عملية القول هي عملية إنسانية وجدت مع استعمال الإنسان للغة، لكن البحث فيها يختلف باختلاف الأنحاء وكان في النحو العربي ضمن مباحث مختلفة إذ لم يكن غرضا بعينه.

فلئن كان كلام بنفنيست جديدا في نطاق الدراسات اللسانية الغربية في منتصف القرن الماضي بما يحتويه من فتح لآفاق الدراسة اللغوية على مجال الاستعمال والتواصل ومنزلة الإنسان في اللغة، فإنه قد بدا لنا أن عددا من المفاهيم التي مثلت قطب كلامه في وصفه لـ «الشكل النظري لعمل القول» وإن ظهرت لأصحاب النحو الغربي طريفة جديدة في ذلك الوقت، لا يتوفر فيها نفس القدر من الجدة والطرافة، ولا هي بالعربية غربة تامة على ما كتب في النظرية النحوية العربية، وبالأخص ما تعلق بمقومات «عملية القول» كالأدوار التخاطبية ونظام الضمائر ونظام الأزمنة وجميع ما تعلق بوظيفة المتكلم عند إنشائه لعمل القول. ولا يدخل هذا في باب المقارنة والإسقاط وإنما هي إشارة لحقائق متّصلة بنظامين مختلفين يهتمان باللغة كلّ من منطلقاته.

المصادر

- Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, tome I, Edition Gallimard, 1966.
- Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, tome II, Edition Gallimard, 1974.

المصطلح اللساني والمصدر الصناعي

أ.د. منانة حمزة الصفاقسي

مخبر «المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية» (LR18ES46)
كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة - تونس

ملخص:

يقع المصدر الصناعي في هامش المناويل القديمة الواصفة لنظام العربية. فالمؤلفات التقليدية وثقت وجود عدد من الحالات المستعملة في كلام العرب وحتى عند بعض النحاة. لكن كتب النحو القديمة تعاملت معه بطريقتين: فإما أنها أهملت ذكر الحالات المستعملة، وإما أنها لم تهتم به باعتباره شكلا لغويا مستقلا بذاته، وإنما ذكرته غالبا ضمن المصادر غير القياسية. في مقابل ذلك اصطُح على تسمية هذه الحالات بـ «المصدر الصناعي» بعد القرن العاشر للهجرة. وتوجه عدد قليل من الباحثين المحدثين إلى دراسة هذه البنية اللغوية: قدّموا أمثلة من استعمالها، واعتبروا أنّ تزايد استعمالها يرجع إلى الحاجة إليها في تسمية المفاهيم العلمية. وقدّم بعضهم، ومنهم المجمع العلمي العربي بالقاهرة، بعض مقاربات تخصّ الشكل النظري للمصدر الصناعي ودلالته.

نحاول في هذا البحث أن نبرز بعض النقاط الرابطة بين علم المعجم وعلم المصطلح. ونأخذ مبادئ المصطلحية الدلالية إطارا لتنزيل المصدر الصناعي في أصناف العلامات اللغوية باعتباره وحدة معجمية تمّ اعتماد متحققاتها في الخطاب العلمي. ونسعى إلى الوقوف على الأسباب التي تفسّر النقلة النوعية التي عرفها هذا الشكل اللغوي من هامش المناويل الواصفة إلى التنظير. وبذلك نحاول أن نبرز نقاط القوة المميزة التي تجعل المصدر الصناعي قادرا على تسمية المفاهيم العلمية.

الكلمات المفتاحية : مصطلح، مصدر صناعي، تجريد، مفهوم، علم المعجم، علم المصطلح، المصطلحية الدلالية، الصناعة المعجمية، الصناعة المصطلحية.

Résumé :

Al- masdar as-sinai se situe à la marge des modèles anciens qui décrivent le système de la langue arabe. Les œuvres traditionnelles, même ceux des grammairiens, témoignent que les arabes utilisaient quelques cas de cette forme. Cependant, les grammaires anciennes ont traités ces cas de l'usage de deux façons différentes : ou bien ils les ont ignorés ; ou bien ils ont considérés qu'ils ne représentent pas une classe indépendante de formes linguistiques et les ont cités parmi les masdars non analogiques. En revanche, après le dixième siècle de l'ère hégirienne, on a utilisé le terme «masdar sinai» pour désigner ces cas de l'usage. Quelques chercheurs contemporains se sont orientés vers l'étude de cette structure linguistique : ils ont donné des exemples de son usage dans la langue, ont considéré que le recours croissant à l'usage de cette structure s'explique par le besoin de nommer les concepts scientifiques et quelques-uns- parmi eux l'Académie de la langue arabe du Caire- ont formulé des approches concernant la forme théorique du masdar sinai et sa sémantique.

Dans cet article, nous essayons de mettre en relief quelques points de rencontre entre la lexicologie et la terminologie. Nous considérons que la terminologie sémantique est le cadre théorique adéquat qui permet de situer al-masdar as-sinai dans les catégories des signes linguistiques ; étant donné qu'il s'agit d'une unité lexicale, qui est devenue terme suite à son usage dans le discours scientifique. Nous chercherons à trouver les raisons qui expliquent le transfert significatif de cette forme linguistique de la marge des modèles descriptifs à la théorisation. Ceci nous permettrait d'élucider les points forts distinctifs qui donnent au masdar sinai la capacité de nommer les concepts scientifiques.

Mots-clés Terme, Masdar sinai, Abstraction, Concept, Lexicologie, Terminologie, Terminologie sémantique, Lexicographie, Terminographie.

1 - المصطلح اللساني علامة لغوية:

1.1. العلامة اللغوية وعلاقة الوحدة المعجمية والمصطلح بها:

تتواتر في تعريف العلامة في المعاجم اللغوية ألفاظ من قبيل «ما يهتدى به، سمة، أمانة، شعار... (ابن منظور. لسان العرب (ع ل م)). ويستفاد من ذلك وجود علاقة تصل بين شيئين: رمز قد يكون لفظاً أو إشارة صوتية أو حركة... وهو الشيء الذي يدلّ، ومحتوى وهو الشيء أو معنى الشيء الذي وضع الدال للتعبير عنه. ولعلّ مفهوم هذه العلاقة قد تبلور مع مؤسس اللسانيات الحديثة فاردينان دي سوسير. فالعلامة اللغوية عنده تلازم بين مكونين: دال signifiant ومدلول signifié بما هو صورة ذهنية للمعنى. وتتنزّل دراسة العلامة اللغوية في كتاب «دروس في اللسانيات العامة» في إطار علم العلامات⁽¹⁾ sémiologie باعتباره علماً توقع دي سوسير أن يشمل المجالات التي تستعمل فيها كل أصناف العلامات بما فيها العلامة اللغوية: «تعتبر العلامة عامّة أنّها المفهوم القاعديّ للسميائية وهي أيضاً، في نظر سوسير، أساس اللسانيات، لأنّه إذا أمكننا للمرّة الأولى أن نحدّد مكانا للسانيات بين العلوم فذلك لأنّنا ألحقناها بالسميائية» (أوزوالد دوكرو وجان-ماري شافار، 2010، ص 213).

يبدو مفهوم العلامة في عمومها موضع خلاف بين اللسانيين وغيرهم ممن يشتغلون به، وهذا طبيعيّ بحكم أنّ العلامة ممّا يشترك في دراسته الباحثون في الكائنات الحيّة وغيرها. فلإنسان علاماته، وللحيوان علاماته، وللظواهر الطبيعيّة علاماتها. لكنّ ما يجمع بين هذه الأصناف من العلامات المختلفة هو استعمالها للتواصل أو لنقل استعمالها للإحالة على معنى ما. ذلك أنّ تواصل الحيوان بالتصويت في شكل مقاطع متنوّعة يعبر عن وضعيات مختلفة، منها تمثيلاً لا حصراً ما يحيل على الشعور بالجوع أو العطش، ومنها ما يوحي بالرغبة في الجماع، ومنها ما يحيل على وجود خطر محقق. وتختلف صور التواصل بين البشر فتكون باللفظ أو بالكتابة أو بصنوف اللباس للتعبير عن أغراضهم. أمّا صور تواصل الإنسان

(1) فضلاً عن هذه الترجمة ترجم هذا المصطلح بألفاظ مختلفة منها العلاميّة والسميائية والسميولوجيا.

مع عناصر الطبيعة فتختلف باختلاف العنصر. فقد نفهم من تراكم السحب إيدانا بنزول المطر. ذلك أنّ اختلاف العلامات الواسمة يحيل على مدلولات هي عبارة عن معان، كل واحد منها يتّصل بمرجع ما بالمعنى الواسع للمرجع.

يقتصر مفهوم العلامة اللغوية عند دي سوسير على ما هو موجود في اللسان. فهي ظاهرة ذات وجهين: دال ومدلول. ولكن لهذين الوجهين مرجعا ما قد يكون محسوسا كشجرة زيتون موجودة في ضيعة وجودا عينيّا يتحدث عنها فلاح تونسي. والمدلول هو المتصور في الذهن وهو مفهوم مجرد بحيث قد تكون الشجرة زيتونة أو نخلة أو شجرة لوز. فبحسب ما تعودت عليه أذهان المتخاطبين في بيئاتهم يرتسم في ذهن كل واحد منهم صنف من الأشجار. والعلامة لا تحيل على الشيء المرجع إحالة مباشرة، وإنّما تحيل على متصور يقوم على أبرز السمات لذلك المرجع. «فالعلامة لا تحيل أبدا إحالة مباشرة إلى شيء وإنّما تحيل فقط من خلال مدلول يتّقي منه بعض السمات التي يفترض أنّها مفيدة للعلاقة الإحالة المستهدفة»

(م ن، 215). يؤكّد ذلك أنّ اللغة تقوم على الألفاظ والمعاني المتّصلة بها، وهي متصورات داخل الذهن الإنساني. أمّا ما هو موجود في الكون من أشياء فلا تنقله اللغة بكيونته الماديّة وإنّما بأبرز سماته ومقوماته المشتركة والعامة التي يمكن للدماغ البشري أن يستوعبها. فالإنسان يتواصل بدوالّ ترتبط بمدلولات متواضع عليها داخل المجموعة اللسانية الواحدة، وليس بالموجود العيني. فعندما نسعى لتعليم الطفل معنى شجرة نقدّم من أجل ذلك أمثلة مختلفة من الواقع الخارجي بحسب البيئة التي ينتمي إليها الطفل. ذلك أنه يتعدّد التواصل باعتماد المحسوسات العينية المباشرة في كلّ الحالات، فضلا عن أن كثيرا من الموضوعات المتحدّث عنها هي موجودات معنوية لاحسّية نحو الذكاء والبخل والحبّ والكره والغول. وما التمثيل إلا ضرب من الاستعاضة عن المرجع بما يتقوّم به المعنى من السمات الدلالية. فالعلامة اللغوية جوهرها انعقاد الصلة بين الدال والمدلول متلازمين، وعلاقتهما بالمرجع مشروطة بأشياء من خارج اللغة؛ ودور نظام اللغة مراقبة سلامة هذه العلاقة أمنا للبس. من هذا المنطلق نميّز بين المدلول اللغوي *signifié* والمرجع *réfèrent* فالأوّل مجرد والثاني عينيّ سواء أكان من المحسوسات أو من المعنويات. وارتباط المدلول بالذهن يجعله أكثر قدرة على تحقيق التواصل بين

البشر». فالمدلول هو تجريد، نوع من الحقيقة النفسية. هو أكثر فقراً وأحسن تنظيمًا من الموجود في الواقع. يبسط تعقّد الواقع ويبرز الأساسي منه بتوفير تنظيم أوليّ لعناصر العالم»⁽²⁾ Jaro. (2009).

ويقتضي تعدّد مجالات الحياة وتشعبها واستعمال اللغة للتعبير عنها أشكالاً من الاستقلال. فيختصّ الأطباء والمهندسون والفلاسفة ونقاد الأدب والإعلاميون والرياضيون والنجارون والحدادون والجزارون ... بجهاز من العلامات خاصّ بكل فئة منهم. وتُستحدث كلّ فئة نظاماً من العلامات يتواصل أفرادها به في ما بينهم. وتجدر الإشارة إلى أنّه، رغم بعض التداخل، يمكن التمييز بين مجالين واسعين من الفئات المعنية بأجهزة العلامات الخاصة أي المصطلحات: مجال العلوم ومجال التقنيات. فالمجال الأوّل ذو توجه نظري؛ أمّا التقنيّون فهم المتعاطون للأنشطة التطبيقية (Mortureux, Marie-Françoise, 1995, p.3). وجميع المعنيين بالمجالين محتاجون إلى أجهزة اصطلاحية تحقّق التواصل بينهم. ومن سبل الاستحداث تغيير دلالة وحدة معجمية والخروج بها من الوضع الأوّل العام إلى وضع ثانٍ خاصّ. ويكون ذلك بتغيير يلحق الأصل فنخرج من علاقة أولى أصليّة إلى علاقة محدثة بين الدال والمدلول. وهذا وضع عدد من المصطلحات في مختلف المجالات المعرفية. جاء في كتاب التعريفات: «الاصطلاح عبارة عن اتفاق قام على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأوّل» (الجرجاني، التعريفات، ص27). استعمل الجرجاني لفظين دالّين في اعتقادنا على الخروج من وضع أوّل إلى وضع ثانٍ في عمليّة الاصطلاح، وهما لفظاً «نقل» و«موضع أوّل». وتحتكم عمليّة النقل إلى مبدأ الاتفاق بين أفراد المجال المعرفي الخاصّ بهم. وهذا ما يمكن أن نفهمه من قول التّهانوي: «الاصطلاح هو العرف الخاصّ» (التّهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج2، ص822). والمقصود بـ «الخاصّ» أنّ المصطلح متعلّق بحقل دلالي ضيق يرتبط بمجال بعينه على نقيض الوحدة المعجمية في الاستعمال العامّ المشترك

(2) Jaro, 2009, « Le signifié est donc une abstraction, une espèce de réalité psychologique. Il est plus pauvre et mieux organisé que la réalité. Il simplifie la complexité du réel et met en évidence l'essentiel en donnant un premier classement des éléments du monde ».

بوصفها من المجال العام. «إنّ المصطلح بالنسبة إلى المتخصص هو وحدة تمكّن نقل المعرفة الخاصة بمجال اختصاصه.» (لوم، ماري-كلود، 2012، ص 87). فالمصطلح يكتسب من انتسابه لمجال بعينه خصوصية تجعل المعنى شديد الاتصال بذلك المجال، وبمجرد الفصل بين المجال وذاك المصطلح يقع الفصل بينه وبين دلالاته الخاصة، فيعود إلى وضعه الأول اللغوي إذا كان متحوّلاً عنه. وما يميّز به المصطلح عن الوحدة المعجمية هو هذه الخصوصية التي تضيق من الدلالة اللغوية العامة وتوجّهها نحو الاختصاص بمجال معلوم مثل مصطلح «حاسوب» عند الإعلاميين، فكل حاسوب يقوم بعمليات حساب مختلفة، بالمعنى اللغوي العام للكلمة، لكنّ العكس غير صحيح؛ فالآلة الحاسبة تقوم بعمليات الحساب ولكنها ليست حاسوباً. وقد يغادر المصطلح الدلالة اللغوية تماماً كما في مصطلح الجذر في الرياضيات⁽³⁾، فتخرج به من العام إلى الخاص، ومن مجرد وحدة معجمية إلى علامة مصطلحية. وهذا ما قد يفسّر قيام المصطلح على جملة من الخصائص التي تخرجه من المجال اللغوي العام إلى مجال معرفي مخصوص.

من وجوه القوة في نظرية العلامة اللغوية أنّها مفهوم موغل في التجريد يصحّ أن نعيّن به كل وحدة دالة في كلّ لسان بشريّ. فهي تتحقّق بالألفاظ التي يصطلح عليها في المعاجم خاصّة بالكلمات⁽⁴⁾. على أن ذلك لا ينطبق على كلّ أصناف الكلم أي الاسم والفعل وحرف المعنى. فالأولان هما ممّا تشتغل به المعاجم لأنّ معنى كلّ واحد منهما في نفسه بصورتين مختلفتين. أما الحرف، حرف المعنى لا حرف المبنى، فمعناه في غيره؛ تهتمّ به كتب النحو لأنّ معناه نحويّ، وإن كانت

(3) يعود مفهوم الجذر التريبيعي إلى مسألة البحث عن ضلع مربع مساحته معلومة، وقد كان عالم الرياضيات الخوارزمي أول من استعمل كلمة جذر للدلالة على العدد المستخرج من مربّعه. (عبد العزيز بوزيان وفريد النجار، المصطلح الرياضي، ص 356).

(4) أعرض كثير من اللسانيين عن استعمال مصطلح الكلمة لصعوبة وجود تحديد دقيق له ولعلاقة بنظرية أقسام الكلم في الأنحاء التقليدية وعوضه بعضهم بمصطلح الوحدة الدالة والوحدة الدنيا الدالة ومصطلحات أخرى. لكن ظلّ المعجميون متمسّكين به باعتباره الوحدة المعجمية المعتمدة في صناعة المعجم (Le Mot. Maurice Pergnier. P.U.F. Paris 1986). قدّمه رفيق بن حمودة، حوليات الجامعة التونسية، ع 31، سنة 1990. وانظر كذلك: عبد القادر المهيري، مفهوم الكلمة في النحو العربي، حوليات الجامعة التونسية، ع 23، سنة 1984).

بعض معاجم اللغة مثل لسان العرب لابن منظور تتضمن بعض المداخل الحرفية. ولم يفت أهل النظر التنبيه إلى أنّ الكلمة الواحدة في اللغة العامة المشتركة تعبّر في أغلب الأحيان عن أكثر من معنى، وقد اصطلح على ذلك بالتعدد الدلالي *la polysémie*. فاعتبر اللغويون أنّ من هذه المعاني ما يكون على الحقيقة وهو الأصل في الاستعمال ومنها ما يكون على المجاز. فقولنا «ضرب الرجل الحمار» نفهم منه مباشرة معنى الضرب المحدث بالجراحة؛ في حين أنّ استعمالنا لنفس الفعل في قولنا: «ضرب الأعراييّ مثلاً» يغيّر من المعنى السابق، وهو حدث الضرب ليصبح دالا على «القول» أو على «القتل» في قولنا: «ضرب عنق فلان». ولعلّ في تعبير الكلمة الواحدة عن معان مختلفة باختلاف استعمالاتها ثراءً لغويًا يفسّره قانون الاقتصاد اللغوي. لكن تظلّ دلالة اللفظ الواحد على معان تختلف باختلاف السياق ظاهرة يتعامل بها عامّة المستعملين من المجموعة اللغوية من قبيل الأوضاع الأولى للغة باعتبار شيوعها وعموم اشتراكها بين أفراد المجموعة اللسانية المتكافئين في القدرة على استعمال لسانهم.

يختلف المصطلح عن الوحدة المعجميّة العامة عادة بأحادية الدلالة *monosémie*. والمصطلحات لا تعرف الاشتراك الدلالي ⁽⁵⁾ *homonymie*. ولا تعرف الترادف ⁽⁶⁾ *synonymie*. ذلك أنّ المصطلحات مفاتيح ضمان في التواصل بين الفئات في المجالات المعرفية الخاصة. وإذا تعدّدت الدلالات فُتح باب التأويل وتسرب الفساد في عملية التواصل وزال الغرض الذي من أجله وضع المصطلح. ألا ترى أنّ الطّبيب الجراح لو استعمل لفظ «سكين» بدل «المشرط» في غرفة العمليّات لارتبكت الأمور، رغم أنّ وظيفتي كلّ من السكين والمشرط متقاربتان، لكن السكين يستعمل في المطبخ أو عند الجزارين خلافاً للمشرط. ولا نستبعد أن نجد مصطلحا يستعمل بمفهومين مختلفين. ف«القاعدة»

(5) توجد بعض الاستثناءات: الحال عند النحاة القدامى يقصد به الزمن الحاضر وتقصد به كذلك الوظيفة التركيبية الدالة على وضعية صاحب الحال.

(6) يمكن أن نجد في العربيّة حالات قد تعبّر من قبيل الترادف وذلك نحو ترجمة *linguistique* بلغويّات ولسانيات وألسنية. فالمفهوم واحد والمصطلحات متعدّدة بسبب عدم الاستقرار الاصطلاحي الناتج عن تعدد وجوه الاجتهاد المعتمدة على لغات مختلفة كالفرنسية والإنجليزية.

تستعمل مصطلحا في الدراسات اللغوية بمفهومين مختلفين: في الأنحاء التقليدية هي القانون المجرد من الاستعمال، وهي في اللسانيات التوليدية فرضية من فرضيات البحث في الظواهر اللغوية. ورغم ما بين النحو التقليدي واللسانيات من وشائج، فإن من حَقَّق النظر رأى أنَّ ذلك ليس من باب التعدد الدلالي في شيء لأنَّ المنظومتين اللَّتين يستعمل فيهما المصطلح مختلفتان. وقد يستعمل المصطلح كذلك في مجالين مختلفين تماما. فـ«القاعدة» في الدراسات اللغوية مفهومها مختلف عنه مستعملة في المجال العسكري. وليس ذلك أيضا من باب التعدد الدلالي لما بين المجالين من بعد. ولهذا السبب تنبّه المعاجم المختصة إلى الفرق بين مفاهيم المصطلح حين تستعمل في أكثر من مجال. فـ«الصرف» مفهومه عند أهل اللغة يختلف عن مفهومه عند الفقهاء ويختلف عن مفهومه عند النحاة (التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص 837). ذلك أنَّه يفترض في المصطلح أن يشغل مشروطا بعلاقات صارمة تربط بينه وبين مصطلحات أخرى في منظومة حدودها غالبا مغلقة داخل المجال المعرفي الخاص، ولهذا السبب تكون دلالاته في الغالب ضعيفة التعليل أو غير معللة *non motivé*، فلا تكاد تربطه علاقات دلالية اشتقاقية بوحداث أخرى كما هو الحال في الحقول المعجمية *champ lexical* في المعجم العام. أمَّا الوحدة المعجمية الدالة في اللغة العامة فتشغل في علاقات مرنة ترتبط بمقتضاها بوحداث أخرى لها دلالات قريبة منها وأخرى لها دلالات ضديدة وهو ما تُنبّه إليه معاجم اللغة عادة في أواخر الفصول، فتتنزل معجميا في شبكة من العلاقات الاشتقاقية والدلالية مع وحدات أخرى من حقول اشتقاقية ودلالية تساعد على الاهتداء إلى دلالاتها.

إنَّ ما ذكرناه من فروق مميزة بين الوحدة الدالة في اللغة العامة والمصطلح في اللغة الخاصة لا ينفي بالضرورة وجود علاقات تربط بينهما. فالمصطلح من حيث المنشأ، إمَّا أن يكون لفظا مستمداً من الاستعمال العام فتُضَيِّق دلالاته وتُدقّق لضرورة الاصطلاح نحو النوع والجنس والفصل والخاصة والعرض مستعملة في الدلالة على الكليات الخمس في المنطق؛ وإمَّا أن تكون من قبيل الدخيل فيعالجه اللسان المقترض بقوانينه الصوتية والصرفية والتركيبية نحو الصوتم واللفظم والسيمم في اللسانيات الحديثة. وفي كلتا الحالتين يخضع

المصطلح لقوانين اللسان الذي يستعمله بعد المعالجة الدلالية في الحالة الأولى والمعالجة اللفظية في الحالة الثانية، فيستعمل في البنيات التركيبية لذلك اللسان. فضلا عن ذلك توجد بين اللغة العامة واللغة الخاصة حركية يفقد بمقتضاها المصطلح من الصرامة المشروطة في المجال الخاص. يحدث ذلك عندما يتواتر استعماله في الخطاب العام في وسائل الإعلام وفي وسائل الإشهار وفي خطاب الإرشاد vulgarisation وفي وسائل التواصل الاجتماعي فلا يحافظ المستعملون على ضيق دلالاته بل يوسعونها ويطوعونها للمجاز أحيانا. (Mortureux, Marie-Françoise, 1995, p.9) وهذا في اعتقادنا من طبيعة الأمور فالوحدات المعجمية والمصطلحات تخضع لأحكام المحيط اللساني الذي تشتغل فيه تضييقا وتوسيعا. فإذا تنزلت المصطلحات في سياق لساني عام اكتسبت بعضا من خصائص الوحدات المعجمية التي ذكرناها؛ وإذا انتقلت الوحدة اللسانية من مجال اللغة العامة إلى مجال مختص اكتست وجوه الاصطلاح من تضييق في الدلالة وخروج من شبكة العلاقات الدلالية العامة ودخول في علاقات دقيقة مع وحدات اصطلاحية أخرى.

2.1. علم المعجم Lexicologie وعلم المصطلح Terminologie: (7)

1.2.1. علم المعجم وخصائص الصناعة المعجمية lexicographie:

يتنازع المصطلح عند المهتمين بالمسائل المعجمية مجالان معرفيان مستقلا - في الظاهر - أحدهما عن الآخر: علم المعجم من ناحية وعلم المصطلح من ناحية أخرى. لهذا السبب، ورغم تركيزنا في هذا البحث على بعض جوانب المصطلح تمهيدا لتفصيل القول في المصدر الصناعي، فإننا نقدر أن تحقيق غايتنا مرهون بالتذكير بأساسيات علم المعجم وخصائص الصناعة المعجمية حتى تتبين لنا بعض وجوه الاشتراك بين المجالين المعجميين العام والخاص ونقف على ما يمكن أن يكون بينهما من الفروق المميزة. ذلك أنه يتعدّد الحديث عن المصطلحات بمعزل عن الوحدات المعجمية. ف«المصطلحات هي وحدات

(7) نستعمل عند الحاجة علم المعجم لترجمة lexicologie، وصناعة المعجم لـ terminologie. وعلم المصطلح لـ lexicographie وصناعة المصطلح لـ terminographie.

معجمية يُنظر إلى معناها ضمن إطار مجال تخصص «لوم، ماري-كلود. 2012، ص 42).

يهتم علم المعجم بالمسائل النظرية المتعلقة بالوحدات في المعجم العام. ومن أهم المباحث في هذا المجال نذكر العلاقة بين مفهوم العلامة اللغوية والكلمة والدلالة المرجعية، ووجهات النظر في تحليل المعنى المعجمي، والعلاقات الدلالية بين الوحدات المعجمية، والصرفية المعجمية بما هي معالجة لوجوه تكوين الكلمة مفردة أو مركبة (Françoise, 2000, Lehmann) وتنظر الصناعة المعجمية في قضايا جمع الوحدات المعجمية ومسالك وضعها (بن حمودة رفيق. تقييم المعجم العربي القديم، ضمن حوليات الجامعة التونسية، العدد 31، سنة 1991). وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن مهام معجم اللغة العامة قد ضببت منذ بداية القرن العشرين. يقول ستيجر Steger: «إن وظائف المعجم الحديث هي، من حيث الأساس، خمس: إعطاء كل كلمة هجاءها الصحيح، ومقاطعها وتلفظها واشتقاقها وتعريفها» (ضمن القاسمي، علي، 1991، ص 71). والمقصود بالكلمة في المعجم العام هو اللفظة أو مجموعة الألفاظ الدالة في استعمال الناطقين باللغة على معنى مفرد نحو كتاب / أرسل / جمهورية/ على الفور ... هذه المهام هي التي حددت - نظرياً - المضامين المطلوبة في وضع الفصل المعجمي article lexicographique. لكن ننبّه إلى أن المعاجم تتفاضل في العمل بهذه الوظائف. وقد حاول عدد من الباحثين أن ينظروا في مدى استجابة المعجم العربي لشروط صناعة المعجم فعدّدوا خاصة نقائصه (الحسني، عبد الكبير، 2023، صص 79-82).

2.2.1. علم المصطلح وخصائص صناعة المصطلح Terminographie:

لم يظهر استعمال لفظ «مصطلح» في عناوين بعض الكتب العربية، على ما يبدو، قبل القرن الرابع عشر الميلادي (القاسمي، علي، 2019، ص 300). لكن التفكير اللغوي القديم اهتم إلى ما بين الوحدات اللغوية والمصطلحات من فروق تقتضي التمييز بينهما. فأفرد كلا منهما بمصنّفات تخصّه: وضعت معاجم اللغة، ولعلّ أولها عند العرب كتاب العين للخليل بن أحمد (ت 170 هـ).

وبدأت محاولات وضع المعجم المختص غير مفصول عن المعجم العام بما يطلق عليه في التراث العربي تسمية معاجم المعاني، ولعل أولها معجم الغريب المصنّف لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ) باعتباره، في رأي محمد رشاد الحمزاوي، «مصدراً أساسياً لما أتى بعده من المعاجم المتخصصة والعامّة» (ابن سلام، أبو عبيد القاسم، الغريب المصنّف، ج 1، ص 10). ثم تتالت المحاولات حتى استقلّ المعجم الخاص عن معاجم اللغة، وربما كانت أظهر صورة لها معجم كشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (ت 1745 م). ولعلّ العرب القدماء اهتموا إلى هذا الفصل بضرب من الحدس المتولد من التعامل مع مجالين مختلفين: ما يهمّ عامّة الناس من الألفاظ من ناحية وما يهمّ العلوم الناشئة عندهم من شرعية و مترجمة عن الأعاجم من ناحية أخرى.

اتّسمت النظرة التقليدية للمصطلح في التفكير الغربي قبل القرن التاسع عشر بضرب من التقعيد. فكان المصطلح يعدّ من الألفاظ الغريبة الشاذة غير المستحبة لنواميس البلاغة بحكم أنها من المستحدث من الألفاظ الصعبة والغامضة والتي لا ترجى منها فائدة (Rey, Alain, 1979, p. 7). واقرنت بدايات تبيين دراسة المصطلح عند الغربيين بتطور المعارف العلمية والتقنية في القرن التاسع عشر. وتعدّ كثافة مادّة الإعلام المتداولة بين المجتمعات والشعوب وتطور وسائل انتشارها سببا مباشرا في الاهتمام بدراسة المصطلح. ويرجع الفضل في تأسيس علم المصطلح الحديث إلى أوجين فوستير⁽⁸⁾ Eugene Wüster «إنّ مبادئ النظرية الكلاسيكية لعلم المصطلح التي تُسمّى أحيانا بالنظرية العامة لعلم المصطلح، مرتبطة بأوجين فوستير Eugene Wüster وهو مهندس نمساوي قد اقترح أول صياغة لهذه المبادئ في العام 1930 «(لوم، ماري-كلود، 2012، ص 44). وقد بلور أهمّ مبادئ نظريته في كتاب «التعبير الدولي للغات الهندسة

(8) ناقش فوستير أطروحة دكتوراه بعنوان «التقييس الدولي للغة التقنية» في جامعة برلين عام 1931. ونشر سنة 1968 Le dictionnaire international de la Machine-outil. توفي سنة 1977. نشر له بعد وفاته كتاب طبع ثلاث مرات باللغة الألمانية 1978 ثم 1985 ثم 1987 عنوانه «مقدمة في المنهاج العام لعلم المصطلح وفي صناعة المعجم المصطلحي» Einführung in die allgemeine Terminologielehre und terminologische Lexikographie.

وخاصة الهندسة الكهربائية» الصادر سنة 1931. وقد لقيت نظريته وتطبيقاتها عند المهتمين بالموضوع عدّة انتقادات لعلّ أهمّها أنّ أعماله ومقترحات التعبير normalisation التي تضمّنها مقطوعة عن الوقائع والظواهر اللسانية (Humbley, John, 2007, p.82). ولا يخفى أنّ فوستير لم يتلقّ تكويناً لسانياً أكاديمياً وإنما كان عصامياً في هذا المجال، ولم يمنعه ذلك من أن يقدّم، بصفته أستاذاً شرفياً، طيلة سنتين 1972-1974 درسا في جامعة فينّا Vienne عنوانه «علم المعجم وصناعة المعجم وخاصة علم المصطلح وتعبير اللغة». ولعلّ الانتقادات التي وجّهت إلى نظرية فوستير وتطبيقاتها في علم المصطلح ترجع إلى نقطة خلافية أساسية في مقارنة الموضوع؛ تتمثل في تصوّره الصارم المعياريّ في وضع المصطلح؛ في حين أنّ المناهضين له يشدّدون على ضرورة أن تكون المقاربة نصيّة تحتكم إلى الاستعمال.

ورغم أنّ آراء فوستير أصبحت تعتبر كلاسيكية اليوم عند الكثيرين، فإنه لا خلاف في أنّه كان مؤسساً لعلم المصطلح ورائداً للمقاربات التطبيقية التعبيريّة في هذا المجال. وقد تأثّر فوستير بالمناخ العلميّ السائد منذ بداية القرن العشرين خاصّة والمتمثّل في توسيع دائرة البحوث لتشمل العامّ الكوني مثلما حدث في اللسانيات مع دي سوسير. فأحدثت نظريته نقلة نوعية في الدراسات الاصطلاحية من الدخلسانيّ intralinguistique إلى البينلسانيّ interlinguistique، ذلك أنّ الدراسات السابقة له تنظر إلى المصطلح من حيث هو نوع مستحدث مخصوص من الكلم، غامض الدلالة وتشغل عليه باعتباره من الوحدات اللغوية داخل اللسان الواحد لا تتجاوزه؛ وأصبح المصطلح معه موضوعاً لعلم يأخذ بعين الاعتبار سائر الألسنة البشريّة ويؤسّس لمعايير وضع المصطلح لتحقيق هدف التواصل بين الفئات المشتركة في الاختصاص مهما اختلفت ألسنتهم. ولعلّ حرصه على تحقيق الأهداف المرجوة هو الذي حكم بالصرامة التي اعتبرها بعض مناهضيه ضرباً من المعيارية.

أشرنا سابقاً إلى أنّ المصطلح وضع ثان باعتبار أنّ الأوضاع الأولى هي للوحدات المعجميّة الراجعة إلى المعجم العامّ. أمّا المصطلحات فإنّها أوضاع ثانية لأنها في الأغلب الأعمّ نقل للوحدة المعجميّة من المجال العامّ إلى المجال

الخاص. وذلك شأن لفظ «عامل» فهو يطلق في اللغة العامة على كل من يعمل عملاً بيده في مجال صناعي أو فلاحى أمّا «العامل» في علم النحو فهو اللفظ الذي يقتضي معمولاً يحدث فيه أثراً إعرابياً ظاهراً أو مقدّراً، ويجمع على «عوامل» في حين أنّ العامل بمفهومه الأوّل يجمع على «عمّال» وقد يكون هذا الاختلاف في الجمع دليلاً على اختلاف في المدلول. ويمكن أن نضيف إلى ذلك وجهاً آخر من الفروق وهو أنّ الوحدات المعجمية تتقرّر بفعل الاستعمال الجماعي للمجموعة الناطقة باللغة، حتّى إنّّه - لولا أدوات البحث الإلكترونية الحديثة - يكاد يتعدّر في كثير من الحالات ضبط تاريخ ظهور كلمة من الكلمات. وكان هذا في تقديرنا من أسباب خوض القدماء في إشكالية التوقيف أو الإلهام والاصطلاح في الأوضاع اللغوية (ابن فارس، أحمد، الصاحبى في فقه اللغة العربية، ص 13 وابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج 1، صص 41-48). في مقابل ذلك، لا يكاد يذكر لعامة المستعملين لغة دور في وضع المصطلحات، فالمصطلح ممّا يحتاج إليه الخاصّة من العلماء والتقنيّين فيضعونه ليتيسّر التواصل بينهم في المجال الذي يخصّهم. بل وإنهم ليشترون في وضعه ضوابط محدّدة ودقيقة، نذكر منها: «- اتفاق العلماء للدلالة على معنى من المعاني العلمية.

- اختلاف دلالاته الجديدة عن دلالاته اللغوية الأولى.

- وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلوله الجديد ومدلوله اللغوي.

- الاكتفاء بلفظة واحدة للدلالة على معنى علمي واحد». (مطلوب، أحمد،

2006، ص 9)

والذي يهّمنا من هذه الشروط هو الأوّل. لأننا قد نخالف أحمد مطلوب - عضو المجمع العلمي العراقي - في بعض الجوانب ممّا ذكر في بقيّة الشروط. ذلك أنّ التفكير المصطلحيّ غنيّ بمقاربات متعدّدة مختلفة ذكرنا وجهاً منها في سياق حديثنا عن فوستير Wüster، ولعلّنا نحتاج إلى مزيد توضيح يجلي لنا ما بين المصطلح الخاص والكلمة في المعجم العام من وجوه التقاطع.

يذهب علي القاسمي إلى أنّ «علم المصطلح علم مشترك بين اللسانيات، والمنطق، وعلم الوجود، وعلم المعرفة، والتوثيق وحقول التخصص العلمي. ولهذا ينعتة الباحثون الروس بأنّه «علم العلوم» (القاسمي علي، 2019، ص 308).

ومما يؤكد هذا الرأي تعدّد المقاربات التي تناولت المصطلح بالدراسة؛ فهي مقاربات متعددة الاتجاهات تأخذ من علم الاجتماع ومن الثقافة ومن العرفانيات ومن الدلالة ومن السياق النصّي بطرف. ولعلّ أهمّ هذه المقاربات اتّجاهان اثنان يختلفان تماما في منطلقات النظر إلى المصطلح: الاتجاه المفهومي والاتجاه الدلالي (لوم، ماري-كلود، 2012، صص 62-65). ينسب الاتجاه المفهومي إلى المفهوم بسبب بُعده البينلسانيّ *interlinguistique*. فهو يرى أنّ المفهوم *concept* أهمّ شيء في الاصطلاح، لأنّه يظلّ الجامع المشترك بين ألفاظ المصطلح المختلفة من لسان إلى آخر. ويدعو هذا الاتجاه إلى استقلال علم المصطلح عن سائر العلوم التي تخالطه وذلك بفصله عن علم المعجم خاصّة. ويبرّر ذلك بما بينهما من فروق في الموضوع خاصّة فالمصطلح هو مشغل علم المصطلح والكلمة هي ما يشغل به علم المعجم، والمصطلح عماده المفهوم باعتباره تصوّرا ذهنيّا خالصا قوامه الخصائص المشتركة التي تجمع بين الأشياء التي يطلق عليها نفس المصطلح ولا تأثير للسياق في المفهوم ولذلك يتميّز المصطلح بأنّه أحاديّ المفهوم. ولربّما كان هذا من الأسباب التي جعلت الاتجاه المفهومي يحصر المصطلحات في الوحدات الاسميّة ليس غير. أمّا الكلمة فقوامها المعنى المؤسس على المعطيات السياقية، فتعدّد المعاني باختلاف سياقات الاستعمال. وبناء على ذلك ينفي الاتجاه المفهومي كلّ تقاطع يمكن أن يوجد بين المصطلح والكلمة، فلكلّ خصائص تميّزه.

يصف المناهضون للاتجاه المفهوميّ بأنّه تقليديّ. ويعتبرون أنّ تجاوز النقائص التي وسمت مقاربتهم للمصطلحية ممكنة إذا اعتمدنا التوجه الدلاليّ. وتعتبر المصطلحية الدلالية أنّ الأسباب الداعية إلى الإبقاء على الصلة بين علم المعجم وعلم المصطلح قويّة لا تسمح بالفصل بينهما بدعوى الاستقلال. فهي صلة أشبه ما تكون بصلة الرحم: تنشأ أغلب المصطلحات في رحم اللغة العامّة ثمّ، بناء على قرار من فئة متممة إلى مجال معرفيّ مخصوص، تتخذ في نقطة معلومة من تاريخ اللغة موقعا في الفضاء الاصطلاحيّ محافظة على بعض الأثر من دلالتها اللغوية. فاسم المرة واسم الهيئة واسم الآلة واسم الزمان واسم المكان من مصطلحات علم الاشتقاق في نظام العربيّة وهي أبنية يفسّر لفظها مفهومها.

فاسم الزمان يدلّ على زمان القيام بالفعل لكنّه من حيث المفهوم مقتصر على وزن معيّن. لكن ليس كل اسم يدلّ على الزمان اسمَ زمان بالمفهوم الاصطلاحي للكلمة. فالليل والنهار وغدا وأمس وغيرها مما يدلّ على أحد الأزمنة لكنّها ليست من أسماء الزمان لأنّ الاصطلاح ضيق من دلالة اسم الزمان ليحصره في ما يشتقّ من الفعل دالا على زمان حدوثه كما في مولد وموعد. وتعدّ هذه العلاقة من الثوابت التي تدعو إلى الاهتمام بالبعد الدخلساني intralinguistique في معالجة المصطلح وتبرّر إيلاء نفس القدر من الاهتمام إلى اللفظ والمفهوم في الظاهرة الاصطلاحية. ذلك أن لفظ المصطلح علاقات اشتقاقية شبيهة بالعلاقات التي تربط الكلمة في المعجم العامّ بحقلها الاشتقاقيّ. ومما يقوم دليلا على ذلك مثال «نبرة / تنبير / منبور / نبريّة» (مبارك، مبارك، 1995، صص 9-10). وذلك يعني أنّه خلافا لما تذهب إليه المصطلحية المفهومية لا تقتصر المصطلحات على الأسماء بل تشمل أيضا أبنية لغوية أخرى ترجع إليها بحكم الاشتقاق أو الإلصاق ولعلّ الأفعال منها؛ فنحن نقول «نبر المقطع» بمعنى أوقع عليه النبرة. وهذا من الأسباب التي جعلت المعجميين الدلالين يدعون إلى اعتماد النصوص المختصة من أجل تحديد الألفاظ الجارية مجرى المصطلح وفحص سياقات استعمالها. ذلك أن الكثير من السياقات تكشف لنا عن متلازمات لفظية يمكن اعتبارها من الأشكال الاصطلاحية مثل «إبدال المصوتات» (م.ن، ص 7). وما ذكرناه من ظواهر جعل الاتجاه الدلاليّ يعتبر أنّ المصطلح إنّما هو في نهاية الأمر نوع مخصوص من الوحدات المعجمية ترتبط دلالته واستعماله بمجال معرفيّ محدّد ويتميّز دلاليّا في الأغلب الأعمّ بضرب من التضييق الدلاليّ مقارنة باستعماله في اللغة العامة. لكن تظلّ سلامة مرتكزات المعجمية الدلالية رهينة ملاحظتين اثنتين: تتعلّق الأولى بالوحدات المولدة néologisme. فاللسانيات من المجالات المعرفية التي يُلتجأ فيها كثيرا إلى خلق مصطلحات مفارقة تماما لألفاظ اللغة العامة؛ وذلك ما فعله لويس يلمسلاف L.Hjelmslev رأس المدرسة الجلوسيماتيكية glossématique، ممّا اضطره إلى وضع مسرد اصطلاحي لبعض مؤلفاته (Hjelmslev, Louis, 1966, Le langage, pp. 187). وكذلك فعل جوستاف جيّوم G.Guillaume رأس المدرسة النظامية الذهنية Psycho-

systematique. وهو ما يفتأ يفعله العرفانيون اليوم فيستحدثون المصطلحات استحداثاً. أمّا الملاحظة الثانية فتتعلّق بتعامل التفكير اللساني العربي اليوم مع المصطلحات الوافدة عليه من التفكير الغربي؛ فنحن نترجم هذه المصطلحات بألفاظ تتداخل فيها معارفنا الأنجلوسكسونية والفرقونيّة وما قدرنا على السيطرة عليه من التفكير اللغوي القديم؛ وهي وضعيّة تؤثّر في ترجمتنا للمصطلحات أيّما تأثير وتتسبّب في ضروب من الفوضى المعرفيّة الناتجة عن تعدّد الترجمات للمصطلح الواحد تعدّدا لا يمكن احتسابه من قبيل الترادف. نذكر على سبيل المثال المحاولات المقترحة لترجمة prototype؛ وهي نموذج، طراز، نمط نموذجي، نموذج أصلي، نموذج أوّلي، نموذج نمطي⁽⁹⁾.

تلقي إشكاليّة الاتصال والانفصال بين علم المصطلح وعلم المعجم بظلالها على صناعة المصطلح. فالقول بالانفصال ينجّر عنه لا محالة وضع تصوّر لمهامّ معجم المصطلحات يختلف تماما عن تصوّر المهامّ الموكلة لمعجم اللغة العامّ المشار إليها في الفقرة السابقة، وهو موقف تقول به المصطلحيّة المفهوميّة. أمّا القول بوجود وشائج اتصال بين الصناعة المعجميّة والصناعة الاصطلاحيّة، وهو ما تذهب إليه المعجميّة الدلاليّة، فيعني أن ينسج واضعو المعجم الاصطلاحي على منوال أوضاع المعجم العامّ مع مراعاة الفروق المميّزة للمصطلح؛ ويظهر أثر ذلك بالخصوص في تصوّر بنية الفصل المصطلحي article terminologique. فماري كلود لوم (لوم، ماري-كلود، 2012، صص 66-71) تقترح أن يتضمّن الفصل المصطلحي حوالي عشرة معطيات:

مدخلا entrée une، يذكر فيه لفظ المصطلح فـ«المترادفات والبدائل الإملائيّة والاختزالات والشعارات إن وجدت».

1. معلومات نحويّة تتعلّق بالمقولات الصرفية والتركيبية.
2. خاصيّات استعمال المصطلح جغرافيا واجتماعيا ومهنيّا.

(9) الصفاقسي، منّانة حمزة، فصل طراز، ضمن القاموس الموسوعيّ لعلم الدلالة العرفانيّ. ينشر لاحقا (أعمال مخبر المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة).

3. المجال المعرفي للمصطلح (علم الأصوات، الصرفية، التركيبية، الدلالة...).

4. التعريف. والمقصود به دلالة المصطلح في مجال استعماله، وهو أهم أركان الفصل المصطلحي.

5. سياق أو سياقات استعمال المصطلح.

6. المتلازمات اللفظية المصاحبة لاستعمال المصطلح.

7. الخصائص النطقية الصوتية للفظ لمصطلح.

8. مجموعات متجانسة، يقصد بها الوحدات الاصطلاحية التي يرتبط بها المصطلح اشتقاقيا وداليا وتشكل منها شبكة علاقات اصطلاحية.

9. الرسوم التوضيحية المجسدة للمصطلح إذا وجدت.

ويمكن أن نقسم هذه المعطيات إلى ضرورية وأخرى اختيارية. فالمدخل الأساسي لأنه اللفظ المعتمد في الاصطلاح وذلك التعريف لأنه الركن المطلوب المحتاج إليه في معرفة مفهوم المصطلح. والمعطيان الرابع والتاسع ضروريان لأن المصطلح أداة معرفية و«ليست الأدوات المعرفية مطلقة القيمة، وإنما توجد أنساق نظرية لها موقع معلوم في إستيمولوجيا العلم. (بن حمودة، 2004، ص 15). أما المعطيات السادسة والسابعة والثامنة فإنها تذكرنا بالفصول المعجمية في المعجم العام، وليس ذلك بالغريب لما رأيناه من مبادئ عامة مسيرة للمصطلحية الدلالية. فسياق أو سياقات استعمال المصطلح تذكرنا بركن الشاهد في الصناعة المعجمية.

2 - المصدر الصناعي نموذجا من آليات صناعة المصطلح في نظام العربية:

1.2. آليات صناعة المصطلح في العربية:

تستمر حياة الألسن على قدر مواكبتها للمستجدات الحياتية وذلك بتوليد الألفاظ التي تسمى المستحدثات لتمكين الناطقين من التعبير عن أغراضهم المتطورة. وحياة اللفظ محكومة باستعماله وبمدى استجابته لتأدية الأغراض. ويقتضي نظام كل لسان، لضمان الاستمرارية، أن يوجد السبل الممكنة لتناسب

ألفاظه المفاهيم المحدثه في مختلف العلوم ومجالات الحياة الجديدة. وهي في هذا تتفاوت من جهة القدرة تفاوتاً يفسره بقاء لسان واندثار آخر. ولعلّ العربيّة من بين الألسن الأكثر قدرة على التوليد، فقد نقلت علوم اليونان بمختلف فنونها وظهر من الناطقين بها من كتب في هذه العلوم، وأتى بالجديد فبرهن على أهليّته في إنتاج المعرفة إنتاجاً أصلياً كما هو الأمر في علوم اللغة أو إنتاج نقل وإثراء كما جرى في العلوم المنقولة عن اليونان وغيرهم. يرجع ذلك إلى عدّة أسباب يهّمنا أن نذكر منها في هذا السياق خاصيّة الاشتقاق. فهو نظام صرفيّ ذو قدرة عالية على إيجاد مصطلحات قادرة على تأدية المحدث من المفاهيم. يقوم النظام الاشتقاقي على ضروب من المزج بين حروف أصول هي حروف الجذر وأبنية حاملة لمقولات معلومة تختزل في أغلب الأحيان أبنية تركيبية؛ فيتمّ توليد اللفظ الحامل لمقولة البنية التركيبية ممتزجة بالدلالة المعجمية للجذر. وهذه العملية من أكثر العمليات اللغوية اقتصاداً في المجهود وإسهاباً في إحداث المعنى. ألا ترى إلى مصطلح «مُضاف إليه» كيف يجمع بين دلالة الجذر على ضمّ الشيء إلى الشيء على أساس الإلصاق والإمالة المُبقية على هويّة الطرفين مضافاً ومضافاً إليه، ودلالة اسم المفعول على علاقة الفعل بالمفعول به، فيحصل من ذلك أنّ «المضاف إليه» في الاصطلاح النحويّ عنصر يضمّه المتكلّم إلى عنصر سابق (مفعول به) ضمّ إلصاق على وجوه ترسم الضوابط التركيبية أحكامها اللفظية والدلالية؟ (العيساوي، عبد السلام، 2004، ص 12). ويجدر بنا أن ننبه إلى أنّ اعتماد آليّة الاشتقاق في صناعة المصطلح عمليّة لها وجهان: الأوّل إيجابيّ، وهو أنها تجعل المصطلح ذا دلالة مبرّرة، فلفظه يكون حاملاً لجزء من دلالته بحكم ما في الجذر من دلالة مخزّنة في الرصيد العامّ المشترك للغة. والثاني سلبيّ يتمثل في أنّ مستعمل المصطلح قد يتوهّم عدم وجود فرق بين الدلالة الاصطلاحية والدلالة العامة؛ فيذهب في ظنّه - على سبيل المثال - أنّ «الفاعل» في النظام التركيبيّ يدلّ على من يقوم بالفعل بما أنّه مصطلح مشتقّ من علاقة الفعل بالفاعل. ومثل هذا التمشّي تدحضه أمثلة لا يقوم الفاعل فيها بالفعل بل يكون من قبيل ما يقع عليه الفعل، نحو «مات زيد» أو سقط الجدار». وهذه من المزالق التي

يقع فيها المتعلّمون للنحو. ولمثل هذه الفروق بين الدلالة العامة للفظ والدلالة الاصطلاحية توضع معاجم المصطلحات.

تعيش العربيّة والناطقون بها اليوم مفارقة يتجاذبها طرفان أولهما أنّ أهلها، عدا بعض الاستثناءات، لا يكادون يُنتجون المعرفة؛ والثاني أنّ قدرهم أن يطوّعوا أنظمة لغتهم - وهي كثيرة وثريّة - لتعبّر عن المستجدّات الوافدة من الغرب المنتج للمعرفة. وبحكم أنّ العلوم أصبحت تولد في حضارات غربيّة وبألسن أخرى غير العربيّة، يعاني علم المصطلح الوافد على الحضارة العربيّة من مصاعب شتّى منها تعدّد الترجمات للمصطلح الواحد من ألسن مختلفة، وتعدّد الجهات الواضحة للمصطلحات من مجامع لغويّة وأفراد. «لا توجد هيئة لغويّة أو علمية واحدة تضطلع بوضع المصطلحات العلميّة والتقنيّة في الوطن العربي» (القاسمي، عليّ، 2012، ص 228). ولعلّ عدد المجامع العربيّة معبّر عن هذه الوضعيّة الغريبة. فعددها - على حدّ علمنا - سبعة عشر مجمعا⁽¹⁰⁾. ومن المهامّ الموكلة لهذه المجامع النظر في مسائل نقل المعارف الغربيّة إلى العربيّة. بل منها ما مشغله الأساسيّ معالجة المصطلحات في مختلف المجالات من قانون ورياضة ونفط وطبّ ورياضيّات وفيزياء وكيمياء ومياه وفضاء وتربة ونسيج وسكك حديد وغيرها (مطلوب، أحمد، 2006، صص 113-114).

تشارك الاشتقاق آليات أخرى في نظام العربيّة يمكن اعتمادها في صناعة المصطلح، لعلّ أكثرها تواترا عند المهتمين بالمعجميّة ستّة (مطلوب، أحمد، 2006، صص 17-30):

- الارتجال: وهو أن توضع كلمة جديدة ليست موجودة في الاستعمال العامّ للغة للاصطلاح على مفهوم مستحدث. وهي في اعتقادنا آليّة ينبغي أن توجد

(10) مجمع اللغة العربيّة بدمشق تأسّس سنة 1919، المجمع العلمي اللبناني 1928، مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة 1932، المجمع العلمي العراقي 1947، مكتب تنسيق التعريب 1961، مجمع اللغة العربيّة الأردني 1976، مؤسسة بيت الحكمة 1983، المجمع الجزائري للغة العربيّة 1986، مجمع اللغة العربيّة بالخرطوم 1993، مجمع اللغة العربيّة الفلسطيني 1994، مجمع اللغة العربيّة الليبي 1994، المجلس الأعلى للغة العربيّة بالجزائر 1996، مجمع اللغة العربيّة في حيفا 2007، مجمع اللغة العربيّة الافتراضي السعودي 2012، مجمع اللغة العربيّة على الشبكة العالمية السعودي 2012، مجلس اللسان العربي الموريتاني 2017، مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربيّة 2020.

نظريًا، لكنّ الواقع يكاد لا يسعفنا بأمثلة مرتجلة. ولعلّ في ذلك دليلاً آخر على أنّ المصطلح ينشأ من رحم الرصيد العامّ للغة، ثمّ يكون مصطلحاً بضروب من التحوير في دلالاته (محمد المصطفى، محمد الأمين، 2023، ص 68).

- القياس: وهو أن نقيس على منوال بنية قائمة في نظام اللغة كلمة جديدة تحمل مفهومًا مستحدثًا. وذلك نحو تسمية الجهاز الذي يحلّل الاهتزازات الصوتيّة - في علم الأصوات - «المهاز الحنجري» (الفاسي الفهري، عبد القادر، 2009، ص 121) وذلك قياساً على بنية اسم الآلة في النظام الصرفي للغة العربيّة.

- المجاز: وهو تغيير دلالة لفظ من معناه الحقيقيّ في اللغة العامّة ليصبح مصطلحاً في اللغة الخاصّة. وذلك مثل اصطلاح النحاة واللّسانيين بلفظ «قاعدة» والأصل في معناها اللغوي العامّ أساس البيت وأصول حيطانه. والمصطلح، من وجهة النظر هذه، استعمال مجازيّ لأصل لغويّ، لكنّه لا يقبل أن يستعمل في الخطاب العلميّ الخاصّ استعمالاً مجازياً لما طرأ عليه من تضيق في الدلالة بالاصطلاح.

- التوليد: وهو أن يستبدل معنى لفظ قديم بمفهوم جديد مستحدث للفظ فيكون المصطلح قديم اللفظ جديد المفهوم. وذلك نحو استعمال لفظ «المنوال» ترجمةً لمفهوم modèle⁽¹¹⁾ في اللسانيّات مقتبساً عن المنطق الحديث، والأصل في المنوال في المعجم العربيّ أن يدلّ على الخشب الذي يُلَفُّ عليه الحائك الثوب. وتجدر الإشارة إلى أن من الباحثين من يستعمل مصطلح التوليد جامعا لكلّ الآليات المتاحة للصناعة المعجمية (بن مراد، إبراهيم، 1997، صص 143-163).

- الاقتراض: وهو أن تؤخذ الألفاظ من اللغات الأعجمية بإحدى طريقتين؛ إمّا بالمحافظة على بنية اللفظ ومعالجته معالجة صوتيّة طفيفة فيكون اللفظ «دخيلًا» وإمّا أن يُخضع اللفظ إلى معالجة صرفيّة وأحياناً تركيبية فيكون اللفظ «معرّبًا». وفي كلتا الحالتين تتمّ المعالجة الصوتيّة لإخضاعها للعادات العربيّة في النطق. ويجري ذلك كثيراً في الأسماء الأعلام، ويجري أيضاً في بعض المفاهيم كما في

(11) مجدوب، عزّ الدين، المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب بسوسة/ دار محمد علي الحامّي.

تاكسيم taxème وسيمّة sème ودياكروني diachronique ودايفون diaphone (الفاسي الفهري، عبد القادر، 2009).

- النحت: وهو أن تبنى كلمة من كلمتين أو أكثر اختصاراً، يكون ذلك عادة بحذف جزء من بعضها أو كلّها. عرفت العربية قديماً بعض الأمثلة من هذه الظاهرة كما في «عشمي» منسوب إلى عبد شمس (الحمزاوي، محمد رشاد، 1988، صص 31-49). ويمكن أن نعتبر أن بعض المصطلحات اللسانية تدخل في هذا الباب. وذلك نحو «بيلسانيّات» و«بيولسانيّات». (الفاسي الفهري، عبد القادر، 2009).

ويبدو لنا أن قائمة هذه الآليات غير مستوعبة لما توفره اللغة العربية من الوسائل في صناعة المصطلح ويعتمده أهل الاختصاص في اللسانيات على سبيل المثال. فالعربية - رغم أنها تصنّف ضمن الألسن الاشتقاقية - لا تمتنع عن الإلصاق. وهذا أمر نعود إليه في الفقرة الموالية. ويعتمد أغلب الباحثين في اللسانيات مختصرات رموزاً ليست من باب النحت وإنما هي مختصرات يقتصر فيها على بعض الحروف من الكلمة الأصلية، وذلك نحو «ف فامف» للاصطلاح على الجملة الفعلية المتكوّنة من فعل وفاعل ومفعول به. ومثل ذلك جارٍ في علم الكيمياء كثيراً.

2.2. المصدر الصناعي نموذجاً من آليات صناعة المصطلح:

المصدر الصناعي ظاهرة لغوية إشكالية في نظام العربية من وجوه عدّة: نشأتها وتطوّره في الجهاز الواصف للغة العربية وكيفية بنائه ودلالته. فقد استعملته العرب منذ العصر الأوّل لوصف العربية وتقنيها دون أن يظهر اللفظ المصطلح به عليه. يقول النحويّ الكوفي ثعلب (ت 291 هـ) في جزء من كتابه عنوانه «باب من المصادر»: «تقول وجدت في المال وجداً وجدة [...] وعبد بين العبوديّة والعبودة، وغلّام بين الغلوميّة والغلومة، ورجل بين الرجوليّة والرجولة [...] وشيخ بين الشيخوخة والشيخيّة [...] ولصّ بين اللصوصيّة، وكذلك خصصته بالشيء خصوصيّة [...] وفارس على الخيل بين الفروسيّة والفروسة...»⁽¹²⁾ (ثعلب، أبو العبّاس، كتاب الفصيح، صص 280-283). يتبيّن من هذا الشاهد أنّه إلى حدّ نهاية القرن الثالث للهجرة لم يكن للمصدر الصناعي باب يخصّه،

(12) الإبراز بالسطر من إضافتنا.

بل كان هذا الضرب من المصادر يدرج ضمن باب المصدر دون تخصيص. وقد أُدرج في سياق المصادر السماعية - لا القياسية - من الثلاثي المجرد خاصة. ولعل ذلك يرجع إلى أنه لا يوجد لبنيته وزن اشتقائي محدد كما هو الأمر بالنسبة إلى مصادر الأفعال المزيدة. لكن يبدو أن الحاجة إلى استعماله بكثرة في مرحلة انتشار العلوم أصبحت ملحّة: ماهيّة/ كميّة/ هويّة ... وهو ما دعا بعض المتأخرين إلى الاهتمام به والاصطلاح عليه بـ «المصدر الصناعي»⁽¹³⁾ (حزام، عبد الكريم عمران، 2005، ص 58). وهذا التطور في الاستعمال والاصطلاح ممّا جعل مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة يهتمّ به، فيعتبر أنّ «حاجتنا إلى المصدر الصناعي ماسّة في علم الكيمياء وغيره من العلوم. وقال العلماء إنّه من المولّد المقيس على كلام العرب. وتخريجه سهل، لأن هذا المصدر مكّون من اللفظ المزيد عليه ياء النسب وتاء النقل على رأي أبي البقاء في «الكليات». (ضمن حسن، عباس، 1987، ج 3، هامش 3، ص 187).

تحدّثنا في الفقرة السابقة عن الاشتقاق باعتباره إحدى آليات صناعة المصطلح. لكن المصدر الصناعي، وإن عدّ بناؤه قياسيًا، فهو لا يحصل بالاشتقاق، بل بالإلصاق affixation. لا نخالف بذلك القائلين إن العربيّة لغة اشتقاقية تماما. وإنما نرى أن الاشتقاق عليها غالب؛ ولا ينفي ذلك أن توجد فيها زيادات هي من قبيل الإلصاق وبنية المصدر الصناعي من هذا الباب. فهو يتكوّن من كلمة تضاف إليها ياءان أو ياء مضعّقة وتاء. وتعتبر الدراسات التي تعرّضت للموضوع أنّ الياء المضعّقة هي ياء النسبة وأنّ التاء التي بعدها هي تاء النقل إلى الاسميّة: «والسرّ في هذه الدلالة (دلالة الإنسانية والوطنية والرجولية) هو صيغة النسب التي تربط بين المنسوب والمنسوب إليه فكأنّه قيل: خصائص وصفات تنسب إلى الإنسان والوطن والرجولة وزادوا تاء النقل من الوصفية للاسمية ليمحّض اللفظ للمعنى المصدرية أو الحاصل بالمصدر» (كحيل، أحمد حسن، التبيان في تصريف الأسماء، صص 51-52)⁽¹⁴⁾، وهذا أمر فيه نظر. ذلك أنّ القول بوجود لاصقتين

(13) يحيل عبّاس حسن في النحو الوافي إلى معجم «الكليات» لأبي البقاء الكفوي ت 1094 هـ. ولم نجد في الكتاب المذكور أثرا لاستعمال مصطلح المصدر الصناعي.

(14) انظر في هذا الشأن عبّاس حسن، النحو الوافي، ج 3، ص 186-187. و R.Blachère. Grammaire de l'arabe classique. p. 101. Hassan, Hamzé. Le Masdar Sinai en

تلحقان لفظ المصدر الصناعي لا يستقيم تماما. فنحن نجد من المصادر الصناعية ما ليس له اسم منسوب وذلك نحو إمكانية/ مُطلقية العلم/ ربوبية/ ألوهية/ زبونية... فلا معنى عندئذ لإضافة التاء لنقل الصفة المنسوبة إلى الاسم أو للدلالة على معنى التأنيث كما جاء عند عباس حسن على سبيل المثال (حسن، عباس، 1987، ج3، ص187). بناء على ذلك نرى أن في المصدر الصناعي لاحقة واحدة هي ياء مضعفة وتاء. ونرى أن الدلالة التي يكتسبها الاسم - مهما كان ذلك الاسم - بهذه اللاحقة ليست مقترنة بالضرورة بما في معنى المنسوب من صفات كما جاء في الشاهد السابق؛ وإنما يدل المصدر الصناعي على المعاني المجردة المشتركة التي يحملها الاسم، قبل دخول اللاحقة عليه، في المخزون الجماعي للناطقين باللغة. فالإنسانية تعني ما يشترك فيه بنو الإنسان من مظاهر سلوك وخصائص تميزهم عن غيرهم من الكائنات في الوجود. والرجولية تعني كمال مظاهر السلوك المجردة عند الرجل على الإطلاق لا عند رجل بعينه.

بنية المصدر الصناعي إشكالية كذلك من جهة اللفظ الذي يمكن أن يكون أصلا تدخل عليه اللاحقة «ية». فليست كل الألفاظ قابلة لأن يبنى منها مصدر صناعي. ولسائل أن يسأل عن السبب الذي جعل النحاة منذ القديم يصطلحون على المعاني النحوية بـ«الفاعلية والمفعولية والإضافة» فاستعملوا المصدر الصناعي بالنسبة إلى المعنيين الأولين والمصدر الأصلي بالنسبة إلى المعنى الثالث. ويبدو لنا أن خشية الالتباس في معنى الإضافة بمعنى الاسم المنسوب المؤنث «الإضافية» هو الذي جعل النحاة يستعملون المصدر الأصلي عوض المصدر الصناعي. ولعل الذي سوغ ذلك هو أن المصدر الأصلي يدل أيضا على معنى مجرد مطلق، ولذلك قال بعض النحاة إن المصادر لا تجمع. ويبدو لنا أيضا أن المصدرين الأصلي والصناعي لا يتماهيان تماما وإنما يختلفان بحيث يدل المصدر الصناعي على درجة أكثر إيغالاً في التجريد؛ ولو لم يكن ذلك كذلك لما وجد المصدران في الاستعمال في حالات عديدة منها ما ذكره ثعلب في الشاهد السابق: رجولة ورجولية/ فروسة وفروسية. في هذا السياق يذكر المعجم الوسيط أن المصدر الصناعي يؤخذ من المصدر كـ«الخصوصية» ومن اسم العين

ك«الصخرية» ومن المشتقات ك«المسؤولية» ومن أدوات الكلام ك«الكمية» (المعجم الوسيط، 1989، ج1، ص525). ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن المصدر الصناعي يؤخذ أيضا من الاسم العلم كما في «السادية» مذهبها في السلوك يحمل فلسفة الماركيز دي ساد le marquis De Sade و«السوسيرية» منهجا في الدراسة اللغوية يتبنى أفكار دي سوسير في الدراسة اللغوية، بل إننا نجد المصدر الصناعي يؤخذ من أبنية مرتجلة نحو «الربوبية» و«العزوبية»، ويؤخذ من المفرد كما يؤخذ من الجمع نحو «المعلوماتية» ترجمة لـ informatics. وهذا يعني في تقديرنا أن بنية المصدر الصناعي قد تكون قياسية قياسا مطّردا- كما ذهب إلى ذلك عباس حسن ومجمع اللغة العربية بالقاهرة- بناء على الجزء اللاحق منها ليس غير، لأن الجزء الملحق به يمكن أن يكون كلمة موثقة في الاستعمال كالمصدر أو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو غيرها كما يمكن أن تكون كلمة مرتجلة لا وجود لها في الاستعمال مفردة.

يتميز المصدر الصناعي بخاصيتين أساسيتين تجعلان منه بنية ثرية منتجة في الصناعة المعجمية عامة وفي صناعة المصطلح خاصة. الأولى لفظية تتمثل في اتساع الأبنية التي يؤخذ منها المصدر الصناعي فهي أبنية مفتوحة على كل الإمكانيات باعتبار أن المصدر الصناعي يؤخذ من المستعمل كما يؤخذ من المرتجل ويؤخذ من الوحدات المعجمية كما يؤخذ من الأسماء الأعلام ليكسبها دلالة اصطلاحية. فالاسم العلم-رغم اسميته- لا يحمل دلالة في ذاته وإنما يحيل على ذات مرجعية، فإذا اتصلت به لاحقة المصدر الصناعي دلّ على فكر معين أو نظرية محدّدة أو فلسفة معلومة. والخاصية الثانية هي جانبه الدلالي، فدلالة المصدر الصناعي على المجردات بدرجة تفوق دلالة التجريد في المصدر الأصلي تؤهله لأداء الدلالات الشائعة في المفاهيم العلمية. وبذلك تفسر ظاهرة تكاثر استعماله في التعبير عن المفاهيم العلمية وانتشارها في اللغات الخاصة. ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى أنه يكاد يقتصر عليه في ترجمة المصطلحات التي تنتهي في اللغة الفرنسية باللاحقتين ité وisme كما في واقعية/ حدوثية factualité وتجريبية empirisme وتجريبية empiricism؛ ولا يقتصر استعماله على ما انتهى باللاحقتين المذكورتين، بل نجده يعتمد في وحدات اصطلاحية أخرى على غرار

تكرارية *récurSION* وانعكاسية *caractère réfléchi* وسلّمية *hiérarchie* (الفاسي الفهري، عبد القادر، 2009)، فضلاً عن اعتماده في الاصطلاح على اللسانيات وفروعها: صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية ومعجمية وأسلوبية وغيرها، واعتماده في تسمية المدارس اللسانية: السوسيرية والتوزيعية والوظيفية والتوليدية التحويلية والعرفانية⁽¹⁵⁾ وغيرها. وهذا ممّا يقوم دليلاً على ثراء بنية المصدر الصناعي وقدرتها على التعبير عن الاتجاهات الفكرية وأداء المفاهيم العلمية.

الخاتمة:

تفرض علينا الضوابط الإستمولوجية أن نميّز بين علم المعجم وعلم المصطلح باعتبار أنّ الأول يهتمّ بالوحدات المعجمية في اللغة العامة والثاني يدرس المصطلحات الخاصة بمجال معرفي خاصّ. فالاختلاف في موضوع العلم يبرّر القول بالفصل بين المجالات العلمية؛ لكنّ الصناعة المعجمية والصناعة المصطلحية تفرض علينا أن نرى بين الكلمة في المعجم العامّ والمصطلح في المعجم الخاصّ وشائج قريّة. فهما يشتركان من جهة اللفظ في طرق الوضع كالاشتقاق والارتجال والقياس والمجاز والتوليد والاقتراض والنحت؛ ويشتركان في جزء من الجانب الدلاليّ بسبب نقل المصطلح من معناه اللغوي إلى دلالاته الاصطلاحية في المفهوم. ولهذا السبب لاحظنا ندرة اعتماد الارتجال في الصناعتين المعجمية والاصطلاحية. ولئن كانت وجوه الاشتراك في طرق الوضع تجمع بين الصناعتين المعجمية والاصطلاحية فإنّ لكلّ منهما أبنية تستجيب للغرض الذي من أجله وُجد العلم. وقد تبين لنا أنّ بنية المصدر الصناعي تتوفّر على خاصيتين تؤهّلانها لإثراء المعاجم الاصطلاحية ذات الخصوصية العلمية. فهي بنية قادرة على التعبير عن المفاهيم المجردة من ناحية ومن ناحية ثانية هي بنية مرنة يمكن أن تؤخذ من أصناف متعدّدة من الكلمات المستعملة والمرتجلة. ولقد وجدنا في الاصطلاح النحوي واللساني أمثلة كثيرة متعدّدة تؤكّد سلامة هذا التوجّه. وذلك ممّا يفسّر انتشار اعتمادها في الخطاب العلمي في العصر الحديث.

(15) تستعمل هذه التسميات صفات إذا قلنا: «المدرسة الوظيفية»، وتستعمل مصادر صناعية إذا قلنا: «تختلف وظيفية سيمن دك عن وظيفية مرتناي».

المصادر والمراجع

بالعربية:

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط 3. 1986.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام. الغريب المصنّف. تحقيق محمد مختار العبيدي. نشر مشترك. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ودار سحنون للنشر والتوزيع. دار مصر للطباعة. ط 2. القاهرة. 1996.
- ابن فارس، أحمد. الصحابي في فقه اللغة العربية ومساثلها وسنن العرب في كلامها. منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط 1. 1977.
- ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب. تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي. دار المعارف. مصر. د.ت.
- أوزوالد دوکرو وجان- ماري شافّار. 2010. المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة. ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود. المركز الوطني للترجمة. دار سيناترا. تونس.
- بن حمودة، رفيق. 1991. تقويم المعجم العربي القديم. ضمن حوليات الجامعة التونسية. العدد 31.
- بن حمودة، رفيق. 2004. الوصفية مفهومها ونظامها في النظريات اللسانية. كلية الآداب بسوسة ودار محمد علي للنشر بصفاقس. تونس.
- بن مراد، إبراهيم. 1997. مقدّمة لنظرية المعجم. دار الغرب الإسلامي. كلية الآداب بمنوبة-جامعة تونس الأولى. ط 1.
- التهانوي، محمد علي بن علي. كشاف اصطلاحات الفنون. دار قهرمان للنشر والتوزيع. إستانبول. 1984.
- ثعلب، أبو العباس. كتاب الفصيح. تحقيق د. عاطف مذكور. ط. دار المعارف. مطابع سجلّ العرب. 1984.

- الجرجاني، علي محمد السيد الشريف. (ت 816 هـ). معجم التعريفات. تحقيق محمد صديق المنشاوي. دار الفضيلة للنشر. دت.
- حزام، عبد الكريم عمران. 2005. المصدر الصناعي من الفصح القليل الذي كثر بعد عصر الفصاحة. مجلة جامعة ذي قار عدد 2. مجلد 1.
- حسن، عباس. 1987. النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة. ط 8. دار المعارف بمصر. القاهرة.
- الحسني، عبد الكبير. 2023. تسويغ المعاني في المعجم العربي: مقارنة معرفية بنائية تنوعية. ضمن أعمال مؤتمر معجم الدوحة التاريخي للغة العربية. مطبعة جامعة مولاي إسماعيل. مكناس. المغرب.
- الحمزاوي، محمد رشاد. 1988. نظرية النحت المغبونة. ضمن حوليات الجامعة التونسية. العدد 27. كلية الآداب والفنون والإنسانيات. جامعة تونس.
- عبد العزيز بوزيان وفريد النجار. 1998. المصطلح الرياضي. قاموس مدرسي في الرياضيات. دار محمد علي الحامي. صفاقس. ط 1.
- العيساوي، عبد السلام. 2004. التأريخ النصي للنحو العربي من خلال مفهوم الإضافة. كلية الآداب بمنوبة / دار سحر للنشر.
- الفاسي الفهري، عبد القادر. 2009. معجم المصطلحات اللسانية. إنجليزي-فرنسي-عربي. بمشاركة نادية العمري. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. لبنان.
- القاسمي، علي. 1991. علم اللغة وصناعة المعجم. جامعة الملك سعود. ط 2.
- القاسمي، علي. 2019. علم المصطلح: أسسه النظرية وتطبيقاته العملية. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت ط 2.
- كحيل، أحمد حسن. التبيان في تصريف الأسماء. ط 6. دت. (نسخة إلكترونية لا تذكر فيها دار النشر ولا مكان النشر).
- لوم، ماري-كلود. 2012. علم المصطلح مبادئ وتقنيات. ترجمة ريما بركة. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. ط 1.

- مبارك، مبارك. 1995. معجم المصطلحات الألسنية: فرنسي-إنكليزي-عربي. دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر. بيروت لبنان. ط1.
- محمد المصطفى، محمد الأمين. 2023. التداخل المصطلحي وأثره في النظرية النحوية العربية. ت. أ.د. عبد السلام العيساوي. سلسلة مدارات الكلام. كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة. تونس. ط1.
- مطلوب، أحمد. 2006. بحوث مصطلحيّة. منشورات المجمع العلمي العراقي. مطبعة المجمع العلمي. بغداد. العراق.
- المعجم الوسيط. 1989. مجمع اللغة العربية. قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار. ط دار الدعوة. إسطنبول. تركية.

المراجع الأعجميّة:

- Hjelmslev, Louis. 1966. Le langage. Traduit du Danois par Michel Olsen. Les éditions de Minuit. Paris.
- Humbley, John. 2007. Vers une réception plurielle de la théorie terminologique de Wüster : une lecture commentée des avant-propos successifs du manuel EINFÜHRUNG IN DIE ALLGEMEINE TERMINOLOGIELEHRE. In Langages .4 n° 168.
- L'homme, Marie- claud. 2004. la terminologie principes et techniques. Les Presses de l'Université de Montréal
- Lehmann Alise et Martin-Berthet Françoise. 2000. Introduction à la lexicologie : Sémantique et morphologie. Éditions Nathan / HER. Paris.
- Mortureux, Marie-Françoise. 1995. Les vocabulaires scientifiques et techniques. In les enjeux des discours spécialisés. Les Carnets du Cediscor. Paris Sorbonne Nouvelle.

- Rey, Alain. 1979. La Terminologie noms et notions. Collection Que sais-je ? Presses universitaires de France. Paris.

المراجع الإلكترونية:

- https://is.muni.cz/el/1421/jaro2009/FJIA023a/um/Signe_linguistique.pdf

جدلية الهامش والمركز في اللغة والمجتمع (من خلال «طرننو»)

أ.د. عادل زراعي

مخبر «المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية» (LR18ES46)

كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة - تونس

ملخص:

أثارت المجموعة القصصية «طرننو» التي ألفها الأديب التونسي والعالم اللغوي محمد رشاد الحمزاوي ظاهرة التقابل بين الهامش والمركز في المجتمع واللغة التي درسناها وحللناها في هذه المقالة. فقد عرضت أقاصيص هذه المجموعة السبع أحوال المهمشين وأوضاعهم الاجتماعية في المدن والأرياف التونسية قبيل الاستقلال وبعده ولاسيما في ستينات وسبعينات القرن الماضي. لكنّ الطريف أنّ الحمزاوي لم يكتف فقط بمعالجة تلك الظاهرة في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة حينذاك وإنّما فكّر فيها سردياً من الناحية اللغوية في مستوى الكلام المتداول الفصيح والعامي. فكشف عن طبيعة الصراع بين من يملك السلطة والثروة ومن لا يملك إلاّ الجهد البدني أو الفكري. ظهر الأوّل إمّا إقطاعياً مستحوذاً على الأراضي الفلاحية الخصبة زمن الاستعمار وبعده وإمّا صناعياً ناشئاً ينتمي إلى البرجوازية الصاعدة والتابعة للبرجوازية الصناعية الأوروبية. وكان يسعى إلى تهميش الثاني منزوع الملكية ليحوّله إلى عبد بالأجر اليومي أو الراتب الشهري. فكان المهمّشون والمقهورون أو المعذبون في الأرض يجتهدون في التحرّر من ربقة الاستعمار ومن هيمنة أصحاب رؤوس الأموال. لذا طرحت مضامين تلك الأقاصيص السبع قضية التحرّر الشامل من

الاستعمار والتهميش المسبب للجهل والتخلف والفقر. فانجس اسم طرننّو الشخصية الرئيسية في الأقصوصة الأولى من هذه الرغبة الجامحة في التحرر. فكلمة طرننّو على وزن فعللّو صيغة صرفيّة دالّة على المبالغة وصغر الحجم. فكان طرننّو وجميع الشخصيات القصصيّة الأخرى دائمة التّرحال أو الطّيران. فهي إمّا نازحة من الرّيف إلى المدينة أو مهاجرة من أرض الوطن إلى بلدان الغربه بحثا عن العيش الكريم والاستقرار. فتولّد تناصّ بين هذا التّرحال القصصي والتّرحال الشّعري في القصيدة العربيّة القديمة. ولا غرابة إذن في أن يكون عنوان الأقصوصة السّابعة والأخيرة «شارب النّهر». فكانت الخاتمة ماء مخصبا للأرض مزيلا للجذب كما انتهت معلقة امرئ القيس بنزول الأمطار الغزيرة. والماء أصل استعاري في الإبداع الأدبي ولاسيما في الأقوال الشعرية. ولم يكن المؤلّف يهدف فقط إلى إخصاب الفكر والعيش في المجتمع وإنما كان يعمل أيضا على إخصاب الفصحى بالمفردات والتّعابير العامية التي وقع تهميشها في النّصوص العربيّة الفصيحة. فهو القائل بأنّ الفصحى فصاحات.

الكلمات المفاتيح: الهامش، المركز، التعلّيق، النّظم، النّظام، التّركيب، الاستعمال، الفصاحة.

Abstract:

A collection of short stories by Tunisian writer and linguist Mohamed Rashad Al-Hamzawy entitled Tarannon explores the phenomenon of controversy between the margin and the centre in society, which is studied and analysed in this article. These seven stories portray the marginalised social conditions in Tunisian urban and rural areas before and after independence, mainly in the 1960s and 1970s.

His analysis revealed the conflict between those who possess wealth and power and those with only physical or intellectual effort. The first appeared as either a feudal lord who acquired fertile agricultural lands during and after colonialism, or as a nascent industrialist located within the European industrial bourgeoisie. And he was seeking to marginalise the second dispossessed person to turn him into a slave with a daily wage or a monthly salary. Marginalised people, oppressed people, or those tortured in the land were striving

for freedom from colonialism and capitalist rule. Hence, the seven stories raised the issue of comprehensive liberation from colonialism and marginalisation that causes ignorance, backwardness, and poverty. A character named Tarunno emerges from Tarunno's unbridled desire for liberation. A morphological form of "Trannu" denotes exaggeration and smallness. The fictional characters, like Tarunno, were always in motion.

In pursuit of a respectable life and stability, they are either uprooted from their native country and relocated to the exiled nation. Between this narrative journey and the poetic journey in the old Arabic poetry, a text emerged. Therefore, it should come as no surprise that "The Drinker of the River" is the heading of the seventh and last story. The commentary of Imru' al-Qays culminated with copious showers, fertilising water for the earth and eliminating barrenness. Water is a common metaphorical theme in literature, particularly in poetry. The author wanted to strengthen society and stimulate thought, but he also wanted to add colloquial word to the classical lexicon and expressions that had been marginalised in the eloquent Arabic texts.

Keywords The margin, The center, Connection, Organic Structure, Linguistic system, Syntax, Linguistic use, Eloquence.

تقديم:

لئن حرص مؤلفو الأقصوصة على إجادة كتابتها بدقّة وسبك مكوّناتها السردية وخصائصها الفنية بعناية فإنّهم لم يهملوا في الوقت نفسه الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والفكرية واللغوية التي التزموا بمعالجتها في هذا الفنّ الصّعب من فنون الحكيم والمستحدث في الأدب العربي الحديث. لذا ألفينا الباحث الجامعي اللّغوي المعجمي والأديب التونسي محمّد رشاد الحمزاوي (1934-2018) مهتمّاً في مجموعته القصصيّة «طرننو» بالتحوّلات الاجتماعية الطّارئة على المجتمع التونسي في فترة من تاريخه الحديث وبمشاغله الذاتيّة الفنيّة القصصيّة والفكرية اللّسانية التي لها أثر في تصوّره للغة ولكيفيات تصريفها في الكلام .

فهو من فئة العلماء التي حرصت على تطوير اللغة العربية وتجديدها. فقد كان غالبا يسعى إلى جعلها تعيش عصرها بإغناء رصيدها المعجمي والتفكير في أصولها ومبادئها وطرق اشتغالها من خلال مناهج لسانية وأدبية حديثة أو من خلال مراجعة المدونة النحوية التراثية وإعادة قراءتها في ضوء التفاعل والتضافر الحاصل بين مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية. فازدهرت لديه ولدى غيره الدراسات البنيية ونشأت حوارية خصبة بين التفكير اللغوي والكلام الفصيح أو العامي من جهة وبين هذا التفكير وسائر العلوم من جهة أخرى.

غير أنه تميّز أيضا بموهبته في الإبداع الأدبي. فكتب الأقصوصة والرواية والمسرحية إلى جانب اضطلاع الدائم والمستمر في حياته بالبحث في القضايا المعجمية واللسانية. فكان غزير الإنتاج. وهو الذي أسس الجمعية المعجمية العربية بتونس سنة 1983 لتشعّ على بقية الجامعات الأكاديمية العربية والأجنبية. فترك أثارا لغوية علمية قيمة، نذكر منها: من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا (1986)، العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات (1986)، أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة مناهج ترقية اللغة تنظيرا ومصطلحا ومعجما (1988)، النظريات المعجمية العربية وسبلها إلى تبليغ الخطاب العربي والإنساني. لذلك لم يقف على متوجه الأدبي كما وقف على كتاباته في اختصاصه العلمي الذي سخر له جهده. فكانت المدة الزمنية الفاصلة بين عمل أدبي وآخر طويلة. فقد جعل القارئ ينتظر ثلاث عشرة سنة ليضع بين يديه سنة 1975 مجموعة القصصية «طرننو» بعد أن كان قد أصدر عمله الأول روايته «بودودة مات». ثم طلع علينا برواية جديدة سنة 1998 وجعل عنوانها «سفر وهذر: هارب من خطاب الصدق». ولم يعد إلى نشر أعماله السردية إلا بعد ست عشرة سنة. فأنّج سنة 2014 أربع مجاميع دفعة واحدة تحت عنوان مشترك: «أجناس وجُنوس» وقام مركز النشر الجامعي في تونس بطبعها ونشرها. فلاحظنا أنّ في مرواحته بين الإبداع القصصي والبحث اللغوي قد ضمّن أقاصيصه أو رواياته مشاغله اللسانية بصفة عامة واهتماماته المعجمية بشكل خاص كما اهتمّ بقضايا مجتمعه المختلفة. فكأنّ الخلق القصصي مناسبة لتجريب أفكاره النظرية اللغوية العلمية ونوازعه الفكرية الإيديولوجية. وكان هذا التّضمين من ناحية مباشرة كما ظهر في أقصوصته «المفعول به في المستشفى»

في مجموعته الأخيرة وغير مباشر من ناحية أخرى في كل أقاصيصه ولا سيما في مجموعته القصصية «طرننو» التي رمنا أن نبحت من خلالها في ظاهرة الهامش والمركز في اللغة والمجتمع. واعتمدنا في هذا العمل العلمي منهج الاستقراء يقوم «على متابعة عينات من الشيء المدروس بالملاحظة والمقارنة للوصول إلى مجموعة من الخصائص المشتركة بين هذه العينات المدروسة. واعتمادا على ملاحظة هذه الخصائص، يصوغ العالم الدارس قولاً يعمم فيه خصائص العينات التي لاحظها على كل أفراد الشيء وإن لم يلاحظها»⁽¹⁾. فطرّقنا في نصوصها إلى ظاهرة تهميش «اللغة» فيها باعتبار أنّ الحمزاوي قد جعل أولاً شخصيات أقاصيصه من المهمّشين والمقهورين والمعدّبين في الأرض واختار ثانياً أن يراوح بين اللهجة العامية التونسية واللغة العربية الفصيحة الرسمية المعتقد بها في المؤسسات الأدبية والعلمية، بل إنه ذهب أبعد من ذلك. فقد فصّح مفردات عامية وأدرجها في نظم كلامه الفصيح. واستعاد ما هو فصيح في الأصل والوضع بعد أن أهمل وترك ولم يبق متدوالاً إلا في تلك اللهجة تتناقله الأجيال دون أن تنفطن إلى ضياع الكثير منه. فقد بدا لنا الحمزاوي منتصراً للمهمّش اللغوي في الكلام نافضاً عنه الغبار رافعاً إيّاه من حضيض التهميش إلى رفعة التّجنّيس ليكون جنساً من أجناس الكلم، فعلاً أو اسماً أو حرفاً في مركز الرّصيد المعجمي الفصيح. واهتم أيضاً في الوقت نفسه بالأفراد والفئات الاجتماعية المهمّشة مبرزاً معاناتهم وحجم الظلم والجهل المسلّط عليهم ناشدا تحرّره واستعادتهم لمكانتهم ودورهم الفاعل في المجتمع وحقّهم في العيش الكريم. ولكن يجدر بنا أن نشير إلى أنّ اللغوي المؤلّف وظّف عنصر الماء بسخاء في أقاصيصه لغرضين: غرض لغوي وغرض سردي. فقرأ الشيء في اللسان جمع بعضه إلى بعض وقد استعمل للماء، قرأ الماء جمعه. وقد تفتّن الناقد والأستاذ الجامعي مبروك المناعي في مؤلّفه «في إنشائية الشعر العربي» إلى أنّ الماء أصل استعاري للكلام في اللسان العربي وفي غيره من الألسن تقريبا. وقد بيّن أدونيس أيضاً العلاقة بين اللغة والماء في مقدّمته لكتاب غاستون باشلار «الماء والأحلام» الذي ترجمه علي نجيب إبراهيم إلى العربية، بقوله «هل نحلم إذن باللغة العربية ومائها؟ تتفجّر فيها صور الموجودات... وتذوب ماهياتها التي جمدها «العقل العملي» من جهة

و«العقل التّعليمي» من جهة ثانية... تذوب في ماء الخلق. وبدءا من ذلك تتغيّر العلاقات بين الكلمات والأشياء ويدخل العالم في كون من الصّور الجديدة⁽²⁾. ولم نشر إلى هذه العلاقة الاستعارية بين الماء وإبداع الكلام إلّا لأنّ الحمزاوي قد استعمل مفردة الماء ومرادفاتها وما يحيل على منابعها ومجاريها في كلّ أفاصيص المجموعة «طرنّو». ونذكر على سبيل المثال عنوان أقصوصته الأخيرة «شارب النّهر». وسنرى لاحقا كيف أنّه بدأ قصّه بالماء شيئا فشيئا حتّى فاض في الختام ليغمر كلّ ما اعترضه ويخصب كلّ جذب.

1 - كلمة «طرنّو» ودلالاتها:

أ - الشخصية الرئيسيّة: نقطة جمع وجذب

طرنّو هو اسم الشخصية الرئيسيّة في الأقصوصة الأولى، وهو أيضا عنوانها وعنوان كلّ المجموعة القصصيّة. وصفه السارد في صورة الشّاب المهّمّش العاطل عن العمل في العاصمة تونس قبل استقلالها من الاستعمار الفرنسي. ويبدو أنّه كان يتيم الأب يعيش مع أمّه المسنّة في حيّ شعبي حيث تربة الباي. وكان متسلّطا عليها سليل اللّسان لا يوقّرها ولا يخشى الله حين يشتمه «لا ينس طرنّو بنت شفة في لعبة إلّا شتم الله... إنّه يشتمه ليروّع أمّه العجوز عندما ترفض فتح الباب لأخذ الكرة من السطح»⁽³⁾. وقد تميّز بأفعال وأنماط من السلوك جعلته محطّ الأنظار غريبا. فكان ما يشغل باله دائما هو قتل الوقت أي البحث عن نشاط يخلّصه من وطأة طول النّهار وفراغه. فلم يجد أفضل من أن يلعب كرة القدم في بطحاء الحيّ مع رفقة حمل كلّ واحد منها لقبا أو كنية اشتهر بها. «يستمرّ اللّعب ساعات طوالا وطرنّو ينادي ويصيح»⁽⁴⁾. فكانوا جميعا يتنادون إلى موعد يضربونه فيما بينهم ليفرغوا طاقاتهم الفتية الثّائرة في الصّياح وتقاذف الكرة والجري وراءها. وكان طرنّو همزة وصل بين رفاقه «أتخذ من بطحاء تربة الباي مقرا وموعدا ينتظر فيه أصدقاء للعب الكرة وتقتيل الوقت»⁽⁵⁾. يسبقهم ويتنظّروهم فتتعالى أصواتهم بنداء اسمه تباعا بين الفينة والأخرى إعلانا عن تقاطعهم فرادى أو مشى أو جماعة. «فيظهر حمّادي «الفطيري» وعبد الستار «الروفلين» ومنصف «جايمس كاني» ثمّ يصل البوهالي الملاكم ... مالئين الطّريق ضجيجا وقهقهة

وغناء مضطربا...»⁽⁶⁾. وكان كعادته كلّ يوم قبل خوض غمار المباراة وإثارة غبار بطحائها لا تهدأ له حركة. فما ترك شخصا مرّ به إلّا وحيّاه ولا وقع أمامه حدث إلّا وأثار اهتمامه وتوقّف عنده. «شغله راحة وفراغ يبيع الريح للمراكب ويراقب بعينه كل ما هبّ ودبّ»⁽⁷⁾. وإذا انتهت نفسه شيئا ممّا يعرضه الباعة أو يحمله الصّبية مدّ يده ليأخذ منه نصيبا. «تردّد على الطّاهر العطار لعلّه يجد شخصا يمتص حلوة أو يأكل خبزا فيناوله قطعة ويقفز متطفلا لمشاهد معركة بين طفلين...»⁽⁸⁾. فقد كان في تواصل محموم متوتّر مع محيطه. فتساءلنا: هل اسم طرننوّ انبجس من معمعان حرّكاته وسلوكه وردود أفعاله وانتقاله العشوائي من مكان إلى آخر؟ وهل ثمة شبه بين هذه الشخصية البشريّة وكائن حيّ آخر غير بشري ذي حجم صغير جدّا ومنبوذ ومهمّش أيّما تهमيش.

ب - مسح الشخصية: حشرة تطير:

لا نعرف لهذه الشخصية اسما كسائر الأسماء المعتادة بين النّاس في ذلك العهد من تاريخ تونس. فهو طرننوّ وكفى. غير أنّ أدلّة وحججا عديدة من ذلك العمل القصصي تبرهن من ناحية أنّ الشخصيات في بقية الأقاصيص الأخرى ليست سوى أسماء لطرّننوّ وامتداد له في صور وأشكال وأوضاع مختلفة، وتؤكد أنّ بين أقاصيص المجموعة خيطا ناظما كأنّها وجوه عديدة لشيء واحد من ناحية أخرى. فقد يكون طرننوّ شخصية صالح في «عيش وتربّي ريش» أو شخصية مسعودة أو دادة فاطمة أو مسعود في «دادة فاطمة» أو شخصية عبد القادر في «شارب النّهر» الأقصوصة الأخيرة. لذلك حرص السارد أن ينتقي صفاته وينسجها نسجا حتّى تتسم بالحركة والحضور والتعدّد.

فهو «عبارة عن شبح. يفرّ منه من يراه ليلا. تجده ببطحاء تربة الباي متكئا على حائط كأنّه يشدّ أزره. يدور مع الشّمس كالصدع، يكمد جسمه الذي يتكسر إلى نصفين من شدّة ضعف. فكلّما عاش يوما ازداد ضعفا كأنّه يأكل من نفسه. يقضي السّاعات بالبطحاء يقلب رأسه الكبير الذي استوت على إحدى قرنيه - احتجاجا - شاشية شهباء»⁽⁹⁾. تبدو ملامحه الماديّة في الطّاهر عادية يمكن أن يتّصف بها أشخاص آخرون في مثل هيأته وشكله. بل يمكن أن نصادف في الواقع المعيش من تكون ملامحه أكثر غرابة من ملامح طرننوّ. لكنّ السارد انتقى مفرداته (مثل:

ضعف - رأس - كبير شهباء - شاشية ...) وتخيرها بحسب المعاني التي حدثت في نفسه. وذلك «أنّ العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»⁽¹⁰⁾. فقد استعمل جملة «يدور مع الشمس مع عبارة «كالصدع» التي تفيد وظيفة الحال ليشبّهه بنبات دوّار أو زهرة الشمس. وهو نبات له ساق طويلة نحيلة ورأس كبير مستدير في الأعلى. ثم وصف شدة ضعفه الغريب المستمر. فأضاف جملتين لتأكيد هذه الصفة فقال «يكمد جسمه الذي يكاد يتكسر إلى نصفين من شدة الضعف. فكلّما عاش يوما ازداد ضعفا كأنّه يأكل من نفسه»⁽¹¹⁾. إذن فما علاقة هذا الضعف في جسمه بعبارة «يدور مع الشمس» وعبارة «كالصدع» الذي يعني لغة الشقّ في الشيء الصلب. فصدع النبات الأرض: شقّها؟ فإذا ما جمعنا هذه الكلمات جنبا إلى جنب: «صدع» و«ضعف» و«يتكسر إلى نصفين» وفكرنا في نظمها داخل جملها بانت لنا صورة جسم مشقوق أو مصدوع إلى نصفين. فهو جسم نحيل جدّا يكاد يكون جلدا يكسو عظاما أو كأنه بلا لحم. لذلك كان طرننو يعرضه للشمس ليكمده ويخفف من آلامه. غير أنّ السارد لم يبرز فقط شدة ضعف هذا الجسم وإنّما جعله صدعا أو شبيها به. فكأنّه مجرد شقّ طويل رقيق في جدار خرب. وليس أدلّ على ذلك من قول السارد في وصف حياة طرننو الذي كان يستلذّ الوقوف بالبطحاء «تجده ببطحاء تربة الباي متكئا على حائط يشدّ أزره»⁽¹²⁾. فذكر كلمة حائط في صيغة النكرة لإفادة التعميم دون تحديد أو تعيين لحائط ما. فقصد كلّ حائط بتربة الباي. لكننا نعلم أنّ حيّطان هذا المكان قد تآكلت ونخرتها الرطوبة وضعفت. فهي قديمة في التاريخ منذ عهد البايات بتونس. لذلك لا نعلم من يشدّ أزر من؟ هل طرننو يسند الحائط حتّى لا يسقط أم هو يستند إليه كي يقف ويكمد جسمه بأشعة الشمس وينال نصيبا من طاقتها؟ فبينهما صفات مشتركة: فكلاهما متصدّع في نصفين ضعيف متآكل منخور. فالحائط أثرت فيه عوامل الطبيعة والإهمال وطرّنو هذه الفقر والتهميش. فكأنّ الثاني خرج من الأوّل. ومن المعلوم أنّ الحيّطان المشقوق لا تخرج منها إلّا الحشرات والزواحف الصّغيرة. فطرّنو لا يعدو أن يكون شبه حشرة صغيرة. ف«إنّه عبارة عن شبح». فكأنّه جزء ناتى من الحائط لا ترى ملامحه إلّا من أقرب مسافة. لذلك يخافه «من يراه ليلا» ف«يفرّ منه».

فمن شدة الضعف انقسم جسمه إلى نصفين. وصار كل نصف عبارة عن جناح. فأخذ شكل حشرة طفيلية تطير مثل بعوضة أو ذبابة. ومن خصائص هذه الحشرات ضمور الجسم وكبر الرأس. فنسب السارد هاتين الصفتين إلى طرنو الذي كان «يقضي الساعات بالبطحاء يقلب رأسه الكبير الذي استوت على إحدى قرنيه - احتجاجا - شاشية شهباء». فقد مسخه السارد إلى حشرة صغيرة جدًا. ويمكن أن نؤكد ذلك بأن السارد قد جمع كل صفاته ولخصها بقوله «ليس له سنّ فهو صديق الصغير والكبير يمشي مع كل بهواه ويندمج في كل ثقب»⁽¹³⁾. ولا يستطيع أحد أن يتخيل أنه يلج كل ثقب أو يندمج فيه دون أن يكون في صورة حشرة صغيرة جدًا. فهذه الشخصية الحشرة طفيلية (un parasite) لا هم لها سوى أن تقتات من الآخرين متنقلة من مكان إلى مكان لتضمن لنفسها البقاء على قيد الحياة. لذلك كان «يردّد على الطّاهر العطار لعلّه يجد شخصا يمتصّ حلوة أو يأكل خبزاً فيناوله قطعة ويقفز متطفلاً». وكلمة يقفز تؤكد شبهه بذبابة أو بعوضة تطير بين أجسام وأمكنة لتحصل على طعامها. وقد بين السارد حركة الطّيران هذه بقوله «فسمع طرنو الناس يرددون في شوارع المدينة أن الشعب التونسي قد نال الاستقلال وأن فرنسا خرجت من البلاد وعاد الرّعاء. فطار طرنو إليهم...»⁽¹⁴⁾. فهو يطير من مكان إلى آخر ليعيش. لذلك جاء العنوان الفرعي للمجموعة «تعيش وتربّي الرّيش». وقد أثار انتباهنا تكرار حرف الشّين في هذا العنوان وفي متن الأقصوصة الأولى خاصّة وعناوين بعض الأقصيص.

ج - حرف الشّين ودلالاته:

ظهر هذا الحرف في عديد الكلمات والتراكيب والعناوين. فمنها: «عبارة عن شبح» و «يشدّ أزره» و «يدور مع الشّمس» و «شدة الضّعف» و «كلّما عاش يوماً ازداد ضعفاً» و «شاشية شهباء» و «شغله راحة وفراغ» و «الشربة وحده وحده...» و «الشربة عصره قارص». وأمّا عناوين الأقصيص التي ظهر فيها هذا الحرف هي «تعيش وتربّي الرّيش» و «باب العرش» و «شارب النّهر». وقد أكّد السارد فكرة العيش والطّيران المهمّش في مناسبات عديدة في مجموعته القصصية. لعلّ أبرزها عنوان الأقصوصة الثانية «تعيش وتربّي ريش». فالرّيش يدلّ على الطّيران ولا ينمو إلّا بتوقّف العيش. وصوت الشّين من الوشوشة. فوشوش صاحبه همس

إليه الكلام وسارّه ، وولد وشواش : سريع خفيف. ⁽¹⁵⁾ لذلك تسمّى البعوضة في اللهجة العامية بالوشواشة. فطرنّو لا يعدو أن يكون شبيها بالوشواشة في شكلها وحركتها وتثقلها السريع والعشوائي من مكان إلى آخر. والشّين من العيش أيضا. فكلّ الشخصيات الرئيسيّة الأخرى هي فرع من الشخصية الأصل طرنّو أو هي وجوه لها وإن اختلفت الأسماء والأماكن والأحداث. وكلّها ترغب في العيش الكريم والاستقرار والاطمئنان بعيدا عن الفقر والتّرحال والخوف. فصاح عبد القادر «انحب نشرب النّهر وتخضّر أرضي ويحيا أولادي» ⁽¹⁶⁾. فحرف الشّين حرف بنائي واعتباطي خارج الكلام لا معنى له. لكن داخله وفي سياق ما ذكرنا له دلالة واضحة وجليّة كأنّه تحوّل إلى حرف من حروف المعاني وزيادة.

وكان قد ذكر السّارد في الأقصوصة الأولى لفظ طائر اسم فاعل مشتقّ من فعل طار حين وصف الكرة تضرب المارة فقال «فلا يسلم من الكرة أحد حتى المارة. فمن كان معمّما رأى عمامته تحزّمه كأنّه يستعد لرقص «الهولاهوب» أو مطربشا شاهد طربوشه يحلق في الهواء كأنّه صحن طائر أو طفل قبل الأرض رغم أنفه» ⁽¹⁷⁾. ونراه في أقصوصة «دادة فاطمة» يكثر من استعمال فعل طار بشكل ملحوظ ومثير للانتباه. فقال يسرد أحداث ليلة القبض على دادة فاطمة: «فرمى بها في ناقلة طارت بها في الحين.... فبقدر ما كانت السيّارة تجري كانت الدنيا ترقص مضطربة أمام عينيها... أمّا مساكن القرية وأشجارها وحجارة الجبل فكانت تمرّ بها سريعة مرتعشة صائحة كأنّ زوبعة هاربة بها. فحتّى الأغربة كانت تطير مسرعة محتارة من السيّارة المجنونة والغبار الذي كانت تثيره وراءها... فكانت الدنيا تسرع وتهول وتجري تكاد تطير...» ⁽¹⁸⁾. ثمّ عاد إلى استعمال نفس الفعل في الأقصوصة الأخيرة «شارب النّهر». فقال يصف انشاء الشخصية الرئيسيّة عبد القادر بنزول المطر: «فهزته الفرحة وشعر بنفسه تطير كلّما اشتدّ المطر الذي غسله غسلا» ⁽¹⁹⁾.

إنّ دلالة هذه الفعل ومرادفاته وما يكون بمنزلة تشقّ كلّ الأقاصيص السّبع. ولهذا السّبب نظنّه قد اختار عن قصد لفظ «طرنّو» عنوان تلك المجموعة. فالغرض الأساسي الذي سكن فكر الكاتب ونفسه هو الطّيران الدّال على معنى التّحرّر الشّامل من كلّ القيود : من ظلم الاستعمار وإرهابه البغيض ومن ذلّ

الفقر وتهميشه ومن رجعية بعض التقاليد ومن تهमيش مفردات كثيرة مستعملة في اللهجة العامية سواء أكانت هذه المفردات فصيحة أم عامية. فهناك تحرران: تحرر داخلي نفسي فكري ولغوي وتحرر خارجي اجتماعي واقتصادي مادي. فلم يغفل مثلاً عن نقد وضع المرأة في المجتمعات العربية المسلمة فقال واصفاً شعور دادة فاطمة «شعرت لأول مرة أن حالها هو حال المرأة المسلمة. لقد كتب عليها أن تعيش ثانية ثانوية لا تعرف من الحياة إلا القنوط. فلا هزة ولا لوعة»⁽²⁰⁾. فكانت بنية كلمة طرننو مكثفة لهذه الدلالات، كأنها قدت من هذه الرغبة الجامحة في الطيران بمعنى التحرر.

د - بنية كلمة طرننو:

لا يمكننا أن نجزم بأن الحمزاوي المؤلف قد ابتدع بنفسه هذه الكلمة وصاغها من كد خياله وفكره أو بأنه نقلها من الواقع المعيش ليدرجها في نسيجه القصصي. فلربما كانت كنية أو لقباً لشخصية حقيقية عاشت في تلك الفترة التاريخية. بيد أننا نؤكد أنها من إبداع مستعملي اللهجة العامية التونسية نابعة من سجل مفرداتهم اليومية. ونلاحظ أنها صيغت على وزن «فعللو» مثلما صيغت عليه كلمتا «فرططو» و «فرززو». وإذا ما نظرنا ملياً في هذه الصيغة الصرفية ألفيناها تفيد معاني عديدة كصغر الحجم والمبالغة والكثرة في الحركة والصوت المنغم.

فحرفا الطاء والراء في جزء «طر» يحيلان على فعل طار. إذ صرح السارد بذلك في آخر أقصوصة «طرننو» في قوله «فطار طرننو إليهم». وأما حرفا الراء والتون في «رن» فيفيدان معنى الرنين أي إصدار الصوت. وإذا ما جمعنا حرفي الطاء والتون حصلنا على معنى الطنين من طن يطن الذباب أحدث طيناً بصوته. فالطنين اسم يطلق على أصوات بعض الحشرات كالنحلة والذبابة. وهذه التسمية تنسجم تماماً مع شكل الحشرة الذي رسمه السارد بكلامه لوصف شخصية طرننو. فإذا ما طارت هذه الحشرة أحدث ذلك الصوت في إيقاع منظم ومتكرر. ولذلك تكرر حرف «التون» في كلمة طرننو كما تكرر حرف «الطاء» في «فرططو» وحرف «الزاي» في «فرززو». ونلاحظ أن ظاهرة التضعيف في الأسماء الثلاثة أتت في معنى تكرر الفعل وكثرته. وهذه الحشرات تتحرك وتصدر أصواتاً كثيرة في محيطها. لذلك كثرت في كل الأقاليم الأهازيج والتهافتات والأغاني الشعبية.

فكان أصحابه ينادونه للعب الكرة بـ«يا طرننّو هاي» ويردّ عليهم بـ«هوي هوي هوي هوي». وبعد المباراة يتقدّمهم ليغنّي «بيبرا يا بيبرا يا محله الكره» وأحيانا يصفّق له الحاضرون مردّدين : يا ببح يا ببح ويا ببح. فيلتوي ويلتوي طوالا حتّى يخّر أيضا⁽²¹⁾. وفي المظاهرات «...كان يردّد بكلّ جوارحه: حُمَيّ يا حُمَيّ،... يسقط الاستعمار... يحيا بورقيةة!»⁽²²⁾. وذكر السارد أيضا كيف كان ابن دادة فاطمة يغنّي لها فقال «فضمّها إليه وترنّم مترفقا لطيفا: يا دادة يا دادة.. يا حدود الورده»⁽²³⁾. وقد تميّزت هذه الحشرات أيضا بصغر حجمها. فوجود حرف الواو في آخر تلك الأسماء يجعل صيغة فعللّو تفيد معنى التّصغير. وفي ذلك تتجلّى بكلّ تأكيد عبقرية اللهجة العامية في إبداع صيغ صرفية تناسب معاني شتى. وقد ساهم ذلك الحرف في تمطيط تلك الصيغة. فليس حرف الواو في الحقيقة سوى إشباع للضمّة ومدّ لها. ولعلّ ذلك يحاكي الاستطالة التي عليها أجسام تلك الحشرات كالبعوضة (الوشواشة) والفراشة (الفرططو) والدّبّور أو الزّنبور (الفرززو). إنّ الغاية هي شحن الصيغة بمعاني الكثرة والتّصغير والاستطالة. ويمكن القول إنّ صياغة التّصغير بتحريك اللّام بضمّة طويلة في بنية هذه الكلمات العامية العربية يعادل ضمّ الحرف الأوّل وزيادة ياء في أوزان صيغ التّصغير في اللّغة العربية الفصحى. وهي فُعِيل وفُعِيل وفُعِيل. وقد فسّر علماء النّحو العربي قديما هذه الزّيادة بقياسها على الصّفة. فقولك طرننّو قد تعني طائر (طر: حذف الألف والهمزة منها) صغير. وبالقياص تكون «فَرّ» في فرططو وفرززو بمعنى فارّ من فَرّ يفرّ. والفرار في الكلمتين لا يعدو أن يكون طيرانا. إذن كلمة «طرننّو» صيغت على وزن فعللّو وتكوّنت من حرفين أصليين وهما في «طر» بمعنى طار وحروف زيادة في «ننّو» لإفادة تلك المعاني التي ذكرناها. وإذا ما نظرنا في هذه الحروف الرّائدة وقد تعلّق بعضها ببعض لتكوّن «ننّو» في طرننّو أو ززو في فرززو أو ططو في فرططو وقارناها بعبارة إغريقية قديمة Nanos ننوس حصلنا على نتائج ذات قيمة معرفيّة. فهذه العبارة هي سابق préfixe بمعنى قزم Nain أو صغير جدّا في مثل الكلمة الفرنسيّة les nanoparticules الجسيمات النانويّة. وأصبحت بعد ذلك مصطلحا في الرياضيات لإفادة الجزيء المليار لوحدة قياس. فهي تعني قسمة الشّيء إلى مليار جزء. ونجد إضافة إلى العبارة الإغريقية عبارة في

اللهجة المصرية العربية تتكوّن تقريباً من نفس الحروف وتقال في التّصغير للتودّد والتّحاب والتّلفّظ. فتقول مثلاً الأمّ لولدها «أنت في نني عيني من جّوه» بمعنى أنّي أحفظك في أصغر جزء داخل عيني. فعلى أساس هذه المعطيات التي جمعت بين ما هو إغريقي ومصري وتونسي يمكن أن نقول إنّ «ننو» تفيد معنى المتناهي في الصّغر. ولذلك كان طرننو «يندمج في كلّ ثقبه». ويبرز حرف الواو ودوره في صياغة تلك الكلمات. فهذا الحرف له معان عديدة في العربية الفصيحة واللهجة العاميّة. فمنها إذا تقدّم فهو حرف استئناف للرّبط بين الجمل أو للنّدبة التي هي بمنزلة النّداء في قولهم «واقدهاه» «وأماه» وللنداء في بعض اللهجات مثل «وا عليّ» ، وإذا توسّط مفردتين أفاد العطف أي الجمع مطلقاً : جاء عليّ وصالح. ويستعمل في صيغة فوعل للأسماء وفي صيغة افوعل للأفعال في معنى الكثرة والمبالغة في مثل كوثر واعشوشب. وإذا ما تأخّر أفاد التّصغير في صيغة «فعللو» في اللهجة العاميّة التونسيّة.

2. الخيط الناظم للمجموعة القصصيّة وقضاياها وبنيتها:

أ - الخيط الناظم:

تشكّلت هذه المجموعة من سبع أفاصيص متفاوتة الطّول فيما بينها. وهي على التّوالي : «طرننو» و«تعيش وتربي الريش» و«باب العرش» و«حياة» و«دادة فاطمة» و«دجاجة عمّي» و«شارب النّهر». وتنتمي أغلب شخصياتها إلى الفئات الاجتماعيّة المهمّشة في الرّيف والمدينة. ويجمعها موضوعاً واحداً هو البحث عن الخلاص من كلّ أنواع التّهميش الذي كانت تعيشه بسبب الفقر المدقع أو الاستعمار أو المرض أو القهر والظّلم. فهي تبحث عن غد أفضل مشرق . فصالح في أقصوبة «تعيش وتربي الريش» نزل من الرّيف إلى المدينة لعلّه يحصل على عمل يخفّف عنه وطأة الجوع والبؤس، قال لأّمّه «نايه ماشي تونس باش نخدم»⁽²⁴⁾. وأمّا دادة فاطمة الشّخصيّة الرّئيسيّة شعرت بعيد تحقّق الاستقلال «بدمها يفور وبالمدينة تشتعل أنوارا... كانت تجريان (أي دادة فاطمة ومسعودة) لاهتين. وكانت يد مسعودة تمسك يد دادة. فأحسّت تلك اليد تخرجها من الظّلمات إلى النّور وتطير بها بعيداً»⁽²⁵⁾. وليس الطّيران سوى استعارة دالّة على معنى التحرّر والإفلاق القويّ

المتحمّس للتخلّص من جاذبيّة التّهميش وثقله. ف«الخالدون من ظلّوا متحمّسين ولو في الظلمة الحالكة»⁽²⁶⁾. ولقد تراكم التّهميش من أقصوصة إلى أخرى حتّى بلغ أقصاه. فانقلب إلى تحوّل نوعي في آخر أقصوصة «شارب النّهر» حيث نزلت الأمطار بغزارة وصيّرت وادي حيدرة نهرا ممتلئا ماء. فأخصبت الأرض وزال الجذب. وصاح عبد القادر وهو الشّخصيّة الرّئيسيّة: «انحب نشرب الواد ونعود به لأولادي...!!! انحب نشرب النّهر وتخضرّ أرضي ويحيا أولادي». فقد أراد أن يبتلع ماء النّهر كلّه ويسقي به «السّهول والهضاب الجرداء المحيطة به»⁽²⁷⁾. فالجذب في الطّبيعة يعادل التّهميش في المجتمع كما الخصب يعادل التّحرّر. ولذلك برز عنصر الماء منذ بداية الأقصوصة الأولى ويظهر ذلك حين كان طرننو يصبح بـ«الشربة وحده وحده... والشربة عصره قارص»⁽²⁸⁾ «فيجري طرننو قبل غيره إلى عين الماء بالبطحاء ليشفي غليله»⁽²⁹⁾. وأخذ يزداد الحديث عن الماء من أقصوصة إلى أخرى حتّى فاض في الأخير نهرا. فقد تكثّفت الآلام والأحزان في نفوس الشّخصيات كما تكثّفت السّحب في السّماء. فغرورقت عيونها بالدّموع مبشرة بالخلاص الذي تحقّق رمزيّا بفيضان النّهر. وقد ذكر السارد كلمة الخلاص وكرّرها في «دجاجة عمّتي» متحدّثا عن مدّخرات الأسرة ومشاغله الملحّة والضّاغطة فقال «بقية باقية من الشّعير اقتصدته الأسرة... رجاء استعماله عند خلاص الأمّ وقدم المولود الجديد»⁽³⁰⁾، «وبغته سمع صرخة تشقّ الكوخ وتلاها سكون إنّه الخلاص». و«العام الجاي نخلّص إن شاء الله! الصّابة الجاية تخلّصنا إن شاء الله. يكفي تجي مطرة باهية ونطير ونخلّص كعمك يونس»⁽³¹⁾. ونلاحظ في الشّاهد الأخير من كلام الأب الموجّه إلى ابنه سعد، الجمع بين ثلاث كلمات الخلاص بمعنى التّحرّر من الجهل والاستغلال والاستعمار والمطر بمعنى الخصب في العمل والعلم والثروة والطّيران في معنى التّقدّم والتّطور. وجميعها من صميم مشاغل المؤلّف الفكرية والاجتماعية. وقد ورد تكرار كلمة الخلاص في الأقصوصة السادسة قبل الأخيرة تنبؤا بقرب الفرج ونزول المطر المخصب للأرض والماحق للجذب. وقد تحقّقت هذه النّبوءة فعلا في الأقصوصة السابعة. ولكن ذلك لم يكن إلّا بعد أن قدّمت أرواح وبذلت تضحيات جسام قرايين لذلك الخلاص. قالت القابلة العجوز أم سالمة التي عجزت عن توليد أمّ سعد «خلصت

يا وليدي! خلصت خلاص الدوام. ثمّ أجهشت. فاقترب من أمّه ولمسها. فكانت جثةً باردة»⁽³²⁾. ولم يسلم أيضاً سعد ووالده من ظلم ملاك الأراضي والشرطة «فقبض عليه عونان ورميا به قرب والده داخل سيّارتهما التي طارت بهما إلى القرية»⁽³³⁾. ولا ينفكّ السارد يستعمل الفعل «طار» أو اسما مشتقا منه كلّما وجد سبيلا إلى ذلك.

وقد حقّق هذا الطّيران كيانا قصصيّاً سباعيّاً. فهل «لا يطير طرننوّ» ولا تكتمل المجموعة القصصيّة معني ومبنى ولا تتجلّى وحدة كاملة في ذهن القارئ إلّا بسبع أقاصيص؟ فقد ذكر السارد في الأقصوصة السابعة كلاما يحيل على الرّقم سبعة قائلا: «ها هو حماره يسير أمامه وعليه برذعة فخمة وفي فمه لجام جديد وقد امتطته زوجته وفي يديها سبعة أرغفة على عدد أفراد أسرته. أسرع ليتناول رغيه فرأى أبناءه يجدون مثله. فما كادوا يقتربون من الأمّ حتّى أقبل عليها سبعة غربان فانتشلوا الأرغفة والأمّ والحمار والأطفال»⁽³⁴⁾. فتميل إلى الإقرار بأنّ المؤلّف قد جعل أقاصيصه سبعا على وعي منه بقيمة هذا الرّقم ودلالته في الثقافة العربيّة والإنسانيّة. فاللّه قد خلق سبع سماوات كما خلق الأرض مثلهنّ. وجاء في قوله تعالى: «اللّه الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ اللّه على كلّ شيء قدير وأنّ الله أحاط بكلّ شيء علما»⁽³⁵⁾. فهذا البناء السباعي مشبع بالمرجعيات الثقافيّة للدلالة على الاكتمال. وجاء في اللسان رجل سباعي البدن: تامّه. والشّيء إذا اكتمل اغتنى بالنظام والإيقاع. ولكن لاحظنا أنّ كلّ أقصوصة لا تخلو من رحلة في طريق محفوفة بالمخاطر والمصاعب والمآسي والمهالك. وكلّ شخصيّة رئيسيّة لها غرضها الذي رحلت من أجله. فهناك بنية شعريّة ثلاثيّة للقصيدة العربيّة القديمة مضمرة وثاوية في تلك البنية السباعية القصصية الظاهرة. فبين البنيتين تماثل أو تجانس بنيويّ.

ب - المنوال البنيوي الشعري المتحكّم في المجموعة القصصيّة:

لقد أكّد دارسو الأقصوصة ونقادها علاقتها الوطيدة بالشعر مثل محمد القاضي وأحد السماوي وشكري عيّاد وعزالدين إسماعيل الذي قال «...يلعب التّركيز حدّا لا يستخدم فيه الكاتب لفظة واحدة ويمكن الاستعناء عنها أو يستبدل بها غيرها فكلّ لفظة موحية ولها دورها تماما كما هو الشأن في الشعر»⁽³⁶⁾. فالأقصوصة في

نظرهم تقوم على الإيحاء والتكثيف لأنّ كلّ ما فيها يهدف إلى إعداد الخاتمة. و«إنّ هذا الأسلوب هو التّاج الطّبيعي لثلاثة عناصر أساسيّة تقوم عليه القصّة القصيرة هي العرض والنموّ والصّراع»⁽³⁷⁾. لذلك كان المنوال الذّهني الذي نسج عليه السّارد أقاصيصه منوالاً مستمداً من البنية الثلاثيّة في القصيدة العربيّة القديمة. ولم نصل إلى هذه النتيجة إلّا بعد أن استقرأنا حركة أبطال كلّ الأقاصيص في الأمكنة التي ظهرت فيها وحدّدنا غاياتهم التي كانوا يرومون تحقيقها وبينّا طبيعة علاقاتهم بمواطن نشأتهم. وهذا المنوال هو منوال إنشائي بمعنى الهيكل أو القالب الذّهني الذي كان قوّة دافعة للسّارد لبناء أقاصيصه وتجسيدها بالفعل. والصّورة الذّهنيّة المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه»⁽³⁸⁾. فقد كثر الرّحيل وتكثّف لأنّ الشّخصيات الرّاحلة لم تعد ترغب في البقاء في الأمكنة التي نشأت فيها وعاشت. فلم يكن الرّحيل اختياراً بل اضطراراً. وإن اختلفت أسماء الشّخصيات في هذه الأقاصيص وتباينت ظروف نشأتها ومشاكلها الاجتماعيّة فإنّ بينها قواسم مشتركة. فأبطالها مأزومون ومهمّشون هو اجسهم البحث عن عيش كريم في كنف الحرّيّة واحترام ذواتهم البشريّة. وقد فشلت بعض الشّخصيات في الرّحيل بعد أن اقتنعت به واجتهدت في تحقيقه. ومثال ذلك مسعود الشّخصيّة الرّئيسيّة في «باب العرش» الذي ردّد على الخادم الأسود قائلاً «تعني تحصّلنا كلنا على الاستقلال، أنت وأنا وكلّ الشعب العربيّ التونسي وكلّ الإخوان والأخوات وإن شاء الله تستقلّ كلّ الشّعوب المستعمرة كلّها وتعود إليها كرامتها وعزّتها ويحصل كلّ واحد من أبنائها على شغله وحرّيته وخبزه وراحته ويتحرّر من حالته الفاسدة...»⁽³⁹⁾. وكان قد تعلّم في جامع الزيتونة وتخرّج منه متحصّلاً على الشّهادة الأهليّة. لكنّ الدّنيا لم تنصفه بعمل مرموق أو وظيفة مناسبة لمستواه العلمي. فصار يبيع الحمص في السّوق. وكان من شدّة وطأة الفقر عليه قد صدّق أنّ الخادم الأسود عبّاراً قد فتح له باب العرش في ليلة القدر وأنّه سينتشل من فقره ووحدته. قال له الخادم «أنا غدوة ماشي لإفريقيا، تحب تمشي معاي؟ الفلوس كثيرة نعطيك نصفها ونخلّص عليك السّفر ونزيد نعطيك وظيفة...»⁽⁴⁰⁾. وبقي وحده في بيته يفكر في قوله ثمّ قال «تحمّست لعرضه فارتيمت على صندوقي وفتحتّه ثمّ أخرجت منه كيساً لأضع فيه متاعي تهيوّأ لرحيل الصّباح»⁽⁴¹⁾. ولكنّه

خاب أمله. فمع الفجر فتح بابه ووجد عبّارا «مرتديا قميصه القديم وهو يرتجف من البرد» ويقول له «سامحني أخي... نعاودها مرّة أخرى»⁽⁴²⁾. وإذا ما عدنا إلى البداية مع أقصوصة «طرننّو» ألفينا هذا البطل قد وقف على أطلال المكان الذي كان يحقّق فيه متعته وحركته وشعوره بالوجود. فاشتاق وحنّ إليه وبكاه بعد أن فقد فيه محبوبه. فقرّر الرّحيل بحثا عن بديل أو مصير جديد في مكان آخر مع أناس آخرين. وبالفعل كانت الكرة هي معشوقته التي كلف وشغف بها أيّما شغف. «تشرق الشّمس فيعود طرننّو مع زمرة للكرة. فيتحدّثون كرة ويأكلون كرة ويعيشون كرة..»⁽⁴³⁾ و«يجري وراء الكرة وتجري وراءه»⁽⁴⁴⁾. لكن حدث أن افتكّ منه البوليس الاستعماري بطحاء اللّعب بتربة الباي. «وأتى يوم لم يذهب فيه طرننّو إلى البطحاء لترقّب الأصدقاء. لم يظهروا ولم تظهر الكرة. لقد أصبحت البطحاء خطرة يدوي فيها رصاص البوليس ويصفر ليردّ هجمات جماهير غفيرة غاضبة انبثقت من كلّ نهج ومن كلّ فجّ كأنّها السّيل العارم متّجهة نحو مسكن صلاح الدّين البكّوش. فكانت تفرّ وتكرّر وامتألت البطحاء نشيدا وصياحا وانفجارات يحتلّها البوليس تارة ويفتكّها المتظاهرون أخرى. فلقد افتكّوا منه غصبا بطحاءه وأصبح متفرّجا»⁽⁴⁵⁾. فحاله حينذاك شبيهة بحال الحبيب الذي ظعنوا بحبّه. قال بشّار بن برد في هذا المعنى: (البسيط)

كانت معَايا منَ الأحباب فانقلبَتْ * عن عهدِها بهمُ الأيّامُ فانقلبُوا
أقولُ إذ ودّعُوا نجداً وساكنه * وحالفوا غربهً بالدّارِ فاعترَبُوا
أئنُّ منها إلى الأدنى إذا ذُكرْتُ * كما يئنُّ إلى عُوّاده الوصبُ
بجارة البيت همُ النّفس محتَضِرُ * إذا خلوتُ وماء العين ينسكبُ.⁽⁴⁶⁾

لم يتغيّر مكان اللّعب البطحاء لكن تغيّر اللاّعبون ونوع اللّعب. كان مع طرننّو ورفاقه لعبا بالكرة للهو والتّسلية فصار مع المتظاهرين والبوليس لعبا برؤوس النّاس أي بالأرواح لافتكاك السّلطة والسّيطرة عليها. وقد حرص السّارد دوما على إبراز عنصر الماء. فشبه حركة الجماهير المتظاهرة القويّة بالسّيل العارم. وفي ذلك إشارة خفيّة مسبقة لما سيحدث لاحقا في الأقصوصة الأخيرة «شارب النّهر». وبقي طرننّو أيّاما ينظر إلى بطحائه الخالية من حبيبته الكرة في حزن

وقلق كما يقف الشاعر العاشق على أطلال حبيبته التي ظننت ونأت عن الديار «فظلّ يتفرّج أياما وكاد القلق أن يخنق أنفاسه. لكنّه بعد ذلك قرّر أن يشارك في المظاهرات «فخرج من منزله واتبّع المظاهرات... ثمّ أخذ يندمج فيها شيئا فشيئا حتّى وجد نفسه في مقدّمتها يهتف مع الهاتفين... يرمي الحجارة وكلّ ما تستطيع يده الحصول عليه... لقد ضحّى بشاشيته الشّهباء فرماها لعلّها تلطم بوليسا...»⁽⁴⁷⁾.

لقد صار طرننو «يكوّر» بطريقة أخرى. وتحوّل اللّعب بالكرة من مجرد لعبة للتسلية إلى حركة في سبيل قضية وطنية. فجعل شاشيته كرة يقذفها ليضرب بها البوليس. وليست الشّاشية سوى كناية نسبة عن رأسه المشحون بأفكار وتصوّرات تشدّه إلى القديم البالي الذي لا يغيّر الواقع الرديء ولا يقدّم بالنّاس نحو واقع أفضل. لذلك كانت هذه الشّاشية شهباء أي أنّها قد قدمت وذهب عنها احمرارها المشعّ المعبر عن إرادة الحياة والرّغبة في الحرّية والعيش الكريم. فكان ما إن ينخرط في لعب الكرة أو في المظاهرات حتّى تسقط هذه الشّاشية ليستعيد حرارة رغبته في الحياة ووهج إرادته وقوّة طموحه وثقته في المستقبل. «فلا يسلم من الكرة أحد حتّى المارّة. فمن كان معمّما رأى عمامته تحزمه كأنّه يستعدّ لرقص «الهولاهوب» أو «مطربشا شاهد طربوشه يحلّق في الهواء». و«كان يردّد بكلّ جوارحه: حمي يا حمي يسقط الاستعمار... فكان يتصيد المظاهرات في كلّ مكان فعدا ونادى وغنّى وصاح حتّى كاد يجنّ من الصّياح. لقد ربط فرحته ونشوته بتلك المظاهرات التي كانت تسعده رغم الدماء التي تسيل والموت الذي يحوم. فكان يهرب منه كما كان يهرب من البوهالي في لعب الكرة»⁽⁴⁸⁾. واللون الأشهب لا تحيل عليه فقط الشّاشية وإنّما تحيل عليه أيضا كلمتا التربة في تربة الباي والبطحاء. فندفعنا جميع هذه الكلمات الثلاث: شهباء وتربة وبطحاء إلى أن نستحضر الرّسم الدّارس أي أطلال الحبيبة التي ذبل لونها وفتّر وشهب. قال طرفة بن العبد: (الطويل)

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِرُقَةٍ تَهْمِدُ * تَلُوْحُ كَبَاقِيِ الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ⁽⁴⁹⁾

وباقى الوشم في البيت يشبه باقي اللون الأحمر الباهت في الشّاشية أو يشبه ضمور جسد طرننو الذي كان كالشّبح. وما يؤكّد أنّ البطحاء تحوّلت إلى ربع

خاطبه «طرننو» ووقف عليه أنّه في آخر الأقصوصة لمّا أصيب بخيبة أمل من زعماء الاستقلال عاد يبحث عن الأصدقاء والبطحاء من جديد «لكنّه عاد بعد أيّام إلى تربة الباي آملا رجوع الأصدقاء إليها وجمع السّمل بها. لكن انتظاره طال ولم يظهر أحد حتّى الفحّام»⁽⁵⁰⁾. إذن رحل من عرفهم واستوثق محبّتهم. وبقيت البطحاء فارغة بلا كرة وبلا صحاب وظلّ وحده يتجرّع الحنين المرّ. قال الشاعر بشار (الوافر)

غداً سلفٌ فأصعدَ بالربّابِ * وحنّ وما يحنّ إلى صحابِ
دعا عبراته شجنٌ توّلّى * وشاماتٌ على طللٍ ييابِ⁽⁵¹⁾

فلم يجد بداً من الرّحيل والبحث بدوره عن سبيل آخر لنفسه «لقد انتهى كلّ شيء الكرة والأحباب وحتّى المظاهرات والبوليس. ففارق المكان بدوره»⁽⁵²⁾. ولا تخلو أقصوصة من اضطراب بطلها إلى الرّحيل بأي شكل من الأشكال لانعدام الاستقرار الذي يمكن أن نصطّلع عليه بالجدب. فظاهرتا الجذب والرّحيل ثابتتان تتكرّران في تلك المجموعة القصصيّة. لقد رحل صالح في «تعيش وتربّي الرّيش» من ريفه إلى العاصمة تونس بحثاً عن عمل يسترزق به. فخاطب أمّه وأخته قائلاً «اللّي ما يهرّش من الجوع، الجوع ما يهرّش منه. نايه ماشي لتونس بعد ثلاثة أيّام»⁽⁵³⁾. فقد «مات والده وفنيت الغنيمات الواحدة بعد الأخرى كأنّها متضامنة في الموت من قلة العشب ومن الجفاف الذي اجتاحت الجهة فلكع الأرض حتّى أصبحت كالعجوز العاقر الفقيرة... فقلّت السّحب في السّماء وأدبرت الأمطار»⁽⁵⁴⁾. ولم يسلم مسعود من لعنة الرّحيل كذلك. فنزح من نفطة في الجنوب التّونسي إلى العاصمة «فقصدت الإدارات لكنّها رفضتني لأنّي لا أجيد الفرنسية.... فحبّت البلد وما فيه وطرقت كلّ باب»⁽⁵⁵⁾. لقد أخذ الجذب معنى انعدام مواطن الشّغل التي تناسبه وتناسب علمه الرّيتوني كما ذكرنا سابقاً. فاكتمى بعيشة بسيطة فقال «فاكتفيت بالعيش مثل غيري. فلم أجد إلّا الحمص أبيعّه وأعيش منه»⁽⁵⁶⁾ ولم يرض بذلك إذ أنّه أعدّ نفسه ليرحل مع الخادم الأسود عبّار إلى أحد البلدان الإفريقيّة.

وفي أقصوصة «حياة» وصف السّارد الأوضاع القاسية والبائسة والحزينة في المدينة «فلقد كانت الأشجار قائمة سوداء وكان كثير من جدران المنازل

والدكاكين حجارة مبعثرة قد لوّثها الدّم واختلطت بالغبار والماء العفن فأصبحت أكداسا مربعة»⁽⁵⁷⁾. وهي صورة تذكّرنا بالقفر والخراب الذي يحدث في مراع الحبيبة بعد رحيلها. قال عمر بن أبي ربيعة (الرمل)

هَيَّجَ الْقَلْبَ مَغَانٍ وَصَيْرَ * دَارَسَاتُ قَدْ عَلَاهُنَّ الشَّجَر
وَرِيَا حُ الصَّيْفِ قَدْ أَزْرَتْ بِهَا * تَنْسِجُ التُّرْبَ فَنُونًا وَالْمَطَرُ⁽⁵⁸⁾

فكان الرّحيل في صورة الفرار: «الأموال فروا لا يوجد لهم أثر في البيت لا لا يمشون كالأحياء.. فروا بالأسلاك إلى المدينة العريّة»⁽⁵⁹⁾. فلم يجد إبراهيم حيلة أخرى غير الفرار فقال «أطفأت ضوئي واغتنمت فرصة اضطراب الجنود ففررت راجيا النّجاة من شرّ الجنود مؤمّلا الفوز بحياة»⁽⁶⁰⁾. ويندرج هذا الفرار أو الرّحيل في سياق مقاومة الاستعمار الفرنسي. فقد رحلت مسعودة في «دادة فاطمة» من تونس إلى الجزائر. «أنا تونسيّة من قبلي. وصلت الجزائر من سنين وصعب الخروج منها بسبب الحرب». ولما استقلّت الجزائر رحلت دادة فاطمة لتعود إلى قريتها مع مسعودة وزوجها وابن ابنها الشهيد «ثمّ توجّهوا نحو محطة الحافلات كي يعودوا إلى قريتهم قبل قدوم الليل»⁽⁶¹⁾. ولقد تمثّل معنى الجذب في الأقصوصتين «دادة فاطمة» و«حياة» في صورة الاستعمار الجاثم على رقاب التّونسيين والجزائريين. فكان لا بدّ من مقاومته والتخلّص منه لتجسيد الخصب في الحرّية والاستقلال والعيش الكريم والتقدّم الفكري والحضاري. فلكلّ رحلة غرض ترنو كلّ شخصية إلى تحقيقه. فقد رحل سعد في «دجاجة عمّتي» من ريفه إلى القرية لبحث عن طبيب يولّد أمّه حتّى لا تموت. «وصل سعد إلى القرية مع الصّبح منهك القوى يكاد البرد يعرقل أعضائه»⁽⁶²⁾. وكان سعد ينتمي إلى أسرة فقيرة جدّا تسكن كوخا كأنّه «حفرة رطبة تكاد تكون مستديرة»⁽⁶³⁾ ولا تملك قوت يومها. فمثّل هذا الفقر المدقع معنى آخر من معاني الجذب. والسّمة البارزة في كلّ رحلة هي معاناة كلّ الأهوال والمخاطر كشأن رحلة الشّاعر الجاهلي الخطيرة في الفيافي والفلوات. فوصف السّارد رحلة صالح نازحاً هارباً من فقره في الرّيف إلى تونس أملاً في العمل والعيش فقال «لكنّه لا يعرف كيف يتوجّه إلى تونس! فالطّرق كثيرة والجبال شاهقة والوديان عميقة والأهوال والأغوال متوجّدة فيضيع أو يموت كالثّور الهزيل»⁽⁶⁴⁾. قال الشّاعر الجاهلي بشير بن أبي حزم الأسدي

يصف لحظة إحساس الثور بالخطر عند سماعه النبأ من المكّلب : (البحر الطويل)

له كل يوم نبأ من مكّلبٍ * تريحه حياص الموت ثمّت تُقلّع⁽⁶⁵⁾

ولقد برز الجذب الذي يحيل على معنى الأطلال والرسوم الدارسة في أقصوصة «شارب النّهر» أجلى وأوضح ممّا سبق. فكان عبد القادر الشخصية الرئيسية قد رحل من ريفه إلى قرية القلعة الجرداء ف«نظر خلفه تجاه كوخه الخاوي وإلى سهله الأجرد الذي كان يصبح بورا»⁽⁶⁶⁾. وكان «يظن أنّ الشّمس قد نزلت من الفضاء لتنخر دماغه وأنّ السهول والهضاب الجرداء به قد أصبحت سرايا ممدودا»⁽⁶⁷⁾. وقد بيّن عبد القادر الغاية من رحيله قائلا «أنا ماشي أطلب قرضي من الدولة ابني مسجون». ونلاحظ هنا كثرة الحديث عن السّجون في تلك المجموعة القصصية في مقابل الطّيران. لقد طار عبد القادر من قفص أو سجن الجذب إلى الحرّية حيث الخصب «يا سليمان يا ابني. لا بدّ تخرج من الحبس ويعود حماري وتحيا مرتي وتخضرّ أرضنا وترجع قوتي ولا حاجة لزكاة ولا لبورطيقه» ولا لورقة»⁽⁶⁸⁾.

لقد بدا الواقع حسب تصوّر الحمزاوي في تلك المجموعة سجنا كبيرا يحيط بالمدن والأرياف. وقد تجسّد هذا السجن في مظاهر عديدة. فكان الفلاحون مثلا يوقعون على «عقد يجهلون شكله ومحتواه. ولقد أتيح لسعد أن يدرك سبب بقاء والده خمّاسا منذ سنوات بنفس الضّيقة وفهم رضاه بحاله تلك»⁽⁶⁹⁾. والسؤال الذي طرح: كيف السبيل للتحرّر من هذه السّجن الكبير؟

لاحظنا أنّه كلّما سعى بطل من أبطال هذه المجموعة إلى حلّ فردي فشل أو تورّط في مشكلة أخرى أكثر تعقيدا. فطرننوّ بعيد الاستقلال وجد نفسه وحيدا مسكونا بالخيبة بعد أن فقد أصدقاءه ولعب الكرة في البطحاء. فلم يجد مخرجا من مصيره المجهول سوى أن يشتغل حمّالا أمام السّوق المركزيّة «ففارق المكان بدوره وتسّلع بقفة كبيرة ثمّ وقف أمام السّوق المركزيّة يترقّب زبونا مثقلا ليحمل متاعه»⁽⁷⁰⁾. فعاد إلى التّهميش والضّيع من جديد كما كانت الحال التي انتهت إليها صالح في «تعيش وتربّي الرّيش». فقد وقع ضربه والسّطو على نقوده وتركه يتمرّع

في دمائه مغشياً عليه «انهالت عليه الضربات وتلقّى ضربات عصا... لم يستيقظ إلا عندما شعر بيد تهدده وبصوت يبكي ويغني:

اتعيش وتربي الرّيش وتاكل الكسكسي والبتشيش.

فنظر إلى قميصه فوجد الدّم يكسوه سائلا من رأسه وأنفه وعينه اليمنى التي انتفخت... بحث عن عصاه فوجدها مهشمة إلى نصفين. فجلس وسط السكة يبكي ويعوي وينوح ..⁽⁷¹⁾ فقد بدأ رحلته بالسكة: «السكة السكة تبع السكة توصل... فكانت سكتا الحديد ممتدتين أمامه تلصفان تحت الشمس وتلتويان كأنهما حيتان لا نهاية لهما»⁽⁷²⁾. وانتهى بحثه عن حلّ لبطلته بالعودة إلى السكة. ولربما في هذه النهاية إشارة إلى طريق العودة إلى ريفه بعد فشله في المدينة.

تبدو هذه الشخصيات البطلة ضعيفة منكسرة غير قادرة على مجابهة واقعها المعقد. فهي لا تملك فهما واضحا ووعيا به وبالقوى المتحكمة فيه. وتتحرك منفردة لحلّ مشاكلها. فهي ساذجة إلى حدّ بعيد «أومن ككلّ إنسان أنّ الخير يأتيها خطأ أو فجأة ولا يكتسب بعرق الجبين ولا بالكفاح والنضال والاتحاد»⁽⁷³⁾. وفي المقابل نجد شخصيات في أقصوصتي «حياة» و«دادة فاطمة» قد استطاعت أن تنجح في أعمالها ومخططاتها في مواجهة الاستعمار لأنّها تتحرّك وتعمل بشكل جماعي ومخطّط ومنظّم وبطريقة سرّية أحيانا. ونجحت حياة مع إبراهيم وعبد القادر في رفع الأسلاك الشائكة التي كانت حاجزا يقسم المدينة ويحاصرها. لكن مصير عبد القادر في الأقصوصة الأخيرة نهاية المجموعة كان استثنائيا ومختلفا. فقد كانت هذه الشخصية تواجه وضعها المعقد والصّعب بمفردها. لم تستجب الإدارة المانحة للقروض لمطلبها. وتعرّضت للعنف والطرد والتهميش. بيد أنّها في النهاية تحوّل انكسارها إلى انتصار بشكل مفاجئ وخاطف. إذ نزلت الأمطار فجأة بغزارة غير متوقعة بعد جفاف طويل وجذب شديد. «همّ يمشي وهو يبصق حتّى شعر برذاذ ينزل عليه فابتسم ساخرا من نفسه لإيقانه أنّ كلّ بصاق عائد على صاحبه. ولكن سرعان ما أدرك أنّه المطر، إنّ الغيث النافع ينزل من السّماء»⁽⁷⁴⁾. إذن لم يكن الحلّ أرضيا بل سماويا بعيدا عن الصّراع الواقعي بين طبقات المجتمع. فقد فاض وادي حيدرة حتّى صار نهرا «فسمع في سعيه نحوها دويّا كالزلزال البعيد...»⁽⁷⁵⁾. ولكن هذا العطاء أو الحلّ الإلهي الشّبيه بالمعجزة

لم يكن مجاناً دون قربان. فقد ألقى عبد القادر نفسه وسط مجرى النهر العارم «وقف وسط مجراه ففتح فمه الذي أصبح هوّة لا يدرك عمقها، ومدّ ذراعيه اللّتين بلغتا الصّفتين فقامتا سدّين شامختين وركّز ساقيه اللّتين صارتا عمادين تشدهما الأرض فبدا للسائق وللممرّض أنّ عملاق السماوات والأرض قد حلّ بنهر وادي حيدرة وشهدا المياه تغور في فمه وهي تغني:

شارب النّهر حي قائم

لكن من يستطيع أن يراه؟ لعلّ أبناءه الذين اخضرت أرضهم بعده. ولعلّه.. ولعلّه..»⁽⁷⁶⁾.

فاختلط العجائبي بالأسطوري في هذه النّهاية. فمن ناحية تحوّل عبد القادر إلى عملاق بحجم السّدّ العالي وابتلع ماء الوادي حتّى غاب عن الأنظار ولم يعثر له على أثر منذ ذلك الحين من ناحية أخرى. ولا نجد مقدّمات عقلية نابعة من واقعية الأحداث لتفسير هذا التحوّل البارز في تلكما الحاليتين. ولا مبرّر يعزى لهذه القفزة بين مسار الأحداث والنّهاية العجيبة إلّا تدخّل السّارد العليم بمآلات الأحداث بخلاف إرادة الشخصيات والمسار المنطقي لواقع الصّراع بينها. لقد ضخّم حجم جسم الشخصية لأنّها واجهت بمفردها تحدّيات ضخمة عارمة تحتاج في الأصل إلى جهد جماعي مكثّف للتخلّص من سجنها. «فظهر لها أنّ هذا السّجن يشابه جميع سجون العالم لأنّ وجه الظلم واحد وإن اختلفت بلدانه»⁽⁷⁷⁾.

فجميع هذه الشّخصيات لم تواجه واقعها ولم تبحث عن حلول من داخله. فكلّ واحدة منها تفضّل البحث عن خلاص فردي دون أن تنتظم في عمل جماعي واع يملؤها قوّة وبقاء. المشكل إذن في تغيير اتجاه الرؤية. من ينظر وراءه فقط يعيش مع الأموات ويلغ حركة الزّمن ومن ينظر إلى الأقوى منه فقط يبق مخطوف الإرادة مقلداً لا مبدعاً. وفي إطار هذه الرّؤية الفكرية عالج الحمزاوي العامية في علاقتها بالفصحى كما عالج جملة من القضايا الاجتماعية والاقتصادية في ستّينات القرن العشرين.

د - القضايا الاجتماعية واللغوية:

1- القضايا الاجتماعية:

إذن بدت هذه الأقسام وجوها مختلفة لقضيتين أساسيتين ناظمتين لها. القضية الأولى معنوية فكرية تتمثل في دفع المجتمع بنخبه وفئاته الاجتماعية إلى التحرر والتقدم وتحقيق الفاعلية المؤثرة في الواقع والتاريخ. وأمّا القضية الثانية ففنية ولغوية. والجانب الفني يتعلق بكيفية الربط بين الكتابة القصصية وقضايا المجتمع. وقد كان الحمزاوي واعيا بذلك. إذ قال في تقديمه لهذه المجموعة «إنّ الموضوع المطروح يتعلّق حسب رأي بقضايا الخلق القصصي وعلاقتها بتحوّل مجتمعاتنا... ذلك أنّ المتمعّن في هذا الموضوع يستسقي منه أولاً أنّ الخلق وقضاياها ناتجان حتما عن تلك التحوّلات وقضاياها المتنوّعة المتشعبة التي تمسّ الإنسان وتطرأ عليه في مجتمعاتنا.»⁽⁷⁸⁾. ولذلك طرح عدّة إشكاليات من بينها هذان السؤالان: «أليس من باب التعسف أن نرى في كلّ تحوّل ظاهرة مفيدة تستدعي منا خلقا جديدا؟ فهل يكفي أن يتحوّل مجتمعنا لنضع مشكل الخلق القصصي المناسب له»⁽⁷⁹⁾.

2- القضايا اللغوية:

وأما إذا نظرنا إلى البعد اللغوي في هذا العمل القصصي نقول أولاً إنّ جزء من المعالجة الفنية لهذا العمل القصصي. فالكتابة الفنية هي إبداع بالقول. فقد توخّى الكاتب تعاملًا مخصصًا مع رصيده اللغوي في مستوياته المختلفة الصرفية والمعجمية والتركيبية. ولعلّ أهمّ ظاهرة استرعت انتباهنا هي المزاجية بين اللهجة العامية والفصحى. فقد استعمل الكاتب بكثرة مفردات وتراكيب تامة متداولة في اللهجة التونسية. ورفع بعضها إلى مصاف اللسان الفصيح. فافترضنا أنّ هذا الموقف من اللغة ليس مرتجلا واعتباطيا وإنّما هو دليل على تصوّر معيّن للغة وكيفية تطويرها واستعمالها. ويمكن أن نفترض أنّ الحمزاوي كان يحمل مشروعا نظريًا لغويًا ضخمًا هو ردم الهوة الفاصلة بين اللهجة العامية واللسان الفصيح. فكانت تلك المجموعة القصصية لبنة أولى لتجسيد ذلك المشروع. إذن ما اللغة؟ ما التهميش؟

أ- اللغة:

نفّرق بين اللغة الملكة الطّبيعية أو الفطرية (language) التي خلق بها الإنسان ليستطيع في مرحلة من مراحل نموّه أن يتكلّم أو يفهم كلاماً وبين اللغة المعيّنة التي اصطلح عليها باللسان (langue) كالعربية والفرنسية والفارسية. ونحن نستعمل في سياق بحثنا مصطلح اللغة من باب التجوّز والعرف السائد في المؤلّفات النحويّة واللسانيّة. ونقصد به اللسان الذي يمكن تعريفه «بأنّه نظام من العلامات المتواضع عليها التي تتسم بقبولها التّجزئة، ويتّخذها الفرد عادة وسيلة للتّعبير عن أغراضه ولتحقيق التواصل بالآخرين وذلك بوساطة الكلام والكتابة»⁽⁸⁰⁾. فاللغة اللسان نظام من العلامات يكتسبه الفرد من خلال العيش في مجتمعه. وهي نشاط ذهني من أنشطة الدّماغ كالذاكرة والإدراك الحسي. وهي بهذا المعنى مظهر من مظاهر الذكاء الطّبيعي الناتج عن الوظائف العصبيّة في الدّماغ. فاهتمّت بها البيولوجيا من هذا الجانب. ولما كانت لها صلة بالحالات النّفسية للمتكلّم أصبحت مشغلا من مشاغل علم النّفس، فظهر علم النّفس اللّغوي. واعتبرها علماء الاجتماع نشاطا اجتماعيا يحقّق الإبلاغ والتواصل. فتأسّس علم الاجتماع اللّغوي ليدرس اللغة باعتبارها مؤسّسة اجتماعيّة بدونها تنخرم مختلف المؤسّسات الأخرى في الاجتماع الإنساني المعقّد. وشيئا فشيئا تمتّنت الصّلة بينها وبين مختلف العلوم الطّبيعية والإنسانية الأخرى كالفلسفة والأنثروبولوجيا والمنطق والرياضيات والإعلاميّة النّظرية. فتولّدت اللسانيات الحاسوبية في ضوء اتّجاه عرفاني يعتبر الدّماغ الإنساني ضربا طبيعيا من الحاسوب. وتبلورت العلوم العرفانية على أساس مختلف هذه العلوم المستفادة لدراسة اللغة. وقد بيّن علماء اللغة القدامى واللسانيون في العصر الحديث أنّ اللغة ذات مستويات صوتيّة وصرفيّة وتركيبية ومعجميّة ودلالية. وكلّ مستوى يمكن دراسته بمفرده دون أن يخلّ ذلك بالتّصوّر لطبيعة اللغة الذي يقرّ بالتّرابط والاسترسال بين هذه المستويات. ويمكن أن يتعمّق كلّ باحث لساني في دراسة مستوى من هذه المستويات ويتخصّص فيه كما اختص محمّد رشاد الحمزاوي في الدّراسات المعجميّة. وقد تجلّى اهتمامه بهذا المستوى في «طرنو» أساسا باستعمال مفردات متداولة في اللهجة العاميّة

ورفعها إلى رتبة الفصحى حتى لا تبقى مهمشة. فهو ضدّ تهيمش المنتج اللغوي للّهجة العامية واعتباره أقلّ قيمة من الرصيد اللغوي الفصيح في المعاجم.

ب - التّهميش:

همش الرجل همشا: أكثر الكلام في غير صواب. وهمش القوم تحرّكوا وهمش الجراد تحرّك ليثور. وهمش الكتاب ونحوه أضاف ملاحظات على هامشه أو حاشيته. وهمش الموضوع جعله ثانويًا. والتهمش: التآكل والتحكّك. «فالمعنى هنا يدلّ على كلّ ما قلّت مكانته وموقعه سواء أكان بصورة طبيعيّة أم بصورة طارئة. وصيغة التهميش مصدر أصلي من الفعل المزيد همش وهي صيغة توحى بوقوع الفعل على المفعول به ولها معنى الجعليّة أي جعله على الهامش. وتوحى بمعنى القصديّة والتخطيط سلفا لبلوغ هدف ما. إذن فالعلاقة بين المهمش والمهمش قائمة على الصّراع والسيطرة وهي سيطرة تستمدّ شرعيّتها من امتلاك المهيمن كلّ وسائل القهر والإلزام: الاقتصادية والاجتماعيّة والسياسيّة ممّا يشرّع له اعتماد العنف المادي والمعنوي لحمل المقصّي على قبول وضعيته تلك»⁽⁸¹⁾. والتهميش يمكن أن يكون بنية فكريّة وذهنيّة متحكّمة في عقول أفراد المجتمع ومؤسّساته. فيطال المجال المعرفي واللغوي كأن تهيمش طبقة المثقفين والأكاديميين الجامعيين قضايا فكريّة معيّنة حتى لا يفكر فيها أو أن يهيمش التفكير اللساني للّهجة العامية ويتعالى عليها. لكنّ الحمزاي في مجموعته القصصيّة «طرننو» لم يهيمش اللّهجة العاميّة من جهة استثمار رصيدها المعجمي وطاقاتها التعبيريّة. وليس أدلّ على ذلك من عنوان تلك المجموعة. فهو ضدّ التيار الذي يختلق خصومة وتعارضا بين اللّهجة العاميّة واللغة الفصيحة.

المفردات والتعابير العاميّة:

فأحصينا المفردات والتعابير المركّبة المستعملة في اللّهجة العاميّة التّونسيّة التي ذكرها الحمزاي في مجموعته. وربّناها في جداول بحسب ظهورها في كلّ أقصوصة. واستثنينا من هذا الإحصاء الحوارات باللّهجة العاميّة التي جرت بكثرة بين الشخصيات. فاهتمنا فقط بالعناصر اللغويّة الشائعة في العاميّة التي تعامل معها الحمزاي كما تعامل مع العناصر اللغويّة المتفق على فصاحتها. ونعني

بذلك أنّ ما هو عاميّ في الأصل فصّحه وما هو فصيح في الأصل مستعمل في العاميّة ومهمّش في الاستعمال الفصيح كشف عنه وأدخله في كلامه. ونبيّن هذه الأمور من خلال الجدول الآتي:

طرنّو	تعيش وتربي الرّيش	باب العرش	حياة
يكمد جسمه يبيع الرّيح للمراكب يستمتع بزنفة الولي علي الخضّار - تقتيل الوقت -	شمّر ثيابه كاشفا عن دبره ليستريح بين المقابر - الجفاف لكع الأرض - الريح الغربي الذي لا يفرح القلب - الجرايع والتّغوذة - مخلاته - سيسفونها سفا - القلية - يتكلم فرنسية لا ذيل لها ولا رأس - تلصفان - نهداه يكاد يخرجان من التريكو - حذاء ترّاس - الخضّارين والجزّارين - تشنشن -	عربة خضّار - يا غريبة الغرائب -	بشعرها المتجدد الدجوجي - ميّك قد كحّ - عيناها الخضروان تلوعاني - على قدر عضّة الهوى - ما كنت أظن أنها ستصبح تحفونة حبوبة -

دادة فاطمة	دجاجة عمّتي	شارب النّهر
فلو عيّطت - إنّها تحفونة - ترحي الآباء والبنين - من أيّ برّ جئت؟	عود مركزي قديم سميك يدعوه الفلاحون قنطاس - ينام على غرارتين ملئتتا تبنا - بطانية رثّة - البسيّة - يسلمه قرقا يحمي به رجله - عمّتك خارج كيمها -	مسح جبينه مسحة الرسول - كلنا في الهواء سواء

نتبيّن من خلال هذا الجدول أنّ الحمزاوي استعمل وحدات معجميّة متداولة كثيرا في اللّهجة العاميّة ولكنّها فصيحة في الأصل. ففعل «تلصفان» المصّرف

في المضارع المرفوع مع أنما جاء في لسان العرب من لَصَفَ لونه يلصف لصفاء
ولصوفا ولصيفا برق وتلاؤاً. وفعل لكع فصيح أيضا، ذكر في اللسان: لكع الضيفُ
أكل وشرب ولكع الرضيعُ: ضرب ثدي أمه عند الرضاع، ولكعتُ العقبُ: لدغته
ولسعته. وكذلك كَحَّ كححتُ يَكْحُ كَحًا فهو كاح وكَحَّ الشخص سعل وتنحج .
إن هذه الأفعال تكاد لا نجد لها استعمالا في الكلام الفصيح المتداول في العربية
المعاصرة رغم أنها مذكورة في المعاجم. لكن اللهجة ظلت تستعملها وتنقلها من
جيل إلى آخر. فمازلنا نقول في كلامنا العامي «لكعتني النار». ولا يختلف الحال
مع فعل عيَّط أيضا أو مع الاسمين بَطَانِيَّةً و غِرَارَة . فعَيَّطَ الطُّفْلُ صاح مدَّ صوته
بالصراخ والبكاء وعَيَّطَ عليه صرخ عليه أو بكى عليه. والبطانية في المعجم غطاء
من الصوف يلتحف به للوقاية من البرد وجمعها بَطَّانِيَّاتٍ وبطانين و غِرَارَة هي
وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. والمشكلة أنه لو استعمل طالب
في المدرسة أو الجامعة فعلا من هذه الأفعال أو اسما من هذه الأسماء لاعتبرها
بعض المدرسين عامية غير فصيحة ولشطبها من مقاله.

ونلاحظ أيضا من جهة أخرى أنه أدرج كلمات وتراكيب عامية في كلامه رافعا
إياها إلى مقام الفصحى. فاستعمل كلمة زنقة بدلا من زقاق وكلمة خضار بدلا من
بائع الخضر أو البقال وكلمة تحفونة عوضا عن جميلة أو جذابة وكلمة تلغوذة
التي هي نبتة بريّة عوضا عن اسمها بالعربية الفصيحة جوز الأرض وبالفرنسية
Noix de terre ويستعملها الإنسان للغذاء والعلاج. ولم يكنف الحمزاوي فقط
بمعالجة المفردات اللغوية المتداولة في اللهجة العامية وإنما نظر في تراكيب
كاملة بعينها ونقلها إلى كلامه بعد أن صاغها صياغة فصيحة سليمة نظرا لقوتها
التعبيرية وإصابتها المعنى المقصود وأثرها البالغ في السامع. والأمثلة على ذلك
كثيرة منها: «يبيع الرّيح للمراكب». ولربما كان هذا التركيب الفعلي التام المعنى
مثلا سائرا في القديم. وهو يندرج في المجاز التمثيلي. ويعني البطالة والفراغ.
وأوضح الجرجاني في «الدلائل» سبيل فهم هذا النوع من المجاز بقوله «وهكذا
كلّ كلام كان ضرب مثل لا يخفى على من له أدنى تمييز أنّ الأغراض التي تكون
للناس في ذلك لا تعرف من الألفاظ. ولكن تكون المعاني الحاصلة من مجموع
الكلام أدلة على الأغراض والمقاصد»⁽⁸²⁾. وذكر أيضا بالفصحى قوله «الريح

الغربي الذي لا يفرح القلب «وهو كلام عادة يقال بالعامية على هذا النحو: «إليّ ييجي من الغرب ما يفرح القلب» للتعبير عن المشاق ونوائب الدهر المحزنة. ولعلّ الحمزاوي من خلال هذه التعامل المنهجي والمعرفي اللغوي كان يهدف إلى تقليص المسافة الفاصلة بين الفصحى والعامية وتخفيض التنافر الظاهر بينهما. فوجد في اللهجة العامية ثراء لغويًا متنوعًا وشاملاً للمفردات والتراكيب التعبيرية يغني به الرصيد المعجمي والبلاغي الفصيح. لذلك قال عبد الجليل الميساوي الباحث التونسي في الحضارة واللغة «في لهجتنا المحلية ثروة لغوية ضخمة مازالت تنتظر من اللغويين العرب الالتفات إليها»⁽⁸³⁾.

ولقد تبين لنا «ضالة الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية في الخطاب الشعبي التونسي إلى الحدّ الذي جعل ثنائية «فصحى وعامية» ثنائية وهمية»⁽⁸⁴⁾. لذلك يمكن أن نسمح للمتعلّمين في المدارس بأن يستعلموا كلماتهم الفصيحة الشائعة في لهجتهم العامية كما يمكن لعلماء اللغة والمعجميين أن ينقلوا كلمات من العامية إلى المعجم الفصيح بعد أن يتمّ تفصيلها وفق قواعد النظام اللغوي وأحكامه.

خاتمة:

لقد ضمّن الحمزاوي في مجموعته القصصية مواقفه الفكرية الأدبية والسياسية واللغوية. فأبدى موقفاً ثورياً ضدّ تهميش المجتمع لفائدة أصحاب السلطة وملأك الثروة والمصانع والأراضي المستحوزين على مراكز القرار والنّفوذ الاقتصادي والاجتماعي كما رفض تهميش اللهجة العامية لحساب الفصحى. فكان عنوان هذه المجموعة «طرننوّ» دالاً على شدة الخفقان والطيران المتحمّس للتحرّر الشامل بغية بناء مجتمع متقدّم ومتطوّر. وتكتسب هذه الغاية وجاهتها وقيمتها بتنزيلها في سياقها التاريخي التي ظهرت فيه. فقد ألّف الحمزاوي هذه المجموعة بعيد الاستقلال ما بين الستينات والسبعينات من القرن العشرين حين كانت الدولة التونسية الناشئة مترددة بين الخيار الاشتراكي والخيار الرأسمالي. فكان هدفه أن يعيد للمهمّش في مختلف أشكاله وأنواعه دوره ومكانته ليكون فاعلاً خارج ثنائية

التضاد بين الهامش والمركز. وهي ثنائية سلبية تمثل قوة جذب وثقل تعيق كل من يريد التحرر أو بالأحرى تمنع كل طرننو من التحليق عاليا نحو الحرية والكرامة البشرية والعدالة الاجتماعية والتقدم العلمي والتكنولوجي. فظهر الحمزاوي أدبيا ملتزما بقضايا مجتمعه لا يفصل بين الخلق القصصي والتحويلات الطارئة على المجتمع. فكان قلمه ينقع من حبر عادات المجتمع التونسي وتقاليده وتاريخه ولغته ولهجته ومحنه التاريخية الكبرى وثقافته التي امتزجت فيها مختلف الحضارات التي عمرت أرض البلاد التونسية. لذلك كان أثر المنوال الشعري بيتا في أبنية أقاصيصه لتأثره العميق بالشعر العربي القديم ومعانيه. فلا تخلو أقصوصة من حدث الرّحيل النّاجم عن فقد كلّ مقومات العيش الكريم كما كان يرحل الشاعر بعد فقد الوصال بحبيته الطاعنة مع أهلها. وكان غرض الرّحيل البحث عن عمل يوفر عيشا كريما في العاصمة أو خارج أرض الوطن كما كان يرغب الشاعر الرّاحل في جزيل العطاء من يد الممدوح.

وفي ظلّ هذا الواقع المتأزم فكريا وماديا طرح الحمزاوي سبيلا للحلّ متمثلا في الانغراس في تربة الواقع. وقد تجلّى أولا فيما ذكرنا من رفضه للتهميش الاجتماعي. وتأكّد ثانيا في طريقته التي عالج بها المخزون اللغوي في اللهجة العامية. فقد اعتبره استعمالا حيا للسان العربي مرتبطا باليومي في حياة المجتمع. ولذلك يمكن العودة إليه لإثراء الرّصيد المعجمي الفصيح. فلا تتوقّف الفصاحة في نظره على المعاجم والنصوص العربية القديمة. على هذه السبيل يمكن أن نعتبر استعمال اللغة موردا مهما يعود إليه التفكير اللساني المجرد ليجدّد نفسه نظريا ويراجع أطروحاته السابقة. فليس استعمال اللغة سواء في المجال العامي أو في المجال الفصيح فقط مجرد امتثال أو تطبيق لأحكام اللغة وقواعدها. لذلك نقترح أن ننظر أبعد من لسانيات النصوص لنطرح تصوّرا للسانيات الأعمال الفنيّة ونعمل على البحث فيه وترسيخه. فيمكن أن نتساءل مثلا كيف فكّر الحمزاوي في ماهية اللغة وطرق اشتغالها من خلال مجموعته القصصية «طرننو»؟. ويكتسب هذا التساؤل وجاهته العلمية إذا ما أخذنا في اعتبارنا أنّ هذه المجموعة قد بدأت بذكر الماء وانتهت بهطول المطر في أقصوصة «شارب النّهر» كما بدأت معلّقة امرئ القيس بالبكاء وانتهت كذلك بنزول الأمطار. وكان الجرجاني قد ذكر في

دلائل الإعجاز أنّ مؤلّف الكلام كمن يأخذ كسرة من الفضة أو الذهب فيذيبها (يجعلها سائلة كالماء) ليصوغ منها خاتما أو سوارا كالحلقة المفرغة لا يقبل التقسيم كالماء. ويجب أن نأخذ في عين اعتبارنا أيضا أنّ الحمزاوي أكثر من الحديث عن الكرة والبطحاء وتربة الباي. فهل كان يرى اللغة كروية كما تصوّرّها اللّساني التّونسي محمّد صلاح الدّين الشّرف في أطروحته «الشرط والإنشاء النّحوي للكون». ونقد بذلك التصوري الخطيّ البنيوي لأنّ المستويات التّجريدية التي تطلبها الدّلالة النّحوية لا توافق مفهوم العلامة السّويسرية.

المصادر والمراجع

(مرقمة حسب إحالاتها في متن المقال)

المصادر:

— محمد رشاد الحمزاوي، طرننو تعيش وتربي الريش، الدار التونسية للنشر، ط5، 1990.

وفيما يلي الشواهد المأخوذة من المجموعة القصصية بحسب أرقامها في متن المقال وأرقام صفحاتها في المجموعة:

3 طرننو، ص 21 // 4، ص 21 // 5، ص 19 // 6، ص 19 و 20 // 7، ص 19 // 8، ص 19 // 9، ص 19 // 11، ص 19 // 12، ص 19 // 13، ص 19 // 14، ص 21 // 16، ص 189 // 17، ص 21 // 18، ص 133 // 19، ص 188 // 20، ص 127 // 21، ص 23 // 22، ص 25 // 23، ص 142 // 24، ص 35 // 25، ص 150 // 26، ص 152 // 27، ص 182 // 28، ص 24 // 29، ص 22 // 30، ص 158 // 31، ص 162 // 32، ص 174 // 33، ص 175 // 34، ص 182 // 39، ص 70 // 40، ص 75 // 41، ص 76 // 42، ص 77 // 43، ص 23 // 44، ص 21 // 45، ص 24 // 47، ص 24 // 48، ص 25 // 50، ص 25 // 52، ص 25 // 53، ص 35 // 54، ص 33 // 55، ص 66 // 56، ص 66 // 57، ص 81 // 59، ص 108 و 114 // 60، ص 114 // 61، ص 153 // 62، ص 169 // 63، ص 158 // 64، ص 40 // 66، ص 179 // 67، ص 182 // 68، ص 188 // 69، ص 163 // 70، ص 25 // 71، ص 56 // 72، ص 41 // 73، ص 62 // 74، ص 188 // 75، ص 188 // 76، ص 189 // 78، ص 7 // 79، ص 9 //

المراجع:

- محمد صلاح الدين الشريف ، دروس وحدة اللسانيات ، كلية الآداب والفنون والإنسانيات ، جامعة منوبة 2005 .
- غاستون باشلار ، الماء والأحلام ، دراسة عن الخيال والمادة ، ترجمة علي نجيب إبراهيم ، المنظمة العربية للترجمة ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، 2007 .
- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تحقيق وتصحيح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، دار المعرفة بيروت ، ط 3 ، 2001 ، ص 53 و 54 .
- 34 القرآن الكريم، الطلاق، الآية 12 .
- 35 عزالدين إسماعيل ، الأدب وفنونه ، دار الفكر العربي ط 9 ، 2013 ، ص 176 .
- 36 أبو المعاطي أبو النّجا ، القصة القصيرة والبحث عن خصوصية الذات ، كتاب العربي 31 / 1998 ص 11 و 12 .
- 37 عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، المقدمة، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2006 ، ص 524 .
- 44 ديوان بشار بن برد، جمعه وحققه وشرحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ودار السلام للطباعة والنشر، تونس ط 1، 2008 ، ج 1 ص 255 .
- 50 ديوان بشار بن برد ج 1، ص 271 .
- 57 ديوان عمر ابن أبي ربيعة هيج القلب مغان وسير .
- 65 ديوان بشير بن أبي حزم الأسدي، تحقيق عزة حسن دار الشرق العربي، ط 1، 2000 ، ص 144 .
- 80 محمد محمد يونس علي ، مدخل إلى اللسانيات ، ط 2 ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، 2018 ، ص 26 .
- 81 عمر الزعفروري ، التّهميش والمهمّشون في المدينة الغربية المعاصرة ، مجلة عالم الفكر ، الكويت عدد 4 م 36 أبريل 2008 ، ص 186 .

- 82 دلائل الإعجاز، ص 282.
- 83 عبد الجليل الميساوي، معجم الفصحى والعامية في الخطاب الشعبي التونسي، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، 2011، ط 1، 2011، ص 25.
- 84 معجم الفصحى والعامية ص 35.
- أبو المعاطي أبو النجا القصة القصيرة والبحث عن خصوصية الذات كتاب العربي 31 / 1998 ص 11 - 12
- بشير بن أبي حزم الأسدي، الديوان، تحقيق عزة حسن دار الشرق العربي ط 1، 2000، ص 144 - 146.
- بشار بن برد، الديوان، جمعه وحققه وشرحه العلامة محمد الطاهر بين عاشور، ط 1، 2008، دار سحنون للنشر والتوزيع ودار السلامة للطباعة والنشر.
- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة ص 524.
- عبد الجليل الميساوي، معجم الفصحى والعامية في الخطاب الشعبي التونسي.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز.
- عنترة بن شداد، الديوان.
- عمر بن أبي ربيعة.
- عمر الزعفروري، التهميش والمهمشون في المدينة العربية المعاصرة، مجلة عالم الفكر الكويت، عدد 4 م 36 أبريل 2008.
- عز الدين إسماعيل الادب وفنونه ص 176 دار الفكر العربي ط 9، 2013.
- غاستون باشلار، الماء والأحلام دراسة عن الخيال والمادة، ترجمة د. علي نجيب إبراهيم، المنظمة
- العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2007.
- القرآن الكريم، سورة الطلاق، الآية 12.
- محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ط 2 دار الكتاب الجديد المتحدة.

اللاتناهي الاستعاريّ ومقولة التفضيل المطلق

أ.د. محمد عزيز الأحمر

مخبر «المباحث الدلاليّة واللّسانيّات الحاسوبية» (LR18ES46)
كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة – تونس

الملخص:

ينظر هذا المقال في علاقة تصوّر اللاتناهي بالتفضيل المطلق. ونعالج هذه المسألة من زاوية اللسانيات العرفانيّة وتحديدًا من خلال نظرية الاستعارة التصويريّة. ويفترض مقالنا أنّ تصوّر اللاتناهي ليس دخيلاً عن مجال النحو وإنّما تكمن وراءه أسس استعاريّة ونحويّة تتدخّل في طريقة مقولته. وعلى هذا الأساس، نهدف إلى إيجاد مظاهر التماثل بين تصوّر اللاتناهي وتصور التفضيل. ونعتبر في هذا الصدد أنّ اللاتناهي استعارة تصوّريّة تتدخّل في مقولة الكيانات النحويّة على غرار التفضيل المطلق.

الكلمات المفتاح: اللاتناهي، التفضيل المطلق، الاستعارة التصويريّة، الخطاطة، الاسترسال.

Abstract:

This article explores the relationship between the concept of infinity and the superlative form. We approach this issue from the perspective of cognitive linguistics, specifically through the theory of conceptual metaphor. Our article assumes that the concept of infinity is not isolated from the field of grammar; rather, it is grounded in metaphorical and grammatical foundations that influence the way it is categorized. On this basis, we aim to identify aspects of similarity

between the concept of infinity and the concept of superlative form. In this context, we consider infinity as a conceptual metaphor that intervenes in the categorization of grammatical entities such as superlative form.

Keywords Infinity, Superlative form, Conceptual metaphor, Schema, Continuum.

المقدمة:

يعدّ مفهوم اللاتناهي ذائع الصيت في ميادين العلوم الصحيحة خاصة منها ما يتعلّق بالرياضيات. إذ ميّز الرياضيون بين أنواع من اللامتناهيات على غرار اللامتناهي الموجب والسالب واللامتناهي بالقوة والفعل واللامتناهي في الصغر والكبر. ولئن انشغل الرياضيون بأنواع اللامتناهيات واستعمالاتها في الميدان الرياضي فإنّ اللسانيين قد استفادوا من اللامتناهي الرياضي بغاية البحث في الأسس التصوريّة التي جعلت الذهن الإنسانيّ قادرا على استنباط هذا المفهوم المجرّد. وقد كانت هذه الاستفادة واضحة بجلاء في كتاب جورج لاكوف ورافايال نيوناز وعنوانه «من أين أتت الرياضيات؟»⁽¹⁾ حيث اشتغل الباحثان على إيجاد الأسس الاستعارية والنحويّة الكامنة وراء تصوّر اللاتناهي من زاوية عرفانيّة. على هذا الأساس يهدف هذا المقال إلى النظر في اللاتناهي العرفانيّ وتتبع الأسس الاستعارية والنحويّة الكامنة وراء تصوّره ثمّ السعي إلى تطبيق هذا المفهوم في الميدان النحويّ. وسنمثّل لذلك من خلال دراسة التفضيل المطلق. ويهدف هذا المقال خصوصا إلى إيجاد مظاهر التماثل بين تصوّر اللاتناهي العرفانيّ وتصور التفضيل المطلق في المستوى الاستعاريّ.

فكيف يكون اللاتناهي استعارة تصوّريّة؟ وكيف تصوّر النحاة العرب التفضيل؟ وكيف يتدخّل اللاتناهي الاستعاريّ في تصوّر التفضيل المطلق؟

(1) George Lakoff and Rafael Nunez, *where mathematics comes from: How the embodied mind brings mathematics into being*, New York, Basic Books, 2000.

1 - في تصوّر اللاتناهي استعاريا:

1.1. الاستعارة التصوريّة والخطاطات الصور:

تمثّل الاستعارة التصوريّة النظرية التي تعتبر أنّ تصوّراتنا تبنى بشكل استعاريّ. وليست الاستعارة في اللسانيات العرفانيّة وسيلة فنيّة تعتمد لتجميل الصورة وتزيين الكلام مثلما هو الأمر في المدارس البلاغيّة الكلاسيكيّة بقدر ما هي نشاط عرفانيّ يسيّر طريقة إدراكنا للعالم وتعاملنا مع المفاهيم الحسيّة والمجرّدة. «وتعتبر الاستعارة في نظر لايفوف وجونسن (في كتابهما الاستعارات التي نحيا بها) آليّة عرفانيّة، فهي ليست شيئا مضافا إلى الفكر بل هي الفكر نفسه الذي يشتغل في جانب كبير منه على الخيال، وتقوم الاستعارة في نظرهما على فهم ميدان تصوّري ما وليكن الميدان أ» «عن طريق ميدان تصوّري آخر وليكن الميدان التصوّري ب»⁽¹⁾. وتبنى الاستعارة التصوريّة من خلال إسقاط عناصر ميدان مصدر على العناصر التصوريّة الموجودة في ميدان هدف. ويمكن أن نمثّل لذلك من خلال استعارة الحياة رحلة. «فنحن نفهم الحياة عن طريق إسقاط خاصيّات الرحلة عليها، فالحياة كالرحلة لها بداية هي ساعة الميلاد ولها نهاية هي ساعة الموت وهناك مسار يسلكه المرتحل وفي هذا المسار عوائق ومطبات ومنعرجات واستراحات وغيرها.»⁽²⁾

إنّ العناصر المستحضرة في الميادين التصوريّة لها بنية خطاطيّة. وتمثّل الخطاطة في اللسانيات العرفانيّة «مظاهر التماثل الإجماليّة الكبرى التي يكشف عنها التجرّد من التفاصيل الدقيقة»⁽³⁾ وهي «وسم مجرّد يكون مطابقا في كليّته مع أعضاء الصنف الذي يحدده.»⁽⁴⁾ فلكي أحصل على بنية خطاطيّة للرحلة لا بدّ

(1) محمد الصالح البوعمراني، السيميائيّة العرفانيّة الاستعاري والثقافي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2015، ص 3.

(2) محمد الصالح البوعمراني، المرجع نفسه، ص 3-4.

(3) Ronald Langacker, *Cognitive Grammar A Basic Introduction*, Oxford University Press, New York, p.219 "Representing the coarse-grained similarities revealed by abstracting away from fine-grained details."

(التعريب عن رونالد لانفاكر، مدخل في النحو العرفنيّ، ترجمة الأزهر الزناد، معهد تونس للترجمة، 2018، ص 359).

(4) توفيق قريرة، الاسم والاسميّة والإسماء في اللغة العربيّة مقارنة نحويّة عرفانيّة، مكتبة

أن أجرد أنواع الرحلات التي يمكن أن أعرفها من التفاصيل الدقيقة والجزئيات الثانوية لأنشئ بنية تماثل فيها كل الرحلات وتشارك في الإحالة إلى خطاطة الرحلة. فقد تنوع الرحلات من رحلات بحرية وجوية وبرية وقد تختلف وجهات هذه الرحلات وغايتها لكنني من خلال هذه الرحلات الكثيرة أنجح في استنباط بنية خطاطية تشارك فيها كل الرحلات مهما اختلفت فأحافظ على المتكرر المشترك وأقصي التفاصيل الثانوية.

ويطلق العرفانيون على صنف معين من الخطاطات مصطلح الخطاطة الصورة. وتعتبر الخطاطات الصور خطاطات أولية بدئية أساسية. وهي جملة من البنى التصورية التي تنظم تماثلنا الذهنية في مستوى أكثر عمومية وتجريدا⁽⁵⁾. فهي بنية منظّمة⁽⁶⁾ تتدخل في تنظيم إدراكنا للمتصورات. وتتدخل هذه الخطاطات البدئية في تشكيل تصوراتنا الخطاطية التي ترتبط بصنف معين من الأشياء أو العلاقات. فالخطاطات الصور أعلى تجريدا من الخطاطات والخطاطات بدورها أعلى تجريدا من العينات. والخطاطات الصور خطاطات بدئية باعتبارها أكثر تجسدا من الخطاطات الأخرى. فنحن نشق من جسدنا هذه الخطاطات الصور التي نعتمدها ميدانا مصدرا نستعيرها لبناء تماثلات تصوّرية أكثر تجريدا. وعادة ما يستفيد الميدان المصدر من البنى الخطاطية البدئية لأنها متصلة أشد اتصال بتجاربنا الحسية وبنشاطنا الجسدي ونعتمد عليها في بناء المفاهيم المجردة. ويميّز العرفانيون بين صنفين من الخطاطات الصور: خطاطة التحكم الحركي وخطاطة العلاقات الفضائية.

قرطاج للنشر والتوزيع، 2011، ص 75.

(5) Mark Johnson, *The body in the mind: the bodily basis of meaning, imagination, and reason*, The University of Chicago Press, Chicago and London, 1987, pp.23-24 "Image schemata are not rich, concrete images or mental pictures, either. They are structures that organize our mental representations at a level more general and abstract than that at which we form particular mental images."

(6) Mark Johnson, *Ibid*, p.29 "I conceive of them as structures for organizing our experience and comprehension."

تحتوي خطاطة التحكم الحركي على بنية حديثة مجردة. «وهذه الخطاطة نابعة من نظام التحكم الحركي الذي يسيّر الجسد البشري والذي مثله «نريانان»⁽⁷⁾ في هذه البنية الخطاطية :

- وضع الاستعداد
- وضع المقاربة
- الانطلاق في العملية
- جوهر العملية
- إمكان التوقف عن العملية
- إمكان إعادة الانطلاق
- إمكان تكرار العملية أو الاستمرار في جوهر العملية
- التثبت من بلوغ الهدف
- إنتهاء العملية
- وضع الانتهاء⁽⁸⁾

أما خطاطة العلاقات الفضائية فهي تكشف عن «البنى المجردة المنظمة لكيفية إدراكنا لأنماط العلاقات التي يمكن أن تجري في الفضاء. وتستفيد هذه الخطاطة من نظامنا الإدراكي البصري بالأساس»⁽⁹⁾ ويمكن أن نجمل أبرز هذه الخطاطات في هذه النماذج الخطاطية :

(7) Srimi Narayanan, *A dissertation submitted in partial satisfaction of the requirement for the degree of doctor of philosophy: knowledge-based action representations for metaphor and aspect*, University of California, Berkeley

(8) George Lakoff and Mark Johnson, *Philosophy in the flesh: the embodied mind and its challenge to western thought*, Basic Books, New York, 1999, p.41 “Getting into a state of readiness / the initial state / the starting process/ the main process / an option to stop/ an option to resume/ an option to iterate or continue the main process/ a check to see if a goal has been met / the finishing process/ the final state.”

(9) George Lakoff and Mark Johnson, *Ibid*, p.573 “What allowed the system to learn and represent spatial relations was his modeling of neural structures of the sort found in the brain’s visual system.”

— خطاطة الوعاء أو الحاوية : the container schema : لخطاطة الوعاء البنية التالية: داخل وحدود وخارج⁽¹⁰⁾. فلا يوجد داخل دون حدود وخارج ولا وجود لخارج دون حدود و داخل ولا وجود لحدود دون داخل وخارج.⁽¹¹⁾ وهذه البنية مرنة بمعنى أن الحدود يمكن أن تكبر وتصغر وأن تتمدد وتقلص انسجاما مع المعطى المدرك⁽¹²⁾. ولهذه الخطاطة أصل مجسد نظرا لأننا عادة نتصور أجسادنا بوصفها أوعية أو نتصور ذواتنا حالة في أوعية أخرى. وقد يكون الوعاء ماديًا ممثلًا في فضاء مكاني معين وقد يكون وعاء رمزيًا فقولنا دخلت في نوبة غضب دليل على أننا نتصور النوبة بمثابة الحاوية التي يمكن أن نحل فيها وندخل فيها أو نخرج عنها.

— خطاطة الكل جزء: هذه الخطاطة ضرورية أيضا لفهم خطاطة الوعاء. وهي بنية جشطلتيّة. فلا يمكن إدراك الجزء دون معرفة الكلّ. فلا يمكنني أن أدرك شيئًا دون إدراك الإطار الذي يحوي ذلك الشيء والذي قد يؤثر بشكل مركزيّ في طريقة إدراكي للشيء المبرّر عليه. «ولقد استفاد اللساني تالمي (...) من سيكولوجيا الجشطلطة ومنها بين أنّ رؤيتنا لمشهد من المشاهد يكون بتقسيم الحقل المدرك إلى ثنائيّة طرف منها أبرز هي الوجه والثاني أقلّ بروزا هي المحيط وفيه يتحرّك الوجه ويبرز.»⁽¹³⁾ ففي قولنا الكرسيّ في القاعة، نتصور القاعة بوصفها حاوية يوجد في داخلها الكرسيّ. والكرسيّ بالنسبة إلى المتكلم في هذه الجملة بارز إدراكيًا أكثر من بروز القاعة. فالتكلم يبتّر على الكرسيّ فيكون الكرسيّ وجها وتكون القاعة محيطًا أو أرضيّة وتكون بمثابة الكلّ الذي يحتوي الجزء ممثلًا في الكرسيّ.

(10) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, pp.30-31 “The container schema has three parts: an interior, a boundary, and an exterior.”

(11) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.31 “This structure forms a gestalt, in the sense that the parts make no sense without the whole. There is no interior without a boundary and an exterior, no exterior without a boundary and an interior, and no boundary without sides, in this case an inside and an outside.”

(12) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.31 “This structure is topological in the sense that the boundary can be made larger, smaller, or distorted and still remain the boundary of a container schema.”

(13) توفيق قريرة، المرجع نفسه، ص 30.

— خطاطة مصدر مسلك هدف the source-path-goal schema: «قوام حركة الجسد في الفضاء من نقطة انطلاق تبدأ عندها حركة التنقل ونقطة وصول وما بينهما مسلك يتمثل في جميع النقاط المسترسلة تعمّها الوجهة أو الاتجاه».⁽¹⁴⁾

وتستفيد استعارة الحياة رحلة من هذه الخطاطات البدئية فتصوّر الرحلة يستدعي خطاطة التحكّم الحركي فتستفيد الرحلة من البنية الحدثية المجردة. ولا يمكن أن يدرك حدث الترحال دون موضعيته في الفضاء فتستدعي لأجل ذلك خطاطات العلاقات الفضائية من ذلك استفادة استعارة الحياة رحلة من خطاطة مصدر مسلك هدف. فرحلة الحياة تبدأ من نقطة انطلاق هي لحظة الولادة مروراً إلى نقطة وصول وهي الموت وما بين المصدر والهدف مسلك يتمثل في تجارب الإنسان في الحياة أثناء مراحل عمره.

انطلاقاً من هذا التصوّر لمفهوم الاستعارة وعلاقتها بالخطاطات والجسد، أمكن للعرفانيين النظر في المفاهيم المجردة على غرار مفهوم اللاتناهي. فكيف يتصوّر اللاتناهي عرفانياً؟

2 - استعارة اللاتناهي القاعدية:

مثل كتاب «من أين أتت الرياضيات؟» لجورج لايفوف ورافيل نيوناز المنطلق الذي على أساسه وقع النظر في مفهوم اللاتناهي الرياضي. وقد سعى الباحثان إلى النظر في الأسس الاستعارية التي خوّلت للإنسان تمثّل مفهوم اللاتناهي من خلال دراسة مقولة المظهر اللغوي. فانطلاقاً من دراسة الخطاطات الصور خاصة ما يتعلّق منها بخطاطة التحكّم الحركي، تبين لايفوف ونيوناز الأساس الاستعاري لبنية الحدث المظهرية aspect⁽¹⁵⁾.

(14) الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفانية، دار محمد علي الحامي، تونس، الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص170.

(15) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.155-156 "The aspectual system characterizes the structure of event-concepts- evens as we conceptualize them. (..) Narayanan (1997), in a study of computational neural modeling, showed that the neural computational structure of the aspectual system is the same as that found in the motor-control system."

فمیزا بين الأفعال الانقضائية perfectif والأفعال اللانقضائية imperfectif بالاعتماد على خطاطة التحكم الحركي. «فالأفعال الانقضائية من قبيل سقط تدلّ على أحداث ذات بداية ونهاية. يحدث شيء ما، نلاحظ تغييرا ما في الوضعية الموصوفة. على سبيل المثال، (سقط) هو تغيير الموضع بصفة سريعة على امتداد المحور العمودي ومقابل ذلك، تعرض الأفعال اللانقضائية من قبيل عرف وأحبّ وضعيات مستقرة ذات مدّة غير منتهية. لا يتغيّر شيء ولا يحدث شيء. ولا يعني هذا أنّ العلاقة المعروضة غير ذات بداية ونهاية، كلّ ما يعنيه أنّ الفعل ذاته يقصيهما مما يضعه على الركح ليكون محطّ التبيّن. فيمثل بذلك فعل عرف وضعية ثابتة غير ذات نقطة نهائية في صميمها»⁽¹⁶⁾. إنّ النظر في النوعين من الأفعال على الأساس المظهري دفع الباحثين إلى تخصيص النظر في الأفعال اللانقضائية بوصفها الأكثر تعبيراً عن فكرة اللاتناهي باعتبار أنّ هذه الأفعال تدلّ على حدث دون نقطة نهاية. من هنا وقع التمييز في الأفعال اللانقضائية بين الأفعال المستمرة continuous والأفعال المتكرّرة iterative⁽¹⁷⁾. والاختلاف بين القسمين يكمن في أنّ الأفعال المتكرّرة عادة ما تفترض في كلّ مرحلة من التكرار توسّط نقطة نهاية ونتيجة⁽¹⁸⁾ أمّا الأفعال الاستمرارية فيغيب عنها ذلك. إنّ نظر نيوناز ولايكوف في هذه الأفعال قادهما إلى إيجاد إسقاط تصوريّ بين ميدان الأعمال المتكرّرة وميدان الأعمال المستمرة. إذ

(16) Ronald Langacker, Ibid, p.147 “The perfective verbs designate occurrences with a beginning and an end. Something happens – some change is observed in the situation described. For instance, to fall is to rapidly change location along the vertical axis. (...) By contrast, the imperfective verbs profile stable situations of indefinite duration. Nothing changes and, nothing happens. This is not to say that the profiled relationship has no beginning or end, only that the verb itself excludes them from what it puts onstage for focused viewing. (...) “to know” it represents a steady situation with no intrinsic endpoint.”

(التعريب عن رونالد لانفاكر، مدخل في النحو العرفي، ترجمة الأزهر الزناد، منشورات معهد تونس للترجمة، تونس، 2018، ص 244).

(17) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.156 « A process conceptualized as not having an end is called an imperfective process (...) two of the subtypes of imperfective processes are continuative and iterative »

(18) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.156 “Those that repeat and have an intermediate endpoint and an intermediate result.”

اعتبرا أنه لا يمكن أن ندرك الاستمرار دون إدراك التكرار⁽¹⁹⁾. ففعل سبح لا يحقق استمراره دون تحريك متكرر للرجلين واليدين بشكل يدفع عملية السباحة نحو استمرارها⁽²⁰⁾. إن هذا الاسقاط التصوري بين ميدان مصدر تمثله الأعمال المتكررة و ميدان هدف تمثله الأعمال المستمرة يجعلنا قادرين على تمثيل مفهوم اللاتناهي بالقوة⁽²¹⁾ فالأعمال المستمرة المتكررة مثل المشي والطيوان والسباحة قابلة للاستمرار دونما نهاية بحكم قدرتنا على تكرار العملية نفسها لعدد غير محدود من المرات. غير أن ذلك يجعل مفهوم اللاتناهي مقتصرا فقط على ما هو بالإمكان دون أن يكون متحققا بالفعل. إذ تقدر هذه الأفعال على استحضار نقطة نهاية يقف عندها تكرار العملية واستمرارها. ففعل مشى مهما طال أو قصر سينتهي بفاعل المشي إلى موضع هدف نهائي يحل فيه. لم يهتم لايكوف ونيوناز باللاتناهي بالقوة بل حاولا أيضا النظر في كيفية إدراك اللاتناهي بالفعل. وتمثل ذلك في إضافة نقطة نهاية للعمليات المتكررة والمستمرة يمثلها اللاتناهي نفسه ويكون تنمة لها⁽²²⁾. فيضمّن اللاتناهي بذلك في بنية الحدث المظهرية ليحتل فيها موضع النهاية. وهو ما سمّاه الباحثان باستعارة اللاتناهي القاعدية basic metaphor of infinity⁽²³⁾ ويمكن تمثيلها كما يلي :

(19) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.156 “Continuous processes are conceptualized as if they were iterative processes.”

(20) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.157 “Everyday continuous actions typically require iterated actions. For example, continuous swimming requires repeatedly moving the arms and legs.”

(21) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.158 “This kind of infinity we have just seen- ongoing processes or motions without end- was called potential infinity by Aristotle.”

(22) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.158 “We hypothesize that all cases of actual infinity (..) are special cases of a single general conceptual metaphor in which processes that go on indefinitely are conceptualized as having an end and an unltimate result. We call this metaphor the Basic Metaphor Of Infinity. (..) The effect of the BMI is to add a metaphorical completion to the ongoing process so that it is seen as having a result- an infinite thing.”

(23) George Lakoff and Rafael Nunez, Ibid, p.159.

الميدان المصدر	الميدان الهدف
العمليات المتكررة التامة	العمليات المتكررة المستمرة
- الوضعية المنطلق	- الوضعية المنطلق
- وضعية نتيجة من طور العملية الأولي	- وضعية نتيجة من طور العملية الأولي
- العملية: تنتج وضعية لاحقة انطلاقا من وضعية وسطى معطاة	- العملية: تنتج وضعية لاحقة انطلاقا من وضعية وسطى معطاة
- نتيجة وسطى بعد تكرار العملية	- نتيجة وسطى بعد تكرار العملية
- الوضعية النتيجة الأخيرة	- الوضعية النتيجة الأخيرة (اللاتناهي)
- الاستتباع : الوضعية النتيجة الأخيرة مميزة وتتبع كل وضعية غير متناهية	- الاستتباع : الوضعية النتيجة الأخيرة مميزة وتتبع كل وضعية غير متناهية

إنّ استعارة اللاتناهي القاعدية لا تستفيد فقط من خطاطة التحكم الحركي وإنما تستفيد كذلك من بعض الخطاطات الفضائية على غرار خطاطة الكل جزء وخطاطة الوعاء. فبفضل خطاطة الكل جزء أمكن لنا إتمام العملية غير التامة. وبفضل خطاطة الوعاء مثّلت وضعية النهاية والنتيجة حصيلة العملية المتكررة والمستمرة. فالنهاية تستوعب كل العملية غير التامة.

من هنا يصبح مفهوم اللاتناهي مفهوما مجسّدا نابعا من كيفية تصورنا للأعمال الحسية الحركية التي نستعيرها ونعتمد عليها بوصفها ميدانا مصدرا ينقلنا من التجربة الحسية الملموسة إلى التجربة الذهنية المجردة فنقدر على استنباط أكثر التصورات تجريدا والتي يمثلها بلا منازع اللاتناهي. فمن هذه الزاوية، لم يعد هذا المفهوم متّسما بالتحالي وبالبعد الميتافيزيقي بل أصبح متجذرا في التجربة البشرية باعتباره استعارة عرفانية مجسّدة يمكن أن نعتمدها في مجال الرياضيات مثلما درس ذلك لايكوف ونيوناز ويمكن أن نعتمدها في مجالات غير الرياضيات مثل مجال اللسانيات وهو ما سنسعى إلى البحث فيه من خلال النظر في كيفية استحضار هذه الاستعارة في عملية تصوّر التفضيل المطلق.

3 - علاقة اللاتناهي الاستعاري بالتفضيل المطلق:

1.3. تصوّر التفضيل نحوياً:

اهتمّ النحاة العرب بدراسة التفضيل النحويّ وذلك بالنظر في مفهومه وشروطه وأنواعه واستعمالاته. أمّا من حيث المفهوم، فيعرّف الاسترباذي التفضيل القائم على صيغة أفعل بقوله: «هو المبنيّ على أفعل لزيادة صاحبه على غيره في الفعل أي في الفعل المشتقّ هو منه.»⁽²⁴⁾ فاسم التفضيل إذن مشتقّ يبنى على وزن أفعل دال على المصدر والزيادة وهو ما يدعمه ابن يعيش بقوله: إنّ «أفعل منك» موضوع للتفضيل، وهو بمنزلة الفعل، إذ كان عبارة عنه ودالاً على المصدر والزيادة، كدلالة الفعل على المصدر والزمان»⁽²⁵⁾ بذلك يشابه اسم التفضيل الفعل في الدلالة على المصدر ويختلف عنه في التبئير على دلالة الزيادة. وهي زيادة صاحب الفعل على غيره في الفعل نفسه. لذلك افترض الاسترباذي الحاجة إلى الفاعل لقياس هذه الزيادة فيقول: «وقياسه للفاعل يعني قياسه أن يكون لتفضيل الفاعل على غيره في الفعل كأضرب أي ضارب أكثر ضرباً من سائر الضاربين.»⁽²⁶⁾ من هنا يشابه اسم التفضيل الفعل في حاجته إلى معنى الحدث ومعنى الفاعلية. فبالمصدر يقع تحديد الحدث باعتباره المشترك الذي على أساسه سيعقد به التفاضل أما الفاعل فهو البؤرة التي من خلالها تحصل المقارنة مع فاعل غيره وبها يقع الحكم على الزيادة في الحدث. بذلك يقتضي التفضيل مقارنة بين موصوفين على الأقل يشتركان في المعنى نفسه ويختلفان في زيادة أحدهما على الآخر في ذلك المعنى. وحرص النحاة على النظر في الشروط التي تلزم اسم التفضيل. من ذلك نذكر «أن يبنى من ثلاثيّ مجرد جاء منه فعل تام غير لازم للنفي متصرف قابل معناه للكثرة»⁽²⁷⁾ و«ليس بلون ولا عيب.»⁽²⁸⁾ ونفهم من هذه الشروط حرص النحاة

(24) الاسترباذي، شرح الرضيّ على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ج 3، ط 2، 1996، ص 447.

(25) ابن يعيش، شرح المفصل، دار الكتب العلمية، لبنان، ج 4، ص 129.

(26) الاسترباذي، المصدر نفسه، ص 451.

(27) الاسترباذي، المصدر نفسه، ص 448.

(28) الاسترباذي، المصدر نفسه، ص 449.

على الالتزام أولاً بالدلالة التي يحيل إليها اسم التفضيل وثانياً بتمييز اسم التفضيل عن غيره من الأسماء والمشتقات. أما بالنسبة إلى الحرص على الحفاظ على دلالة التفضيل، فيظهر من خلال اشتراط الفعل التام بدل الفعل الناقص. إذ يميّز النحاة على أساس التمام والنقصان بين الأفعال. فالأفعال التامة تدلّ على حدث مقترن بزمان محصّل أما الأفعال الناقصة فهي تدلّ على الزمان دون دلالتها على الحدث. وباعتبار أن أساس المقارنة بين الشيئين المتفاضلين يكمن في معنى الحدث كان اشتراط الفعل التام ضرورياً حتى يحافظ بذلك على دلالة التفضيل على الحدث. ويظهر هذا الحرص أيضاً من خلال التنصيص على قابليّة معنى الفعل التام للدلالة على الكثرة. يقول الاستربادي: «وقولنا قابل معناه للكثرة، احتراز عن نحو: غربت الشمس وطلعت، فإنّه لا يقال: الشمس اليوم أغرب منها أمس ولا أطلع.»⁽²⁹⁾ إنّ الإشارة إلى معنى الكثرة يفسّر حاجة النحاة إلى إيجاد الأساس الذي من خلاله يحصل معنى الزيادة في اسم التفضيل. فميدان الكثرة ضروريّ لقياس الزيادة في المعنى الحدثي بين الشيئين المتفاضلين. لكنّ المثال الذي يقدّمه الاستربادي قد لا يستقيم إن كنّا في نص أدبيّ متخيّل يفترض فيه مؤلفه عالماً يتكوّن من شمسين فيقدر على المفاضلة بينهما فيقول هذه الشمس أطلع من الأخرى.⁽³⁰⁾ ومن هنا نشير إلى أن معنى الكثرة لازم للمصدر. فبالمصدر ضرب تشير إلى مختلف أنواع الضرب الممكنة وهو ما يستلزم بالضرورة معنى الكثرة⁽³¹⁾.

أما من جهة الحرص على تمييز اسم التفضيل عن غيره من الأسماء والمشتقات، فيظهر أولاً من خلال اشتراط اشتقاقه من الفعل احترازا من الأسماء التي يمكن أن تشابه اسم التفضيل في وزن أفعال خاصة ما يتعلّق منها بأسماء الجموع من قبيل أرجل وأذرع. ويظهر ثانياً من خلال اشتراط عدم دلالة التفضيل على معنى اللون والعيب وذلك لتمييزه عن الصفة المشبّهة. يقول الاستربادي: «إنما لم يبين من

(29) الاستربادي، المصدر نفسه، ص 449.

(30) لمزيد تعميق النظر في علاقة التفضيل بالكميّة، راجع توفيق قريرة، المرجع نفسه، ص-168 169.

(31) نستفيد معنى الكثرة من المصدر من خلال قول ابن جني في الخصائص: «ألا ترى أنّ الفعل يفاد منه معنى الجنسية، فقولك: قام زيد، معناه: كان منه القيام، أي الجنس من الفعل، والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتي الكائنات من كلّ من وجد منه القيام.» ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ج 2، ص 450.

باب الألوان والعيوب، لأنّه جاء منهما أفعل من غير اعتبار الزيادة على غيره فلو بني منهما أفعل التفضيل لالتبس أحدهما بالآخر.⁽³²⁾ فالصفات المشبهة التي ترد على وزن أفعل لا تدلّ على معنى الزيادة على غيرها. فعندما أقول هذا الثوب أحمر أو هذا الرجل أصلع اكتفيت بالدلالة على معنى الصفة ولم أشر إلى معنى الزيادة. ولئن كان هذا التعليل يستقيم مع هذين المثالين فإنّه قد لا يستقيم في هذين المثالين الآتي ذكرهما. هذا الثوب أحمر من ذاك وهذا الرجل أصلع من جارنا. ففي المثالين تلوح دلالة المفاضلة خاصة ما يتعلّق منها بمعنى الزيادة على الغير في الصفة.⁽³³⁾ من هنا نذهب إلى أن الاستعمال يبقى المحدّد الذي على أساسه يقع التمييز بين الصفة المشبهة واسم التفضيل استنادا إلى معنى الزيادة على غير أو غيابه.

نتبيّن إذن أنّ هذه الشروط تدعم دلالة اسم التفضيل على المصدر والزيادة على الغير. واستنادا إلى ذلك حاول النحاة التمييز بين نوعين من التفضيل وهما التفضيل القائم على المقارنة والتفضيل المطلق اللذين يظهران في الاستعمال «على أحد ثلاثة أوجه: مضافا أو بمن أو معرّفا باللام». ⁽³⁴⁾ فأما تفضيل المقارنة فيحصل من خلال عبارة أفعل من كذا. ومن خلالها يميّز بين المفضّل والمفضّل عليه ففي قولنا المنزل أطول من السور كان المفضّل هو المنزل والسور مفضّلا عليه وكان أساس المفاضلة معنى الطول واختلف المتفاضلان في زيادة معنى الطول. إنّ تفضيل المقارنة يحتاج إذن إلى غيره لتمام عمليّة التفضيل. فلا معنى للمفاضلة دور المقارنة مع الغير. فيكون إذن مقدار الزيادة في المعنى مقيدا بذلك الغير فهي مفاضلة نسبيّة بين شيئين يختلفان في زيادة معيّنة في ذلك المعنى.

أما التفضيل المطلق فيتمثّل في الإحالة على «زيادة مطلقة أي يقصد تفضيل المفضّل على كل من سواه مطلقا». ⁽³⁵⁾ من هنا نفهم أن الزيادة المطلقة تقاس بالمقارنة بغير مطلق. ويحصل ذلك نحويا من خلال الإضافة أو من خلال المعرّف

(32) الأسترباذي، المصدر نفسه، ص 449.

(33) لمزيد النظر في علاقة التفضيل بالصفة المشبهة، راجع توفيق قريرة، المرجع نفسه، ص-170 169.

(34) الأسترباذي، المصدر نفسه، ص 452.

(35) الأسترباذي، المصدر نفسه، ص 457.

بالألف واللام. فقولنا زيد أذكى قومه فيه تفضيل مطلق لزيد على كل قومه. كذلك قولنا زيد الأذكى فيه تفضيل مطلق لزيد على كل من سواه.
من هذا المنطلق سنحاول أن نتبين علاقة التفضيل باللاتناهي الاستعاري.

2.3. اللاتناهي والتفضيل المطلق:

انطلاقاً من تعريف النحاة للتفضيل، نتبين وجود عملية مقارنة بين شيئين من خلالها يقع الحكم على زيادة أحد أطراف المقارنة عن غيره في المعنى نفسه. وتعدّ المقارنة «معالجة عرفانية أساسية لبناء تجاربنا اليومية فلنا القدرة على مجابهة وضعيتين لتسجيل الفوارق بينهما»⁽³⁶⁾ ويفترض لتفاكر وجود خطاطة قادرة على صوغ المقارنات يختزلها في مجموعة من المكونات الدنيا. «فقوام المقارنة وجود نمط يمثل النقطة المرجعية التي بها تبدأ المقارنة ووجود هدف يقيم على أساس النمط. والمقارنة بين النقطة المرجعية والنقطة الهدف يتم عن طريق عملية المسح التي يرمز لها لتفاكر بهذه العلامة (<). ويحدّد المسح اتجاه المقارنة الذي يحصل عادة انطلاقاً من النمط وصولاً إلى الهدف»⁽³⁷⁾ ويمكن أن نطبق خطاطة المقارنة على هذا المثال : الشجرة أطول من الوردة. فالشجرة هي النقطة المرجعية النمط (ن) أمّا الوردة فهي النقطة الهدف (ه) واستناداً إلى الأساس المشترك بين النمط والهدف المتمثل في معنى الطول يلوح الاختلاف في درجة زيادة الطول بين ن وه وجهها. فأرضية المقارنة هي المشترك الحدتيّ أما الوجه فهو الاختلاف في زيادة معنى الطول بين ن وه. ويحدّد المسح اتجاه المقارنة فنحن ننطلق من الشجرة لمقارنتها مع الوردة ونصدر حكماً في درجة

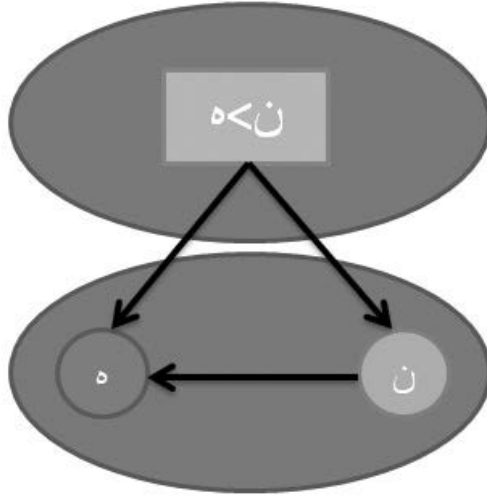
(36) توفيق قريّة، المرجع نفسه، ص 165.

(37) Ronald Langacker, *Foundations of grammar, vol1 theoretical prerequisites*, standard university press, California, 1987, p.102 « We can isolate three functional components required for any act of comparison. Such an act has the general schematic from $S > T$, where S can be called the standard of comparison and T the target. As these terms imply, the relation is asymmetrical: the standard serves as a baseline event or point of reference, relative to which the target is evaluated. The operation connecting them, $>$, will be called scanning. The term scanning reflects the directionality of the operation: there is in some sense a movement from S to T, with the value of T depending on its degree of departure from S.»

زيادة الطول في مقارنتها بالوردة. وعلى هذا الأساس، نتوصل إلى نتيجة مفادها أن الشجرة أطول من الوردة ويمكن أن نمثلها كآتي:

الشجرة > الوردة

أو يمكن تمثيلها أيضا من خلال هذا الرسم البياني:



تمثل الدوائر الزرقاء في هذا الرسم أرضية المقارنة وتتمثل الأرضية في المعنى المشترك بين المتفاضلين. في الأرضية السفلى يلوح النمط والهدف وجهين ويكون السهم الأفقي مشيرا إلى اتجاه المسح أما في الأرضية العليا فتلوح المفاضلة وجهها ويشير السهمان النازلان إلى علاقة المفاضلة بين النمط والهدف. فلم نعد بعد التعرف على نوع المقارنة أي المفاضلة نتحدث عن نمط وهدف فحسب إنما هما مفضل ومفضل عليه. والتعامل معهما على هذا الأساس لا يحصل إلا عند التعرف على نتيجة المقارنة.

إنّ هذا الرسم يمثل الأساس الذي يجري عليه تفضيل المقارنة. ويستدعي تفضيل المقارنة الخطاطات الفضائية وخطاطة التحكم الحركي. فتستدعي خطاطة مصدر مسلك هدف وخطاطة الوجه والأرضية وتستدعي كذلك خطاطة التحكم الحركي. ومن خلال خطاطة التحكم الحركي تستدعي بنية العملية التامة فهي عملية محدودة من وضع بداية يتمثل في النمط ووضع نهاية يتمثل في الهدف

ونتيجة تتمثل في علاقة المفاضلة بين المفضل والمفضل عليه. غير أن علاقة التفضيل قابلة للتعاود والمواصلة إذ يمكن لنقطة النهاية أن تصير بدورها نقطة مرجعية على أساسها يتجه المسح نحو نقطة هدف تنتج مفاضلة جديدة. على هذا الأساس يقبل التفضيل التكرار والاستمرار. وهي عملية قد تكون متناهية عندما يستمر التكرار إلى نقطة نهاية ما وقد تكون غير متناهية عندما يستمر التكرار دون بلوغ موضع نهاية. من هنا، يمكن أن تقارن النقطة المرجعية مع ما لا يتناهي من النقاط الأهداف فتصبح المقارنة مقارنة مطلقة.

هكذا يمكن أن يلوح الفرق بين التفضيل المقيد والتفضيل المطلق. فالتفضيل المقيد يقوم أساسا على استعارة بنية العملية التامة في تصوّر مقارنة تامة أما التفضيل المطلق فهو يحتاج إلى استعارة اللاتناهي القاعدية لبناء مقارنة مطلقة طالما أن العملية متكررة ومستمرة دونما نهاية ويمكن أن نمثل التفضيل المطلق استعاريا مثلما يلي:

الميدان المصدر العمليات المتكررة والمستمرة	الميدان الهدف : التفضيل المطلق
الوضعية المنطلق	مقارنة نقطة مرجعية (أ) مع نقطة هدف (ب)
وضعية نتيجة من طور العملية الأولي	إقرار علاقة التفضيل بين (أ) و (ب) بشكل تكون فيه (أ) في منزلة المفضل و (ب) في منزلة المفضل عليه
العملية: تنتج وضعية لاحقة انطلاقا من وضعية وسطى معطاة	تعدية علاقة التفضيل من مقارنة إلى أخرى من خلال تحويل النقطة الهدف إلى نقطة مرجعية تقيم مقارنة مع نقطة هدف أخرى : إن كان (أ) أفضل من (ب) و (ب) أفضل من (ج) فإن (أ) أفضل من (ب) و (ج)
نتيجة وسطى بعد تكرار العملية	ظهور نقاط أهداف متكررة تستمر من خلالها علاقة التفضيل بشكل تكون فيها (أ) أفضل من النقاط الأهداف المتكررة والمستمرة (نقاط أهداف لامتناهية بالقوة)

هكذا يفترض تفضيل النقطة المرجعية تفضيلاً مطلقاً وجود نقاط أهداف لامتناهية بالقوة على أساسها يقع الحكم على أفضلية المفضل على سائر المفضلين بإطلاق.

إنّ التعبير عن التفضيل المطلق يقبل التحقق من خلال التفضيل عن طريق المعرف بالألف واللام أو التفضيل عن طريق الإضافة أو التفضيل عن طريق من. ويمكن أن نتبين ذلك من خلال هذه الأمثلة:

• بطلنا هو الأقوى

• الله أكبر

• الملك أفضل الناس

في المثال الأول، يعبر المتكلم عن اعتقاده في أنّ البطل الأقوى بإطلاق فهو أزيد في القوة عن كلّ من سواه. فبدل مواصلة مقارنة القوة مع كل نظراء البطل، يقتصد المتكلم ويتمّ عملية المقارنة المتكررة والمستمرة بجعل البطل في منزلة الأقوى بصورة مطلقة. إنّ المثال الأول هو مثال طرازي للتفضيل المطلق.

أما المثال الثاني والثالث فهما يندرجان أيضاً في التفضيل المطلق لكنهما يثيران بعض الإشكاليات. بالنسبة إلى المثال الثاني، اعتبر النحاة أنّ الجملة قائمة على حذف المفضل عليه وهو إما حذف للمضاف إليه أو حذف لمن مع مجرور. فافترض الأسترباذي أنّ أصل الجملة إمّا الله أكبر كلّ شيء أو الله أكبر من كلّ شيء. يقول الأسترباذي: «ويجوز أن يقال في مثل هذه المواضع: إنّ المحذوف هو المضاف إليه، أي أكبر كلّ شيء (..) ويجوز أن يقال: إنّ «من مع مجرور محذوف أي أكبر من كلّ شيء»⁽³⁸⁾ إنّ المفضل عليه المحذوف «كلّ شيء» يمثل في نظرنا المفضل عليه اللامتناهي. فعبرة كلّ شيء على قدر عال من التجريد بما يمكنها من الإحالة إلى هذا الغير المطلق الذي معه تعقد المقارنة.

إنّ اللجوء إلى الحذف يندرج في هذا المثال في إطار بلاغة الصمت. فالصمت قادر على الإحالة على كلّ شيء ممكن في جملة الله أكبر بشكل يمكن للمتكلم أن يتصور المفضل عليه ممثلاً في الوجود كلّ فيقع العدول عن التصريح وتجنب

(38) الأسترباذي، المصدر نفسه، ص 453.

التزيّد في اللفظ والتماس الاقتصاد في القول فيكون ما قلّ ودلّ خير وسيلة يحيل بها المتكلّم إلى مفضّل عليه مطلق أو قد يعبرّ الحذف عن اعتقاد المتكلّم في عجز الكلام عن الإحاطة بالمطلق فيكون الصمت أقدر على تملّك اللامتناهي وبالصمت يصبح المفضّل عليه المحذوف كلّ شيء ممكن أو قد يعبرّ الحذف كذلك عن وعي المتكلّم بمعنى المطلق المتعلّق بالتجرّد من كلّ قيد وهو ما تحقّق نحويًا من خلال التدرّج في الحذف. فمن خلال حذف «من» من جملة الله أكبر من كلّ شيء تجرّد المتكلّم من معنى المقارنة التفضيلية⁽³⁹⁾ فتحولنا إلى التفضيل عن طريق الإضافة ومن خلال حذف «كل شيء» استغنى المتكلّم عن هدف المقارنة واكتفى بالمفضّل (الله) وبأفعل التفضيل مجرّدة من كلّ مفضّل عليه والتي أفادت معنى الزيادة الحديثة المطلقة. فكان الحذف معبرًا عن معنى التجرّد من كل قيد وكلّما كان التدرّج في الحذف أكثر كان التعبير عن درجة الإطلاق أقوى. من هنا لا نتحدّث من هذا المنظور عن استرسال من التفضيل المقيّد إلى التفضيل المطلق الذي تنشؤه استعارة اللاتناهي القاعدية فقط وإنما يمكن الحديث أيضا عن استرسال في درجات الإطلاق من أدنى الدرجات إلى أقصى الدرجات التي تعبّر عنها بلاغة الصمت.

إنّ التدرّج في الإطلاق يمكن أن يلوح أيضا في المثال الثالث. فهذا المثال يتنزّل في إطار التفضيل عن طريق الإضافة ويعبرّ عن التفضيل المطلق غير أنّ هذه الإطلاقية محدودة بالناس. وقد اعتبر النحاة أن معنى الإضافة هو التخصيص والتوضيح. يقول الأسترباذي: «وإنما تضيفه إلى شيء لمجرّد التخصيص والتوضيح»⁽⁴⁰⁾ ويميّز الأسترباذي بين التخصيص والتوضيح: «معنى التخصيص في اصطلاحهم تقليل الاشتراك الحاصل في النكرات وذلك أنّ رجلا في قولك جاءني رجل صالح كان- بوضع الواضع- محتملا لكلّ فرد من أفراد هذا النوع، فلما قلت: صالح قلّلت الاشتراك والاحتمال. ومعنى التوضيح عندهم رفع الاشتراك الحاصل في المعارف أعلاما كانت أو لا نحو زيد العالم والرجل

(39) الأسترباذي، المصدر نفسه، ص 454.

(40) الأسترباذي، المصدر نفسه، ص 457.

الفاضل». ⁽⁴¹⁾ ولا عجب في استحضار معنى التخصيص والتوضيح أثناء الحديث عن التفضيل المطلق فابن الحاجب يعرّف المطلق بوصفه «ما كان شائعا في جنسه». وما كان شائعا يفترض تخصيصا وتوضيحا. فعندما أقول: الملك أفضل بشر أخصّص وعندما أقول الملك أفضل البشر أوضح. والتخصيص والتوضيح درجات يتدرّج بها الإطلاق. فالملك أفضل بشر أقلّ إطلاقيّة من الملك أفضل كائن وأكثر إطلاقيّة من الملك أفضل سائس. فتخصيص المطلق يختلف حسب درجة تجريد المضاف إليه فكائن أكثر تجريدا من بشر وبشر أكثر تجريدا من سائس. ولئن يرتبط التخصيص بالنكرات فإنّ التوضيح يرتبط بالمعارف. وتختلف درجات توضيح المطلق باعتبار درجة تعريف ما أضيف إليه. يقول ابن يعيش: «وأما المضاف، فيعتبر أمره بما يضاف إليه، فحكم المضاف حكم المضاف إليه، فما أضيف إلى المضمّر أعرف ممّا أضيف إلى العلم، وما أضيف إلى العلم أعرف ممّا أضيف إلى المبهّم، وما أضيف إلى المبهّم أعرف ممّا أضيف إلى ما فيه الألف واللام». ⁽⁴²⁾ على هذا الأساس نتبيّن أن التفضيل المطلق يحتمل استرسالا من أدنى درجات الإطلاق إلى أقصى درجات الإطلاق وما يضمن هذا الاسترسال هو تدرّج المفضّل عليه من أقصى درجات التعيّن إلى أقصى درجات التجريد.

من هنا نستنتج الأساس المجسّد الكامن وراء تصوّر التفضيل الذي يستفيد من الخطاطات الصور ومن الاستعارة التصويريّة لبناء مفهوم تفضيل المقارنة والتفضيل المطلق. وتعتبر استعارة اللاتناهي القاعدية خير دليل على هذا الأساس المجسّد في تصوّر هذا الكيان النحويّ المجرّد. إذ تندخل هذه الاستعارة في مقولة التفضيل المطلق فيصبح للاتناهي العرفاني بذلك هيئة نحوية متعيّنة حينما تستثمر هذه الاستعارة من ميدان النحو عموما ومن ميدان التفضيل النحويّ خصوصا مواردها التصويريّة.

(41) الأسترباذي، المصدر نفسه، ج 2، ص 287.

(42) ابن يعيش، المصدر نفسه، ج 3، ص 351.

الخاتمة:

يمكن أن نتيّن في ختام هذا المقال أنّ تصوّر اللاتناهي يتدرّج من المجرّد إلى المتعيّن. إذ يظهر في أقصى مستويات التجريد في صورة استعارة اللاتناهي القاعدية التي تستفيد من الخطاطات الصور المجسّدة ويظهر في مستويات أقلّ تجريدا حينما يلوح في كيانات نحوية متعيّنة على غرار التفضيل المطلق. هكذا يتماثل اللاتناهي العرفانيّ والتفضيل المطلق في الأسس الاستعارية المجسّدة نفسها ويختلفان في درجة التجريد.

إنّ تعيّن استعارة اللاتناهي نحويا من خلال التفضيل المطلق يمكن أن يوسّع النظر في دور هذه الاستعارة في مقولة الكيانات النحوية عموما ودورها في بناء كون نحويّ مسترسل. وهو ما يسمح لنا بالتساؤل عن مدى تدخّل اللاتناهي العرفاني في تشكيل النظام النحوي؟

المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربي:

- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، 3 أجزاء، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، دت.
- الاستربادي، محمد بن الحسن الرضي، شرح الرضي على الكافية، 4 أجزاء، تحقيق يوسف حسن عمر، بنغازي، منشورات جامعة قان يونس، ط2، 1996.
- ابن يعيش، أبو البقاء موفّق الدين، شرح المفصل، 6 أجزاء، لبنان، دار الكتب العلميّة، ط1، 2001.

المصادر باللغة الإنجليزي:

- Johnson, Mark, The body in the mind: the bodily basis of meaning, imagination, and reason, Chicago and London, The University of Chicago Press, 1987.
- Lakoff George and Johnson Mark, Philosophy in the flesh: the embodied mind and its challenge to western thought, New York, Basic Books, 1999.
- Lakoff George and Nunez Rafael, Where mathematics comes from: how the embodied mind brings mathematics into being, New York, Basic Books, 2000.
- Langacker Ronald, Foundations of cognitive grammar (vol1: Theoretical Prerequisites), Stanford California, Stanford University Press, 1987.
- Narayanan, Srinivas Sabkara, A dissertation submitted in partial satisfaction of the requirement for the degree of doctor of philosophy: knowledge-based action representations for metaphor and aspect, Berkeley, University of California, 1997.

المراجع باللسان العربي:

- البوعمراني، محمد الصالح، السيميائية العرفانية الاستعاري والثقافي، تونس، مركز النشر الجامعي، 2015.
- الزناد، الأزهر، نظريات لسانية عرفانية، تونس، دار محمد علي الحامي، بيروت، الدار العربية للعلوم، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2010.
- قريرة، توفيق، الاسم والاسمية والإسماء في اللغة العربية مقارنة نحوية عرفانية، صفاقس، مكتبة قرطاج للنشر والتوزيع، 2011.
- لانفاكر، رونالد، مدخل في النحو العرفاني، ترجمة الأزهر الزناد، تونس، معهد تونس للترجمة، 2018.

قراءة في مساهمة اللسانيين في تطوير تعليمية اللغة العربية

أ.د. محمد عبد الله محمد الشيخ

المعهد العالي المهني للغات وللترجمة والترجمة الفورية
(ISPLTI) - موريتانيا

الملخص:

تعليمية اللغة العربية مشغل قديم متجدد، حظي باهتمام كبير عند الأولين والآخرين، انطلاقاً من كون العربية آلة فهم الوحي، ومفتاح نيل العلوم، فضلاً عن كونها -مثل كل اللغات- وسيلة التعبير والتواصل، التي لا غنى عنها في الحياة اليومية للناس، وفي مسار بناء الحضارة.

وفي هذا السياق تروم هذه الورقة تقديم قراءة موجزة في البحث اللساني العربي الحديث، في شقه المتعلق بتطوير هذه التعليمية، ويتعلق الأمر أساساً بحقلي اللسانيات البارزين في هذا المنحى: اللسانيات التطبيقية، واللسانيات العرفانية، والغرض من ذلك يتحدد في إثارة السؤال عن أهم فرص استثمار الفكر اللساني الحديث في نشر اللغة والثقافة العربية في عصر العولمة والتواصل الحضاري العابر للحدود.

وتكاد تكون الملاحظة الأهم هنا هي التي تتعلق بمركزية مسألة تعليم اللغة وكيفية اكتسابها في الفكر اللساني عموماً، لدرجة أنها كانت سبباً في التمايز والتفريق بين مدارس لسانية كبيرة، كما حصل بين «البنوية» و«التوليدية»، ومن شأن استثمار ما أثمرته هذه المركزية من نظريات ومناهج أن يسهم في تطوير تعليمية اللغة العربية، ويغير ما بها من ضعف وركود، حتى تتحفز طاقات الأمة الكامنة، وتقطع بلغتها أشواطاً نحو السيادة والريادة والنهوض الحضاري الشامل.

الكلمات المفتاح: تعليمية، العربية، اللسانيات، اللسانيات التطبيقية، اللسانيات العرفانية.

Abstract:

Didactic the Arabic language is an old, renewed workshop, which received great attention from the first and the last learners, based on the fact that Arabic is a machine for understanding the Quran, and the key to acquiring sciences, as well as being - like all languages - a tool of expression and communication, which is indispensable in people's daily lives, and in the path of building Civilization.

In this context, this paper aims to provide a brief reading in the modern Arabic Linguistic research, in its part related to the development of this educational, and it is mainly related to the two prominent linguistics fields in this direction: Applied Linguistics, and Cognitive Linguistics, and the purpose of this is determined in raising the question about the most important opportunities for investment of The modern linguistic thought in spreading Arabic language and culture in the era of globalization and cross-border cultural communication.

And almost the most important observation here is the one related to the centrality of the issue of Didactic of language and how to acquire it in linguistic thought in general, to the extent that it was a cause of differentiation and differentiation between large linguistic schools, as happened between "structuralism" and "generative." Theories and curricula to contribute to the development of the teaching of the Arabic language, and to change the weakness and stagnation in it, in order to stimulate the latent energies of the nation, and make strides with its language towards sovereignty, leadership and comprehensive civilizational advancement.

Keywords : Didactic, Arabic, Linguistics, Applied Linguistics, Cognitive.

المقدمة:

حظي منهج تعليم اللغة العربية باهتمام كبير من علمائها الأولين والآخرين، انطلاقاً من كونها آلة فهم الوحي، ومفتاح نيل العلوم، فضلاً عن كونها - مثل كل اللغات - وسيلة التعبير والتواصل، التي لا غنى عنها في الحياة اليومية للناس، وفي مسار بناء الحضارة.

وفي هذا السياق تروم هذه الورقة تقديم قراءة موجزة في البحث اللساني العربي الحديث، في شقه المتعلق بتطوير تعليمية اللغة العربية، من خلال الأفكار والنظريات الحديثة في اللسانيات، وذلك في حدود ما تيسر الاطلاع عليه من اهتمامات المشتغلين بفرعي هذا العلم البارزين في هذا المنحى: اللسانيات التطبيقية، واللسانيات العرفانية، وسيكون الغرض من وراء ذلك السؤال عن أهم فرص استثمار الفكر اللساني الحديث في نشر اللغة والثقافة العربية في عصر العولمة والتواصل الحضاري العابر للحدود.

وإذا تجاوزنا - مراعاة للمقام - المداخل النظرية للموضوع، فإن الحقيقة البارزة في هذا الموضوع، التي نطق بها جمهور المشتغلين به هي أن «تعليم اللغة الآن علم له أصوله وله مناهجه، التي أفضت إليها جهود متتابعة من البحث الدائب عند الأمم المتقدمة..⁽¹⁾»، والذي يلح المختصون على الحاجة إليه في هذا السياق هو ضرورة استثمار ذلك في تطوير تعليمية اللغة العربية لأبنائها وغيرهم، استثمارا واعيا لا يلغي القديم وإنما يطوره بما يواكب الجديد، ويجسر الهوة الكبيرة الملاحظة بين المنجز اللساني العربي التأصيلي وبين استثمار هذا المنجز في إيجاد حلول ناجعة لمشكلات كثيرة في مقدماتها تطوير تعليمية اللغة العربية.

ولاعتبارات منهجية سينقسم الحديث في هذا إلى محاور أربعة: الأول منها مدخل للموضوع، والثاني مسالة لدور اللسانيات التطبيقية فيه، والثالث حول اللسانيات العرفانية.. والأخير هو خاتمة المقال في فرص وتحديات استثمار هذه العلوم والمناهج في السياق العربي.

أولا: مدخل إلى تعليمية اللغة العربية في اللسانيات: يتحدد مفهوم التعليمية في «مجموعة الجهود والنشاطات المنظمة والهادفة إلى مساعدة المتعلم على تفعيل قدراته وموارده في العمل على تحصيل المعارف والمكتسبات والمهارات والكفايات وعلى استثمارها في تلبية الوضعيات الحياتية المتنوعة⁽²⁾»، فكلما يتعلق بمنهجية التدريس، وطريقة التعليم وتنظيم العلاقة بين المتعلم والمعلم،

(1) عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، ص 2 بتصرف.

(2) أنطوان صياح، تعليمية اللغة العربية، ج 1، ص 2.

وتمكن كل منهما من أداء دوره بكفاءة، وإعداد المحتوى التعليمي المنهجي الذي يفى بالغرض.. كل هذا داخل في هذا المفهوم، العابر للتخصصات. أما اللغة العربية التي يتعلق الحديث هنا بتعليميتها، فهي واحدة من أقدم وأهم اللغات، التي تنتمي إلى مجموعة اللغات السامية، وتعد «أكثر لغات هذه المجموعة متحدثين، وإحدى أكثر اللغات انتشارا في العالم، حيث يتحدث بها اليوم أكثر من 400 مليون نسمة...»⁽³⁾، فضلا عن ارتباطها الوثيق بدين الإسلام، وما لذلك من رمزية تاريخية وواقعية.

إن الاهتمام بتعليم هذه اللغة ذو نسب عريق ممتد عبر قرون من البحث والدراسة، «فمنذ القرن الهجري الثاني والعلماء يتلاحقون واحدا في إثر واحد يدرسون جانبا من العربية في الأصوات وفي الصرف وفي النحو وفي المعجم، فتكون لدينا هذا التراث الضخم في وصف العربية»⁽⁴⁾، وهذا التراث الضخم تضمن كثيرا من المتون التعليمية التي وضعت لغرض تقريب قواعد هذه اللغة من طلابها، وإكسابهم مهارة النطق بها على وفق سنن العرب الأوائل... ثم لم يزل هذا الاهتمام بتعليمية اللغة العربية آخذا في التطور على إيقاع تقليدي مألوف، يستقي من هذه المتون وشروحها وحواشيها مادته.. حتى جاء العصر الحديث، واتصل الشمال بالجنوب والشرق بالغرب، ووصلت إلى أيدي دارسي ومدرسي العربية نتائج ما كانت تموج به حلقات الدرس والبحث في الغرب من علوم ومناهج ونظريات تُدرّس اللغة نفسها أولا، وتدرس ثانيا كيفية تعليمها وتعلمها.

وهكذا ظهرت اللسانيات في الفضاء العربي، صدى لظهورها وتطورها في الغرب، كعلم يدرس اللغة لذاتها دراسة علمية موضوعية، وظهر في هذا الاتجاه وتمايز تياران بارزان، يهتم الأول منهما بوصف اللغات وإبراز ما يميز كل لغة عن اللغات الأخرى، بينما ينصرف الثاني إلى دراسة كيفية اشتغال ملكة اللغة، باعتبارها خاصية إنسانية فريدة عابرة للفوارق، ثم تمايز أنصار هذا الاتجاه واختلّفوا في تحديد ما الذي تشترك فيه جميع اللغات..؟ فبرز في الستينيات تيار «توليدي» يرى أن المشترك بين اللغات هو اعتبار اللغة نظاما من القواعد، وظهر

(3) غالب المطليبي: اللغة العربية (مبادئ وتطبيقات)، ص 225 بتصرف.

(4) الراجحي، المرجع السابق، ص 87.

امتدادا له تيار ثان في الثمانينيات رأى أن المشترك بين اللغات يتمثل في العمليات الذهنية العرفانية المؤسسة لجميع الأبنية اللغوية⁽⁵⁾.

ومن جراء هذا التباين في الأسس النظرية والمنهجية المفسرة للظاهرة اللغوية ككل، فقد تأثرت رؤية كل فريق لمسألة تعليمية اللغة، وتمايز تبعاً لذلك داخل المقاربة اللسانية لتعليم اللغة منهجان؛ «أحدهما سلوكي استقرائي يهدف إلى ترسيخ «العادات» اللغوية استعانة بالعوامل الخارجية، وثانيهما عقلي استدلال يهدف إلى تقوية «القدرة» اللغوية للإنسان عبر تمكينه من وسائل الاستدلال الصحيح بإشراكه إشراكاً فعلياً في «إنتاج» اللغة لا «محاكاة» ما يتلقاه منها»⁽⁶⁾.

وقد وجدت لهذه التيارات كلها أصداء في الفضاء العربي، سعى أصحابها إلى استثمار ما وصل إلى أيديهم من هذا العلم اللساني الحديث، لتطوير اللغة العربية وتطوير تعليميتها، وإكسابها صفة المرونة والتكيف مع متغيرات العصر، إلى جانب صفات الأصالة والرسوخ المتأصلة فيها، وهكذا كانت «جهود بعض اللسانيين العرب من أمثال إبراهيم أنيس، وتمام حسان، ومحمود السعران... وغيرهم، كانت جهود هؤلاء من أبرز الجهود وأوفرها إسهاماً في صياغة الخطاب اللساني العربي الحديث⁽⁷⁾»، وتوالت على منوالهم الدراسات والأبحاث المعتمدة على مناهج ونظريات هذا العلم الحديث في تقديم دراسات تصف مختلف مستويات اللغة العربية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وتقترح سبل مواكبتها للتطور الحاصل على مستوى هذا العلم الحديث، وكيفية تطوير مناهج تعليمها وطرائق اكتسابها في ضوء ذلك، على نحو ما سنرى في السطور التالية.

ثانياً: تطوير تعليمية العربية باللسانيات التطبيقية: يمثل حقل اللسانيات التطبيقية: Applied Linguistics فرعاً من فروع البحث اللساني «أخذ يخط ملامح وجوده في النصف الثاني من القرن العشرين خاصة في إنجلترا والولايات المتحدة مع الاهتمام بتدريس اللغة الإنجليزية لغة منشأ أو لغة أجنبية، استجابة

(5) ينظر على سبيل المثال: عبد السلام لمسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 111 وما بعدها.

(6) الراجحي، مرجع سابق، ص 28 بتصرف.

(7) فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ص 9 بتصرف

لحاجة التفتح على العالم..⁽⁸⁾، وقد أخذ مجاله وتعريفه بعدا عائما غير محدد يأخذ أبعادا اجتماعية ونفسية شتى.. لكن «مجالا واحدا يكاد يغلب على هذا العلم، وهو مجال تعليم اللغة.. باعتبارها لغة أولى أو لغة أجنبية⁽⁹⁾»، وقد تميز هذا المنحى من البحث اللساني بأنه «يستثمر نتائج علوم كثيرة تتصل باللغة من جهة ما؛ لأنه يدرك أن تعليم اللغة يخضع لعوامل كثيرة؛ لغوية، ونفسية، واجتماعية، وتربوية⁽¹⁰⁾»، ونتيجة لهذه الصلة الوثيقة بين هذا الفرع من اللسانيات وبين دراسة تعليم اللغات «فقد اقترح بعض الدارسين تسميته الدراسة العلمية لتعليم اللغة الأجنبية، أو علم تعليم اللغة، أو علم اللغة التعليمي⁽¹¹⁾».

هذا ومن أبرز المداخل النظرية التي ينطلق منها القول في تعليمية اللغة عند اللسانيين، تفريقهم بين اللغة الأم واللغة الأجنبية، وتحديد هم للفرق الجوهرى بينهما في أن الأولى «جزء من نمو الطفل ونضجه المعرفي والوجداني.. وتعلمها يكون في ظروف طبيعية يتماشى وسلوكه الاعتيادي، أما الأجنبية فتعلمها قائم على البرمجة المسبقة في سن تالية لاكتساب اللغة القومية، وكذلك يفرق بينهما باعتبار عامل الصعوبة البارز في تعلم اللغة الأجنبية، على خلاف اللغة القومية التي لا يكاد الطفل يجد فيها صعوبة لقربها عادة من اللسان الدارج..⁽¹²⁾»، وإذا كان من شأن هذا التمييز أن يؤثر في اختيار المحتوى التعليمي، وفي اعتماد منهج التعليم، وتحديد طريقة تحليل وتقييم استفادة المتعلم، فإنه يطرح إشكالا بالنسبة لتعليم اللغة العربية، «فالطفل العربي لا يخرج إلى محيطه ليلتقط لغة فصيحة متداولة في الأفواه بنفس الكيفية التي يخرج بها الطفل الفرنسي إلى محيطه أو الطفل الإنجليزي..⁽¹³⁾»، ومن المعلوم أنه «كلما بعدت لغة الاستعمال عن اللغة المدرسة أطلت العوائق والتحديات برأسها، بين المتعلم وموضوع المعرفة، لأنه يتعلم ما لا يستعمله، وهو ما تعانيه العربية ويعانيه متعلموها⁽¹⁴⁾»، لكن الطفل

(8) نوري سعودي أبوزيد، محاضرات في اللسانيات التطبيقية، ص 23.

(9) الراجحي، مرجع سابق ص 9-10.

(10) نفسه، ص 2.

(11) أبوزيد، مرجع سابق، ص 23-24.

(12) أبوزيد، مرجع سابق ص 118، بتصرف.

(13) عبد القادر الفاسي الفهري، المعجم العربي نماذج تحليلية جديدة، ص 20-21 بتصرف.

(14) أبوزيد، مرجع سابق ص 104 بتصرف.

العربي - رغم ذلك - «لا يتعلم الفصحى بنفس المعنى الذي يتعلم به لغة أجنبية ثانية، بل إن الملكة التي يكونها في عاميته كثيرا ما تمثل جزءا مهما من الملكة التي سيكونها في الفصيحة⁽¹⁵⁾»، ويبقى الإشكال هنا مطروحا لمتعلم العربية من غير الناطقين بها، الذي اقترحوا لمساعدته صناعة بيئة تفرض الحديث بالعربية داخل حجرة الدرس على الأقل، حتى يتسنى له استعمال ما يتعلم.

ويؤكد المشتغلون بهذا المنحى من الدراسات اللسانية كذلك على أن تعليم اللغة ليس ذلك الذي يجري في قاعة الدرس فحسب، فذلك ليس سوى حلقة من سلسلة؛ الأول منها سياسي يقرر: اللغة التي ستُدرس، بناء على اعتبارات اجتماعية وسياسية كثيرة، والثاني إداري لا يمكن اتخاذ قرار فيه دون اللسانيات التطبيقية، خاصة فيما يتعلق بالمقررات، وأهداف تعليم لغة معينة.. أما الأخير منها فيتصل بما يجري في حجرة الدراسة، ويستند في الأغلب إلى علمي النفس، والتربية، وعلم اللغة التطبيقي كذلك⁽¹⁶⁾، ومن هنا تتوثق أواصر النسب والجوار بين اللسانيات التطبيقية ومصادرها التي تستمد منها: اللسانيات نفسها، وفرعاها النفسي والاجتماعي، وعلوم التربية.. وغيرها.

هذا ولا تنفك مسألة تعليم اللغة في اللسانيات التطبيقية عن سؤالين أساسيين: ماذا نُعلِّم من اللغة (المحتوى)؟ وكيف نعلمه (الطريقة)؟ وتجب عن بعض جوانب الأول اللسانيات وخصوصا فروعها الاجتماعية والنفسية، وتجب عن الثاني علوم التربية وعن بعض جوانبه اللسانيات النفسية⁽¹⁷⁾.

وفي سعيها للإجابة عن السؤال الأول الذي يدخل في صميم اهتمامها، تنطلق مناهج اللسانيات التطبيقية من حقيقة استحالة أن نتعلم أو نُعلِّم اللغة كلها، ولذلك تقترح لتجاوز هذا الإشكال مبدأ «الاختيار» الذي يعني اختيار المحتوى الملائم للمتعلم المستهدف، ويتأسس ذلك على مبدأ آخر هو «المقارنة» إذ لا يستطيع أحد أن يختار ما لم يقارن⁽¹⁸⁾، ويعد النموذج المثالي - من مفردات وقواعد اللغة - الذي يُقترح في هذا السياق اختياره «هو الذي يمتاز بـ«العمومية»، و«الشمول»؛

(15) عبد القادر الفاسي الفهري، المرجع السابق نفسه.

(16) الراجحي، مرجع سابق، ص 13-14 بتصرف.

(17) الراجحي، مرجع سابق، ص 27 بتصرف.

(18) الراجحي، مرجع سابق، ص 37 بتصرف.

بأن يكون «أوسع» انتشارا، و«أكثر» استعمالا، و«أقل» تقييدا، وأن تكون له «جذور» تاريخية وامتداد «ثقافي»⁽¹⁹⁾.

ويشيع هنا الاتكاء على مبدأ «الشيوع» في اختيار المفردات والتراكيب النحوية والصرفية الأكثر استعمالا، على سبيل المثال يفضل «تقديم التراكيب الشائعة في الاستعمال اللغوي في الصحف والمجلات والكتب ووسائل الإعلام على اختلاف الموضوعات المطروحة وطبيعتها»⁽²⁰⁾، ومن أمثلة تطبيقات هذه المبادئ على اللغة العربية، محاولات جمع قوائم للمفردات والتراكيب الشائعة في اللغة العربية، التي صدرت منها مثلا «قائمة مكة للمفردات الشائعة»، و«قائمة معهد الخرطوم الدولي»، فضلا عن معجم الكلمات العربية الشائعة: (A Frequency Dictionary of Arabic)، الذي صدر عام 2011 باللغة الانجليزية، من تأليف Tim Buckwalter و Dilworth Parkinson، وقبله «التراكيب الشائعة في اللغة العربية دراسة إحصائية لمحمد الخولي، الذي صدر 1998م...

هذا ويبرز في هذا السياق اهتمام اللسانيات التطبيقية بثنائية اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، ويهتم اللسانيون بالأولى قبل الثانية، لأن هذه الأخيرة «عبارة عن تحويل الرموز المسموعة في الأذن إلى رموز مرئية بالعين»⁽²¹⁾، ولأجل ذلك يلح اللسانيون هنا على أهمية تدريس مخارج الحروف.. وطريقة النبر والتنغيم في الكلام... وغيرها مما يسمى لغة جانبية، وذلك «لأن اللغة الملفوظة لا تؤدي معناها من حيث هي مكونة من ألفاظ وتراكيب يتعارف عليها الناس فحسب، ولكن المعنى يتحدد بوسائل أخرى بالإضافة إلى المعاني اللغوية ومنها هذه اللغة الجانبية»⁽²²⁾.

إن هذه الأفكار والمبادئ والاستراتيجيات سواء ما ذكر منها وما لم يذكر، مثلت مصدرا غنيا أمد المشتغلين بتطوير تعليمية اللغة العربية بالأفكار والمناهج

(19) الراجحي، مرجع سابق، ص 39 بتصرف.

(20) وليد العناتي، كتاب نون والقلم لتعليم العربية للناطقين بغيرها دراسة لسانية تربوية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، ع2، يوليو 2009م، ص 139.

(21) حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ص 127.

(22) عبده الراجحي، اللغة وعلوم المجتمع، ص 36.

والاستراتيجيات وأعاد تأسيس عملية تعليم اللغة برمتها، ومهد الطريق لما كتب في هذا السياق، من قبيل كتاب: التمهيد في اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، لتمام حسان، الصادر عن معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى 1984 م، وما أعقبه من الدراسات والتجارب، التي صدر منها مؤخرًا: منهج اللغة العربية للناطقين بغيرها حسب الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات على المستويين A1 و A2، الذي أعلن عنه في فرنسا⁽²³⁾ 2013، والإطار المعياري العربي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.. تعليم، تعلم، تقويم، لعلي أحمد مذكور، الصادر عن دار الفكر العربي بالقاهرة سنة 2016 م، ثم ما يزال الطريق بعد طويلا لبلوغ الغاية والمأمول من تطوير تعليمية اللغة العربية، واستثمار نتائج البحث المتجدد في حقل اللسانيات التطبيقية، لتجديد مناهج وطرائق تدريس العربية لأبنائها وغيرهم، بما يضمن امتلاكهم ملكة فهمها والتعبير بها، ويمكنهم من استخراج مخزون ثرواتها الثقافية الهائل، والاستفادة منه.

ثالثا: تطوير تعليمية العربية باللسانيات العرفانية: اللسانيات العرفانية أو المعرفية Cognitive Linguistics هي «مدرسة لسانية معاصرة، انبثقت ضمن الإطار العام للعلم العرفاني (Cognitive science)، الذي انبث أواسط القرن العشرين⁽²⁴⁾، وقد أسست نظرتها للغة على نظرة المدرسة التوليدية التي ولدتها، ومفادها أن اللغة هي «أكبر نشاط ينهض به الإنسان، والخصيصة الأولى له، ومن ثم يجب الوصول إلى طبيعتها لا عن طريق المظهر المحسوس لها فحسب (لاكما هو الحال عند البنيويين)، وإنما عن طريق القدرات الإنسانية الكامنة التي لا تظهر على «السطح»، ومن ثم توجهت لدراسة الملكة اللغوية Compétence باعتبار أن لدى كل إنسان «قدرة» على اللغة، وهي قدرة فطرية تولد مع الإنسان، وتؤكد على أن اللغة الإنسانية لا يمكن أن تكون استجابة لمثير - كما يرى السلوكيون - وإلا

د محمد حقي جوتشين، منهج اللغة العربية للناطقين بغيرها حسب الإطار المرجعي (23) مجلة عالم الفكر، مجلد 44، عدد 2، 2015، و A1 الأوروبي المشترك للغات على المستويين. أكتوبر ديسمبر 2015

(24) عمر بن دحمان، المنهج العرفاني في المقام التربوي، ضمن الكتاب الجماعي: دراسات في اللسانيات العرفانية الذهن واللغة والواقع، ص 122.

كانت نشاطا آليا، وإنما لغة إبداعية creative تتكون من عناصر محدودة يمكن حصرها لكنها تنتج جمالا لا تنتهي عند حصر⁽²⁵⁾.

ومن قلب هذه الرؤية التوليدية الجديدة للغة برزت اللسانيات العرفانية، متقاطعة مع كثير مما بدأه تشومسكي، ومستدركة على ما رأت أنه فات عليه، ومن ذلك ما ألح عليه تشومسكي من انفصال الآليات اللغوية المسؤولة عن إنتاج اللغة في الدماغ وفهمها عن بقية العمليات الذهنية، واجترأه تسمية جهاز على مستوى الدماغ هو المسؤول عن إنتاج اللغة وفهمها، سماه جهاز اكتساب اللغة: (Language Acquisition Device)، فقد رأى العرفانيون - خلافا لذلك - أن كل العمليات الذهنية - بما فيها اللغوية - مترابطة فيما بينها، وأن «معالجة الوحدات اللغوية وإنشاءها يقع إنجازهما بفضل عدد من القدرات الذهنية العامة التي لا تخص نشاط الإنسان اللغوي فحسب، وإنما تهم مختلف الأنشطة التي يقوم بها في كل ميادين المعرفة وحتى في حياته اليومية⁽²⁶⁾»، وقد غدا واضحا من هذا المنطلق أن اللسانيات العرفانية وجهت مسار بحثها نحو الآليات التي يعمل بها الدماغ/الذهن البشري لتوليد المعرفة واللغة، وذلك في سياق تكاملي، تستفيد فيه من كل العلوم ذات الصلة بهذه الغاية، كعلم الأعصاب والتشريح والرياضيات والحاسوب وبطبيعة الحال اللسانيات نفسها.

وقد كان لهذه الأفكار أثر بالغ في تطوير البحث في ميدان تعليمية اللغات، وكيف يكتسب الطفل اللغة وكيف يكتسبها الكبير؟ وألقت هذه النظرة المركبة من عدة حقول علمية بظلالها على النماذج العرفانية المقترحة لتعليم اللغة، التي ازدادت تركيبا على تركيب مع قدوم «عصر التنظير لمجتمع المعرفة الذي يقوم على رقمنة جميع جوانب الحياة البشرية فأضيفت إلى العلوم المذكورة علوم كثيرة تبحث في عملية الاكتساب اللغوي، من قبيل المنطق والرياضيات والحاسوبيات...⁽²⁷⁾»، وتأسيسا على هذا فإذا أردنا تعليم العربية استنادا إلى مرجعية عرفانية فإننا - بدون الدخول في تفاصيل يضيق عنها المقام - لن نحتاج

(25) الراجحي، علم اللغة التطبيقي.. ص 19-20 بتصرف.

(26) عبد الجبار بن غربية، مدخل إلى النحو العرفاني، ص 39.

(27) لرجاني خديجة أسماء، اللسانيات العرفانية بين اكتساب اللغة وتعلمها، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مجلد 3، عدد خاص نونبر 2019 م ص 128 بتصرف.

إلا إلى «نشئة الطفل في محيط اجتماعي وثقافي يستخدم العربية استخداما سليما وسيتشربها خلال سنواته الأولى... وعلى هذا الأساس كذلك فسيقطع متعلم العربية لغة ثانية المراحل نفسها التي يقطعها متعلم اللغة الأم في طفولته.. فيتعلّم اللغة عبر محاكاة المتكلمين في البيئة الطبيعية والتفاعل معهم، وعبر الممارسة والتكرار، وتلك هي السبيل المثلى إلى بناء «المدونة المعجمية الداخلية» وقيام البنى الذهنية التي تيسر الاستخدام الصحيح ولا تقبل الاستعمال غير السليم⁽²⁸⁾».

ولعل من النماذج العرفانية الرائدة التي يمكن ذكرها في هذا السياق الدراسة غير التقليدية للاستعارة التي قام بها جورج لاكوف ومارك جونسون، في كتابهما «الاستعارات التي نحى بها»، وقد نبه بعض الباحثين إلى فوائدها الكبيرة في سياق تعليم اللغة العربية وتطوير أساليب واستراتيجيات تدريسها، انطلاقا من مركزية الاستعارة كآلية أساسية من آليات اشتغال الذهن البشري⁽²⁹⁾، ومن التطبيقات التي اقترحها في هذا الإطار توظيف الاستعارات التصويرية في تعليم معجم اللغة، الذي سيسمح لنا «بربط معاني مادة معجمية في مجال ما بمعانيها الاستعارية المرتبطة بها في مجال آخر.. من ذلك مثلا كلمة «هش» المستخدمة في مجال البناء التي يمكن أن تستعمل في مجال النظرية وفق الاستعارة التصويرية: النظريات بنايات (تفسر لنا هذه الاستعارة سبب حديثنا عن هشاشة النظرية وانهارها)⁽³⁰⁾».

هذا فضلا عن مبادئ واستراتيجيات أخرى كثيرة أنجزها البحث العرفاني في اللسانيات، من قبيل المبادئ التي تعلي من شأن السنوات الأولى من الطفولة في عملية اكتساب اللغة، واستراتيجيات بناء «النحو المضمن» الذي يتمثل في ما يخزّنه المتعلّم من ضوابط لغوية أولية من خلال نشاط يقصد إليه المعلّم قصدا ولكن دون أن يصرّح بالقواعد النحوية التي تثيرها هذه الأنشطة⁽³¹⁾، وغير ذلك.

هذا ومن الملاحظ تباین الفرق بين مستوى الاستفادة من اللسانيات العرفانية في تطوير تعليمية اللغة العربية مقارنة مع سابقتها التطبيقية، ذلك أن حداثة الثانية

(28) عبد العزيز كردي، مدخل إلى تعليم العربية من زاوية نظر عرفانية (بتصرف)، مقال منشور في الكتاب الجماعي: تعليم العربية للناطقين بغيرها: مداخل - استراتيجيات - معايير.

(29) عمر بن دحمان، مرجع سابق، ص 129 وما بعدها.

(30) عمر بن دحمان، نفسه، ص 138.

(31) عبد العزيز كردي، المرجع السابق.

وكثرة المصادر والحقول المعرفية التي تتركب منها ما زالت تعوق - مع أسباب أخرى - دون الاستفادة المثلى من منجزاتها في هذا المجال.

رابعا: حصيلة المنجز اللساني في تعليمية العربية.. الفرص والتحديات (خاتمة المقال)

أخيرا، فإن السبيل إلى تطوير تعليمية اللغة العربية في ضوء منجزات العلوم اللسانية الحديثة، تمر - كما رأينا - من حقول معرفية شتى، تضم إلى جانب علوم اللسانيات نفسها، علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلوم التربية، ولا تقف دون علوم الحاسوب، والعلوم العصبية... وغيرها.

ولأجل كسب الرهان في عصر العولمة، والثقافة العابرة للحدود، فلا مناص من منح تعليمية اللغة - التي بها تكتسب المعارف وتحفظ الهوية وتبنى الحضارة - حقها من العناية كاملا غير منقوص، وأول ما يلزم حتى تتم الاستفادة من فرص التطورات الكبيرة في هذا المجال كما سبق عرض بعضها:

- استثمار المنجز اللساني العربي والغربي الكبير في تطوير المناهج التعليمية لهذه اللغة، بما يضمن تنوعها وكفاءتها وقدرتها على مواكبة مستويات والأعمار والاهتمامات، وتحقيق مواكبة اللغة العربية لتطورات العصر.

- تكوين الكفاءات والأطر التربوية القادرة على توظيف مختلف استراتيجيات تعليم اللغة لأبنائها وغيرهم، كما طورته مختلف فروع اللسانيات المهمة بهذا المجال.

- الاستفادة من التقنيات الحاسوبية الحديثة وتطبيقات الهواتف.. وغيرها في تطوير تعليمية العربية لأبنائها وغيرهم، على نحو يستثمر منجزات اللسانيات الحاسوبية والذكاء الصناعي وغير ذلك من العلوم التكنولوجية التي تطورت بشكل كبير في السنوات الأخيرة.

ثم العمل من خلال هذه الفرص على رفع وتجاوز التحديات الكبيرة التي تواجه تعليم العربية لأبنائها وغيرهم، من قبيل ما سبق ذكره من:

- الحاجة إلى جسر الهوة الكبيرة بين المنجز اللساني التنظيري وبين الاستفادة العملية منه في الفضاء العربي، وخصوصا في ميدان تطوير تعليمية اللغة العربية.

- التحديات الخطيرة التي يواجهها تعليم العربية لأبنائها وغيرهم، وأهمها طغيان العامية في الاستعمال والتخاطب اليومي، على نحو يجعل المتعلم «يتعلم ما لا يستعمل»، فضلا عن ما تعانيه العربية في كثير من بلدانها من الإبعاد عن موقع اللغة الوظيفية في الحياة الاجتماعية: تعليم وإدارة وإعلاما...

أخيرا فلا يكاد يوجد دليل على أهمية تعليمية اللغة ومركزيتها في الفكر اللساني أبرز مما لاحظته بعض الدارسين من «أن اختلاف تحديد اللغة انطلاقا من معايير اكتسابها هو الخط الفاصل بين كثير من مدارس اللسانيات المعاصرة، بل إن أكبر حدث لساني معاصر - وهو المتمثل في بروز المدرسة التوليدية - إنما هو ناتج عن موقف مبدئي من موضوع اكتساب اللغة⁽³²⁾»، ومن شأن استثمار نتائج هذه المركزية في تطوير تعليمية العربية أن يحفز طاقات الأمة الكامنة، ويقطع بها أشواطاً نحو السيادة والريادة والنهوض الحضاري الشامل.

(32) عبد السلام لمسدي، مرجع سابق، ص-213 214.

المصادر والمراجع

- أنطوان صياح: تعليمية اللغة العربية، ط 2008 م، دار النهضة العربية، القاهرة.
- الجمعي بولعراس وآخرون، مبادئ تعليم العربية، الإسهامات الممكنة للمقاربات الحديثة، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، ع 11، خريف 2012 م.
- حبيب بوزوادة ويوسف ولد النبية، تعليمية اللغة العربية في ضوء اللسانيات التطبيقية قضايا وأبحاث، ط 1، 2020 م، مكتبة الرشاد، الجزائر.
- حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ط 2، 1990 م، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت.
- عبد الجبار بن غريبة، مدخل إلى النحو العرفاني، ط 1، 2010 م، مسكيلياني، تونس.
- عبد السلام عابي، والذير ضبعي، من اللسانيات التوليدية إلى اللسانيات العرفانية تحولات المباحث والمفاهيم، مجلة اللسانيات، المجلد 24، العدد 1، 2018 م.
- عبد السلام لمسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط 2، 1986 م، الدار العربية للكتاب، ليبيا.
- عبد العزيز كردي، مدخل إلى تعليم العربية من زاوية نظر عرفانية، الكتاب الجماعي: تعليم العربية للناطقين بغيرها... ط 1، 2020 م، دار كنوز المعرفة، الأردن.
- عبد القادر الفاسي الفهري، المعجم العربي نماذج تحليلية جديدة، ط 1986 م، توبقال، المغرب.
- عبده الراجحي، اللغة وعلوم المجتمع، ط 2، 2004 م، دار النهضة، بيروت.
- عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، 1995 م، دار المعرفة الجامعية، مصر.
- عمر بن دحمان، المنهج العرفاني في المقام التربوي، الكتاب الجماعي: دراسات في اللسانيات العرفانية الذهن واللغة والواقع، ط 1، 2019 م، الرياض، مركز الملك عبد الله...

- غالب المطليبي: اللغة العربية (مبادئ وتطبيقات)، ط 2010 م، كنوز المعرفة، سلطنة عمان.
- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ط 1، 2004 م، إيتراك، القاهرة.
- لرجاني خديجة أسماء، اللسانيات العرفية بين اكتساب اللغة وتعلمها، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مجلد 3، عدد خاص نونبر 2019 م.
- مجموعة مؤلفين، آفاق اللسانيات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2011 م، بيروت.
- محمد حقي جوتشين، منهج اللغة العربية للناطقين بغيرها حسب الإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات على المستويين A1 و A2، مجلة عالم الفكر، مجلد 44، عدد 2، اكتوبر ديسمبر 2015.
- محمد غاليم، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، ط 1، 2007 م، دار توبقال، المغرب.
- نواري أبوزيد، محاضرات في اللسانيات التطبيقية، ط 1، 2012، بيت الحكمة، الجزائر.
- وليد العناتي، كتاب نون والقلم لتعليم العربية للناطقين بغيرها دراسة لسانية تربوية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، ع 2، يوليو 2009 م.

مصطلح الإمامة بين إطلاقية الدلالة وانحسار التداول:

كتاب «أوائل المقالات في المذاهب والمختارات» للشيخ المفيد أئموذجا

أ.د. عبد القادر العثماني

مخبر «المباحث الدلالية واللّسانيّات الحاسوبية» (LR18ES46)

كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس

تقديم:

يكاد يتفق الباحثون على أنّ التعاطي مع الظاهرة الاصطلاحية في التراث العربي كان من جهة كونها ظاهرة فكرية، وأنّ دراسة المصطلحات تقنيا وتقعيدا وتصنيفا ضمن علم قائم بذاته لم يكن إلّا مع المفكرين الغربيين في العصر الحديث. غير أنّ مقدّمات الوعي المصطلحي يمكن تلمّسها لحظة نزول الوحي والاحتكاك بالنصّ الديني قراءة وفهما وتفسيرا وتأويلا، فكان العرب وجها لوجه مع ما يسمّى التوليد الدلالي (néologie sémantique) بما هو «عملية لغوية يُنقل بموجبها اللفظ من معناه اللغوي إلى معنى آخر صناعي (المفهوم) نقلا مقصودا»⁽¹⁾. تجلّياته كانت بدءا عبر نقلة دلالية شابت بعض المفردات الفقهيّة، فاستعملت بمعان وتصوّرات حادثة، وإن حافظت على معناها الأصلي، من ذلك: الصّلاة التي كانت تعني الدّعاء، فاستحالت أقوالا وحرركات مضبوطة مخصوصة، وكذلك الشّأن مع الحجّ قصدا، والصّوم إمساكا، والزّكاة نموّا...

(1) Rondeau Guy, *Introduction à la terminologie*, Gaeton Maurin, paris, 1995 , p.121.

وفي كنف النصّ الديني، نمت علوم متنوّعة، شملت شتّى مجالات المعرفة، على غرار علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله والعقيدة وعلم الكلام، وهو ما اصطُح عليه بالعلوم المقاصد أو الغايات، كما ظهر ما سُمّي بالعلوم الوسائل أو الأدوات (العلوم اللّغويّة اللّسانية) نحواً وصرفاً وبلاغة، وتاريخاً وحضارة أيضاً. وسُمّيت بذلك لأنّها آليات وأدوات لفهم المقاصد والغايات⁽²⁾. وباستيراد العرب العلوم الأجنبيّة انتشرت العلوم العقلية النّظرية فلسفة ومنطقاً، والعلوم العلميّة التجريبيّة طبّاً وعمارة وغيرها.

وبما أنّ «معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم والمهمّ المقدّم لعموم الحاجة إليه واقتصار القاصر عليه»⁽³⁾ فإنّ كلّ علم من هذه العلوم سرعان ما استقلّ بأجهزته المفاهيميّة والمصطلحيّة، فأصبح للتفسير اصطلاحاته، وللإعجاز مصطلحه، وكذلك للحديث والفقه والنحو والبلاغة، ولللسان فلسفة والمنطق والطبّ والهندسة، وغيرها من سائر العلوم.

ونحسب أنّه كان للانقسامات الفكرية والعقدية دور بارز في اختلاف الرؤى والمفاهيم تجاه هذه العلوم مقاصد ووسائل، فكان أن استقلت كلّ فرقة بجهازها المفاهيمي والمصطلحيّ فقهاً وأصولاً ورؤية عقدية وتفسيراً ورواية للحديث والسيرة ووقائع التاريخ، بل أصبحنا نرى للخلفيّة المذهبية حضوراً لافتاً في ضبط سائر العلوم مصطلحات ومفاهيم، بما فيها علوم اللّغة والنحو. ولا غرابة مادام أغلب النّحاة كانوا فقهاء متكلمين⁽⁴⁾.

(2) تفصيلاً للعلوم المقاصد والعلوم الوسائل يُنظر: يوسف العثماني، دراسات في اللّغة والمصطلح، تونس، دار النّاهل للنشر والتوزيع، سلسلة وحدة البحث: مجتمع المصطلحات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، ط1، 2008، ص158 - 159.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلميّة، [د.ت]، ج1، ص31.

(4) من نحاة المعتزلة: الفراء والفارسي والسيرافي والرّمانى والرّمخشري وابن جني. وقد ذكر ياقوت الحموي أنّ لمحمّد بن إسحاق كتاباً يسمّى «نحاة المعتزلة». ويشار إلى أنّ ابن جني (ت392هـ) كان يرى أنّ اللّغة اصطلاح انسجاماً وخلفيّة الاعتزاليّة التي ترى أنّ الكلام مخلوق، في حين كان ابن فارس (ت395هـ) يرى أنّ اللّغة توقيف ووحى وإلهام، استناداً إلى خلفيّة الشيعيّة. يُنظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عبّاس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993، ج3، ص1028، ومصطفى بخيت، أثر العقيدة وعلم الكلام في النّحو العربي، القاهرة، دار البصائر، ط1، 2011، صص10 - 83.

ولعلّ أوّل مفهوم أُشرّ لأوّل انقسام وأخطره وأجلّه هو «الإمامة»، إذ «ما سُئل سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سُئل على الإمامة في كل زمان»⁽⁵⁾. ولهذا الاعتبار يمكن أن يُعدّ من المفاهيم المختلف فيها أو بتعبير المشتغلين بفلسفة علم الاجتماع من «المفاهيم المتنازع عليها بالضرورة» (Essentially contested concepts) تنظيراً وإجراءً⁽⁶⁾. وسننظر في وجوه إجرائه باعتباره رمزاً له دور محوريّ ضمن نظام علاميّ مخصوص.

ولئن تطرّقنا إلى ركن مهمّ من هذا المبحث في عمل سابق ضمن شهادة الدكتور موسوم بـ «مركزيّة متصوّر الإمامة في التّصوّر الشّيعيّ وتطوّره الدّلالي» فإنّ اشتغالنا في هذا البحث سيّخذ منحى أكثر توسيعاً وتدقيقاً وتخصيصاً⁽⁷⁾.

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى استقراء مصطلح «إمامة» باعتباره علامة لسانية يتجاذبها التّوسّع الدّلالي والتّضييق المذهبي في آن. تقصّينا فيه سبل إجراء هذا المصطلح في كتاب «أوائل المقالات في المذاهب والمختارات» للشيخ المفيد بناء اشتقاقياً وتشكّلاً صوتياً وصرفياً وتكثيفاً لغوياً ودلالياً. وقد انطلقنا من سؤال رئيس: على أيّ نحو يلوح مصطلح «الإمامة» مفهوماً مركزيّاً في الجهاز المصطلحيّ الشّيعي يتمّ تصريفه وتحويله من المستوى المعجمي العامّ إلى اللّغة الاصطلاحية

(5) الشّهرستاني، الملل والنحل، تح: عبد الأمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، بيروت، دار المعرفة، ج 1، ص 31.

(6) هذه التّسمية أطلقها الفيلسوف البريطاني والتر برايس غالي (1912-1998) Walter Bryce Gallie على المصطلحات المختلف فيها كلاسيكيّة كانت أو معاصرة. واستأنسنا في ترجمتها وترجمة مصطلحات أخرى بسيد أحمد قوجيلي. يُنظر: Walter Bryce Gallie, *Essentially Contested Concepts*, Meeting of the Aristotalian Society at 21, Bedford Square, London, 1956, p 168. وكذلك: سيد أحمد قوجيلي، التعريف بالتّجريد: حلّ مشكلة المفاهيم المتنازع عليها في العلوم الاجتماعية، مجلّة عمران، قطر، العدد 33 / 9، صيف 2020، ص 9.

(7) يُنظر: عبد القادر العثماني، المصطلح وأبعاده الدّلالية في نماذج من المدونة الشّيعيّة من القرن الثّاني إلى القرن السّابع للهجرة، إشراف: الأستاذ: يوسف العثماني، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس 2020، عدد T 10808، ص 142-152.

المختصة؟ وما أثر ذلك في جعله يكتسب انزياحا مفاهيميا عن طريق التوليد الدلالي؟ (néologie sémantique).

ولقد استفدنا من طريقة فوستر (Eugen Wüster) في البحث في المصطلحية بربطه بين العلامة والمتصور. ومع أنّ مجال بحثه ما هو تقني، فإنّه اتخذ من المتصور، باعتباره بناء ذهنيا ومكونا علاميا، قاعدة منهجية ربط من خلالها بين الدال (Signifiant) والمدلول (Signifié)، وقد استأنسنا بذلك في تأطير التصورات الفكرية للشّعبة والإمساك بالعناصر الموحدة لهذا المفهوم لدى المفيد على وجه الخصوص.

وخلصنا إلى أنّ هذا الرّمز اللّغوي يعتبر من المصطلحات الرّحالة (mobile terms) أو المصطلحات المهاجرة من حقل دلالي إلى آخر، تلك التي حافظت على تركيبها وبنائها الصوتية لفظا، لكن تغيّرت دلالاتها مفهوما حين انتقلت إلى مجال معرفي آخر. وفي اعتقادنا أنّه رغم محافظته على الاتّصال الدلالي بين الأصل اللّغوي والمعنى المستحدث إلاّ أنّه اكتسب مدلولات جديدة انتقل بموجبها من المجال الشعائري إلى مفهوم كلامي وسياسي، وذلك قبل أن يتطور ويستقرّ بتصوّرات وحمولات دلالية ألوهية مع المفيد الذي تقصّينا معه نظام تمثيل هذا المصطلح وتثبيته في المذهب الإمامي، وتتبعنا رؤيته والفعل التصوري (Acte de concevoir) والتطوري لديه تجاه هذا المفهوم.

وبناء على ذلك، جاز لنا عدّ المفيد المنظر الفعليّ لمتصور الإمامة. وذلك بعد أن تتبّعنا التشكل اللّغوي لهذا المصطلح طبيعةً وخصائص على يد النّحاة واللّغويين والمتكلّمين الذين كان لهم فضل تثبيته وضعاً وتوليدا وتشقيقا لغويا، إلى أن استقام وحدة لغوية بسيطة قائمة الذات. وجده المفيد جاهزا فقام بتهديب حمولته المفهومية بما يتواءم وروح التشيع الإمامي مضيفا إلى هويته اللسانية هذه هوية عرفانية (mystical identity). وهكذا، انتهينا - بتعبير «فيلبر» (Helmut Felber) - إلى أنّ مصطلح «الإمامة» من المصطلحات الرؤوس (Terminology headers) تداولوا في شتى المجالات المعرفية لدى الإمامية تقريبا، وأنّه يميل إلى الانحسار والانحصار - بمفهومه المستحدث - ضمن نسقهم الفكري المخصوص.

الكلمات المفتاحية: المفهوم، المصطلحية، الإمامة، التطور الدلالي، الجهاز المفاهيمي الشيعي، المجال المعرفي، المصطلحات الرؤوس، المصطلحات الرحالة، النظام العلامي، التوليد الدلالي.

Abstract:

This research aims to extrapolate the term "Imamate" as a linguistic sign that is attracted by semantic expansion and sectarian narrowing at the same time. In it, we investigated the ways to implement this term in the book "Awaʿil al- Maqalāl fī al-Maḥāhib wa al-Mukhtarāt" by Sheikh al-Mufid, in terms of etymological structure, phonological and morphological formation, and linguistic and semantic condensation. We started from a main question: In what way does the term "Imamate" appear as a central concept in the Shiite terminological system that is inflected and transformed from the general lexical level to the specialized terminological language? What effect did this have in making him gain conceptual shift through semantic neology?

We have benefited from Eugen Wüster's method in researching terminology by linking the sign and the conception. Although the field of his research is technical, he took the concept, as a mental construct and a semilologic component, as a methodological basis through which he linked the Signifiant and the signified, and we take this into considered in framing the intellectual perceptions of the Shiites and grasping the unifying elements of this concept according to Al-Mufid In particular.

We concluded that this linguistic symbol is considered one of the mobile terms or terms that migrate from one semantic field to another, those that preserved their structure and phonetic structure verbally, but their connotations changed conceptually when they moved to another cognitive field. We believe that although it maintained the semantic connection between the linguistic origin and the new meaning, it acquired new connotations according to which it moved from the ritual field to a theologian and political concept, before it developed and settled with concepts and divine semantic loads with "Al-Mufid", with whom we investigated the system of representing this term and establishing it in the Imami doctrine, and we traced his

point of view and his conceptual and evolutionary action towards this concept.

Based on this, it is permissible for us to consider "Al-Mufid" as the actual theorist of the concept of Imamate. This is after we traced the linguistic formation of this term, its nature and characteristics, by grammarians, linguists, and theologians who had the merit of establishing it in terms of invention, neology, and linguistic fragmentation, until it became a simple and independent linguistic unit. Al-Mufid found the term ready, so he refined his conceptual load in a way that was compatible with the depth of Imami Shiism, adding to his linguistic identity a mystical identity. Thus, we concluded— according to Helmut Felber— that the term “Imamate” is one of the «terminology headers» used in almost all cognitive fields among the Imamis, and that it tends to recede and be confined - in its new concept - within their specific intellectual system.

Keywords Concept, Terminology, Imamate, Semantic development, Shiite conceptual system, Cognitive field, Terminology headers, mobile terms, Semilogic system, Semantic neology.

مصطلح الإمامة مفتاح التشيع:

لئن أجمعت البحوث والدراسات في مجال المصطلحية (Terminologie) على أنّ المصطلح مفتاح العلوم بتعبير الخوارزمي فإنّ التشيع في كلّ فرقته، وبإسهاماته في شتى مجالات المعرفة ضمن الثقافة العربية الإسلامية ابتكاراً وتطويراً، يجعلنا نقرّ أنّ مصطلح الإمامة كان مفتاحاً للمذهب على امتداد أطوار مجالات التشيع المعرفية عامة بدءاً ومساراً واستقراراً. وإذا كان شعار مركز المعلومات الدولي للمصطلحات بفيينا (INFOTERM): «لا معرفة بلا مصطلح» فإنّه بإمكاننا التسليم قياساً بـ«ألا تشيع بلا إمامة». فهو هويّته ومركز جهازه المفاهيمي والمصطلحي. وفقّه طوّر الشيعة من نظريّاتهم، حتّى غدت

مذاهبهم على اختلافها نشأة ووجودا وانتشارا واستمرارا رهينة حضور هذا المفهوم (concept)⁽⁸⁾.

من هنا يبدو أنّ استقرار نظام تمثيل هذا المصطلح في بنية المذهب الشيعي يشي بأنّ هذا المفهوم اقتحم المجال الذهني الشيعي باكرا ضبطا وتحديدًا للخصائص وموقعا من المنظومة المفهوميّة التي ينتمي إليها والحقول المعرفيّة التي تحتضنه. ولكن تقتضي ضرورة البحث قبل الخوض في متصور المصطلح الشيعي انطلاقا من كتاب «أوائل المقالات في المذاهب والمختارات» للشيخ المفيد أن نقف على الأصول الأولى لهذه المفردة قبل أن تستحيل مصطلحا قائم الذات وعلمًا على التشيع عامّة والفرع الإماميّ منه خاصّة.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ مقتضيات البحث ودقّة المقاربة العلميّة وتتبع رؤية المفيد والفعل تصوّري (Acte de concevoir) التطوّري لديه تستدعي توسيع دائرة النّظر وقوفا على أكثر من مصنّف من مصنّفات كما تدعونا إلى الاستئناس بمصادر حافّة آخر.

مصطلحا «إمام» و«إمامة»: أصل التسمية

صنّف النّحاة بدءا بسيبويه (ت 180هـ) الكلّم تصنيفا ثلاثيا (فعل واسم وحرف). أمّا في الدّرس اللّساني الحديث فأهمّ أقسام الكلام أو ما يصطلح عليه بالمقولات الخمس مقولة الاسم (nom). وللإسم وظيفة إحاليّة (référentielle) بحكم تعيينه الموجودات الحسيّة والمجرّدة.

ولمّا كان الاسم على النّقيض من بقية أقسام الكلام هو «ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة»⁽⁹⁾، وكان مجال المصطلح الاسم لا الفعل أو الأداة أو الحرف، و«الاسم يمثل شيئا، والتسمية هي الأكثر استعمالا لإحداث

(8) يستمدّ المفهوم مكانته من كونه تصوّرا ذهنيّا سابقا للأشياء حسيّة أو مجرّدة، يتولّى المصطلح تعيينه تسمية. وبالتالي لا هويّة للمفهوم بلا مصطلح. هذا التّلازم بينهما عبّر عنه كواداك (Daniel Gouadec) بالقول: «المصطلح وحدة لغويّة تحدّد مفهوما ما، أي هو وحدة تسمية عناصر الكون مجرّدة كانت أو محسوسة». ينظر:

Daniel Gouadec, *Terminologie : constitution des données*, afnor, Paris, 1990, p.3.

(9) الجرجاني، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1983، ص 24.

التَّمثُّل»⁽¹⁰⁾؛ فإنَّ «ارتباط الأسماء بالأشياء والمعاني، بصرف النظر عن الحدود الزمانيّة، هو من صميم التفسير المنطقي الفلسفي للمصطلحات المتعلّق بنظام تسمية الأشياء أو المعاني التي يتألّف منها الواقع حسّية أو غير حسّية، فالأشياء أو المعاني إنّما تسمّى أو توصف بأسماء أو صفات وليست بأفعال أو ظروف أو حروف»⁽¹¹⁾. من هنا اعتُبرت المصطلحات أحاديّة المعنى ودالّة في ذاتها بمعزل عن السياق وعن الفضاءين الزماني والمكاني. يقول في ذلك آلان راي (Alain Rey): «إنّ موضوع المصطلحيّة - شأنها في ذلك شأن اللسانيات وعلم الدلالة والسيمولوجيا - هو العلامة، ولكن بما هي اسم دالّ على مفهوم. وهي على التّقيض من سائر هذه العلوم لا تعنى بالألفاظ العامّة كالضّمائر مثلاً، وإنّما تركّز دراستها فقط على الأسماء»⁽¹²⁾.

وبما أنّ «الاسم سيّد الدّوال» حسب تعبير بارت، فإنَّ «المتلفظ الأوّل» انشغل منذ القديم بالأسماء: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا»⁽¹³⁾، فكانت النبوة اسماً، وكذا الإمامة: «وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا»⁽¹⁴⁾؛ فقد جاء في لسان العرب في جذر (أمم): «الأمُّ: بالفتح: القصد. أمّة يؤمّه أمّا إذا قصده (...) ويقال أممته وأمّمته وتأمّمته وتيمّمته بمعنى واحد أي توخّيته وقصدته (...) وَجَمَلَ مِثْمٌ: دَلِيلٌ هَادٍ، وَنَاقَةٌ مِثْمَةٌ كَذَلِكَ. وَكُلُّهُ مِنَ الْقَصْدِ لِأَنَّ الدَّلِيلَ الْهَادِيَ قَاصِدٌ»⁽¹⁵⁾.

وبالعودة إلى جذر [ق.ص.د] في لسان العرب، وجدنا أنّ القصد يعني: «اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ... وَطَرِيقٌ قَاصِدٌ: سَهْلٌ مُسْتَقِيمٌ. وَسَفَرٌ قَاصِدٌ: سَهْلٌ قَرِيبٌ...»

(10) محمّد الهادي عياد، الكلمة: دراسة في اللسانيات المقارنة، تونس، مركز النشر الجامعي، دار سحر للمعرفة، 2010، ص 372.

(11) جواد حسني سماعنة، التّركيب المصطلحي: طبيعته النظريّة وأنماطه التطبيقيّة، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التّعريب في الوطن العربي، الرّباط، المغرب، العدد 50، ص 44. (12) Alain Rey, *La Terminologie : Noms et Notions*, Collection «que- sais- je ?», P.U.F., Paris, 1980, p 126.

(13) البقرة 2 / 31.

(14) البقرة 2 / 124.

(15) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط 7، 2011، ص 156.

وَالْقَصْدُ: الْعَدْلُ⁽¹⁶⁾. فالهداية والاستقامة والعدل هي من مقاصد الإمام ومتعلقاته شروطاً وسلوكاً وممارسة، إذ هو قَصْدٌ وقاصِدٌ ومقصودٌ.

ونستطيع أن نقول تجوّزاً إنّ هذه المعاني «الإيجابية» قد نجد امتداداً لها في المصطلح الأدبي: «القصيد»، فمن القصد جاء الْقَصِيدُ مِنَ الشَّعْرِ، إذ من معاني القصيد التمام والكمال، وهي المعاني المفترضة توفرها في الإمام، وقد سُمِّيَ القصيد قصيداً «لِكَمَالِهِ وَصِحَّةِ وَزْنِهِ... وَلأنَّه قُصِدَ واعْتُمِدَ... وَقِيلَ: سُمِّيَ الشَّعْرُ التَّامُّ قَصِيداً لَأَنَّهُ قَائِلُهُ جَعَلَهُ مِنْ بَالِهِ فَقَصَدَ لَهُ قَصْداً وَاجْتَهَدَ فِي تَجْوِيدِهِ... وَلَمْ يَقْتَضِبْهُ اقْتِضَاباً»⁽¹⁷⁾.

وباستقراء الشعر الجاهلي نجد أن أصل فعلني «أَمَّ» و«يَمَّ» اللغوي «تَوَخَّى وقَصَدَ، والمُتِمِّمُ القاصِدُ المكان»⁽¹⁸⁾، وهو ما عبر عنه عبيد بن الأبرص (ت 554 م) بقوله: [البسيط]

لِمَنْ جَمَالٌ قُبِيلُ الصُّبْحِ مَزْمُومَةٌ * مُيَمَّمَاتٌ بِلَادًا غَيْرَ مَعْلُومَةٍ⁽¹⁹⁾

وعند النابغة (ت 604 م) يعني لفظ «الإمام» المِثَالُ: [الوافر]

أَبُوهُ قَبْلَهُ وَأَبُو أَبِيهِ * بَنَوْا مَجْدَ الْحَيَاةِ عَلَى إِمَامٍ⁽²⁰⁾

ومن معاني «المثال»: «القدوة الذي يُحتذى به، والمثل الأعلى، والنموذج، والغاية في بابهِ من جميع النواحي، والمثل في الأخلاق العالية والاتجاه إلى أمجد المقاصد»⁽²¹⁾. وهي كلها من خصال الإمام ومتعلقاته، فالإمام مثلاً.

وفي الصّحاح: الإمام خَشَبَةُ البناءِ يسوّي عليها البناء⁽²²⁾. وقد استند الجوهري في هذا المعنى إلى بيت مجهول النسبة من [الطويل]:

(16) نفسه، ج 2، ص 113.

(17) نفسه.

(18) المختار كَرِيم، المعجم المفهرس لألفاظ الشعر الجاهلي ومعانيه، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، 2010، ص 48، البيت رقم 545.

(19) عبيد بن الأبرص، الديوان، تح: أشرف أحمد عدرة، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 1994، ص 42.

(20) النابغة الذبياني، الديوان، تح: عباس عبد السّاتر، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط 3، 1996، ص 67.

(21) قاموس المعاني الجامع (معجم إلكتروني).

(22) أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري الفارابي، الصّحاح: تاج اللّغة وصحاح العربيّة،

وَحَلَقَتْهُ حَتَّى إِذَا تَمَّ وَاسْتَوَى * كَمْحَةٍ سَاقٍ أَوْ كَمَتْنٍ إِمَامٍ

ولما كانت المصطلحات تخضع توليدا إلى صنفين: صنف جديد يتولد من طريق الاشتقاق (derivation)، وصنف قديم يكتسب مدلولات جديدة عن طريق التوسع الدلالي أو المجاز، فإن مصطلح الإمامة من هذا الصنف الثاني الذي اكتسب مدلولات جديدة عن طريق التوسع الدلالي (semantic expansion). وفي الجذر نفسه (أَمَم) وجدنا لفظي «الإمَّة والأُمَّة»، بمعنى الشُّرعة والدين والملك والسُّنَّة⁽²³⁾، وهي معان حافّة بالإمامة في أبعادها العقديّة والسياسيّة. وإذا أجملنا الاستعمالات اللغويّة المتعدّدة كما وردت في أمّهات المعاجم، والتّي منها انحدر مصطلحا «إمام» و«إمامة» على اعتبار أنّنا قاربنا ذلك في شيء من التفصيل في غير هذا الموضوع⁽²⁴⁾، فإنّنا ننهي إلى أنّها تُجوع على أنّ من معاني «الإمام»: المثال والقُدوة، وخشبة البناء يسوّي عليها البناء، ومتقدّم القوم سويا كان أو ضالا. وقيّم الأمر والمصلح له، وهو حادي الإبل والهادي لها، وهو الطّريق، وهو الدليل، والإمام الخليفة، والإمام العالم المقتدى به، والإمام من يؤتمّ به في الصّلاة⁽²⁵⁾.

أما معاني مفردة «الإمامة» فانتقلت دلاليّا من «الأُمَّة» بمعنى الشُّرعة والدين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ إلى «الإُمَّة» بمعنى النّعيم والملك: [الخفيف] ثَمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَامِ * مَمَّةٍ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ⁽²⁶⁾

تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط 4، 1407 هـ - 1987 م، ج 5، ص 1865.

(23) لسان العرب، م.س، ج 1، ص 156-157.

يُنظر: بحث الدّكتور الذي أنجزناه بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس (24) تحت عنوان: المصطلح وأبعاده الدلاليّة في نماذج من المدوّنة الشّيعيّة من القرن الثّاني إلى T 10808 القرن السّابع للهجرة، إشراف: يوسف العثماني، 2020، عدد

(25) يُنظر: قاموس المعاني الجامع (معجم إلكتروني)، وأبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري الفارابي، الصّحاح: تاج اللغة وصحاح العربيّة، م.س، ج 5، ص 1865، ولسان العرب، م.س، ج 1، ص 156-158، وأحمد بن محمّد بن علي المُقريّ الفيومي، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير، بيروت، المكتبة العلميّة، (د.ت)، ص 23، ومرتضى العسكري، معالم المدرستين، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط 5، 1993، ج 1، ص 222.

(26) عدي بن زيد، الديوان، تح: محمّد جبار المعبيد، بغداد، شركة دار الجمهوريّة للنّشر

ولفظ الملك هو اللَّفْظ الذي يتماهى مع مفهوم الإمامة قبل أن تتطوّر هذه المفردة دلاليًا وتنقل عن طريق الانزياح المفاهيمي (Conceptual displacement) إلى مفهوم دينيٍّ كلاميٍّ وسياسيٍّ تاريخيٍّ فيما بعد.

إذن، ننتهي إلى أنّ مفردتي «إمام» و«إمامة» ينحدران من الأمّ، (القصد)، والأُمّة، والإِمّة اشتقاقًا، لكنّ لفظ إمام كان خلوا من كلّ دلالة دينيّة سياسيّة في إجرائه الأوّل، بخلاف لفظ الإمامة الذي اقترن لغويًا بمعنى الدين والشرعة والملك. إذ كان هناك اتّصال دلالي بين الأصل اللّغوي والمعنى المستحدث لهذا المصطلح.

والسؤال الذي يطرح: متى استقرّ تصوّر مصطلح الإمامة؟ هل مصطلح الإمامة من المصطلحات الرحّالة (mobile terms)؟ وهي المصطلحات التي تحافظ على تركيبها وبنائها الصوتية لفظًا لكن تتغيّر دلالاتها مفهومًا حين انتقالها إلى مجال معرفيٍّ آخر.

باستقراء النصّ القرآنيّ عدمنا وجود مفردة «إمامة»، غير أنّنا وجدنا مفردة «إمام» تتكرّر مفردًا وجمعًا عشر مرّات، وبمعنيين مختلفين ذمًا وحمداً: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾⁽²⁷⁾، ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾⁽²⁸⁾. فلفظ إمام عرف تطوّرًا دلاليًا مع القرآن تحوّل بمقتضاه إلى مقولة دينيّة على علاقة بالإمامة، فاكْتَسَب كلاهما بعدا كلاميًا مذهبيًا وآخر تاريخيًا.

أمّا النصّ النبويّ فبالإمكان العثور فيه على هذا اللفظ، وخاصّة في مستواه العمليّ العبادي، ونقصد إمامة الصّلاة. لكنّ هذا اللفظ سرعان ما انزاح من المستوى الشعائريّ إلى المستوى السياسي، أي من الصّلاة إلى الزّعامة السياسيّة إيذانًا ببداية تشكّله الاصطلاحي وانزياحه من المستوى المعجمي العام إلى اللّغة الاصطلاحية المختصّة بمجال معرفيٍّ محدّد هو المجال السياسي، وذلك قبل

والتوزيع، 1965، ص 89.

(27) القصص 41/28.

(28) الفرقان 74/25. وردت مفردة «إمام» في النصّ القرآنيّ بمعنى «كتاب»، منها: «وَكُلِّ سَيِّءٍ أَحْضَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ». [يس 12/36]. وبمعنى «الطريق»: «وَأَنَّهُمَا لِيَأْمَامَ مُبِينٍ» [الحجر 79/15]، كما وردت بصيغة اسم الفاعل بمعنى القصد: «وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ» [المائدة 2/5].

أن يتطور دلاليًا ويتخذ تصورات ألوهية مع التشيع. ولعل سرّ اختيار الشيعة هذا المصطلح دون غيره هو أنّه «لقب يدلّ في معناه على مقام ديني ومكانة دينية ملحوظة لا توجد في غيره من الألقاب»⁽²⁹⁾.

فلئن كانت البدايات الأولى لنشأة هذا المفهوم تعبدية صرفا، إذ ارتبطت بالصلاة ظهورا فإن منطلق تشكّله السياسي كان زمن الرسول، وذلك من جهتين: الأولى كون النبي كان يجمع بين الإمامة السياسية والإمامة الدينية الروحية سلطة وصلاة، وعلى هذا التهجّج سار الخلفاء من بعده. والثانية تُعيد المصطلح إلى العهد النبوي، أي إلى إمكانية التسليم جدلا بصحة الحديث: «الأئمة من قریش»⁽³⁰⁾ الذي استدلّ به أبو بكر في السقيفة وجعله عنوانا لأحقّيته بالسلطة السياسية في مواجهة منافسيه من الأنصار⁽³¹⁾.

ولئن عثرنا على هذا الحديث في مسند أحمد دون سواء من كتب الحديث السنة، فإن الشيعة ما انفكوا يتصيّدون تأصيلا لمصطلح الإمامة بمفهومه السياسي يعودون به إلى العهد النبوي، من ذلك أنّنا لم نعرّض أيضا على الحديث القائل: «الحسن والحسين ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»⁽³²⁾ إلّا في مصنفات الشيعة.

وهكذا عبّر مصطلح الإمامة من بيئة عربية إسلامية عامّة إلى بيئة شيعية مؤسّسا ضربين من الوضع: الأصيل والطّارئ، وممتدّا دلاليًا، حاملا الملامح الأولى للفظ اللّغوي، ثمّ مشكّلا مفهومه عبر دورانه على نفسه من الشعائري إلى السياسي العقدي قبل أن ينحسر ألوهيا في وقت لاحق مع التشيع.

(29) أجنّس جولدسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام: تاريخ التطوّر العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، ترجمة محمّد يوسف موسى وآخرون، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2013، ص 196.

(30) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421 هـ - 2001 م، ج 7، ص 389.

(31) من المسلم به أنّ ترسانة كبيرة من الأحاديث المذهبية والحزبية قيلت لحظة اشتداد النزاع بين مختلف الفرق السياسية والكلامية، ويمكن للدارس أن يتنبّه إلى رائحة الوضع فيها في يسر ودون كبير عناء.

(32) رواه الشيخ المفيد في موسوعة الشيخ المفيد: النكت في مقدّمات الأصول (في علم الكلام)، تح: محمّد رضا الحسين الجلاّلي، [د.م.]، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1431 هـ، ص 48. وكذلك المسائل الجارودية، [د.م.]، مهر - المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ، ص 35.

الإمامة من العلامة إلى المتصوّر أو الإمامة من الرّصيد المشترك إلى الرّصيد المختصّ:

متصوّر الإمامة في المنظومة الشّيعيّة بمنزلة المصطلح في اللّغات والعلوم والفنون. فإذا كان المصطلح هو الوعاء الذي يحوي المفاهيم العلميّة، بل هو مفتاحها، والمكوّن الأساسيّ للغة التّخصّص، فإنّ مصطلح الإمامة هو القلب الذي يحمل المفاهيم الشّيعيّة، بل هو مفتاحها، والمكوّن الأساسيّ للتّشيع تصوّراً وفكراً. وبما أنّه لا يمكن بناء المعرفة في شتّى مجالاتها إلّا إذا توفّرت اللّغة على جهاز مصطلحيّ ذي قاعدة صلبة تتيح له تداول المفاهيم واستيعابها فإنّ مصطلح الإمامة هو عصب تفكير التّشيع اللّغويّ وعماد مفاهيمه الإجرائيّة.

تحكم هذا المصطلح وسائط نظريّة ذات بعد ألوهيّ سياسيّ، وأخرى إجرائيّة لغويّة. ورغم وجود رابطة بين الدّالتين: اللّغويّة والاصطلاحيّة، عمل الشّيعيّة على الانتقال بدلالة الإمامة من وضعها اللّغوي إلى وضع آخر، به تجاوز المصطلح دلالاته المعجميّة إلى تركيز تصوّر فكريّ مخصوص. بمعنى أنّ الإمامة تَصُمّر دلاليّاً في بعدها التّعبديّ الشعائريّ حدّ التّلاشي، ثمّ تتضخّم في بعدها السّياسي والديني حدّ التّأله عبر فعليّ التّرسّب والتّراكم؛ وهو ما يؤكّد أنّ ثمة تغيباً للمعنى الأوّلي وانحرافاً دلاليّاً عن سياق النّشأة، وتركيزاً على مفهوم القيادة الروحيّة والسّياسيّة، ذاك الذي يشكّل السّمة الجوهريّة في هذا المصطلح. ورغم الامتداد الدّلالي بين الوضع الأوّل والوضع الثّاني، فقد طغى الوضع الثّاني في الحقول المعرفيّة الشّيعيّة على الأوّل حدّ التّناسي والتّهميش نزوعاً إلى تشييته تأصيلاً وتجيّداً.

فمرور الزّمن، وبشكل تدريجيّ وضع المتكلّمون الصّوابط المنهجيّة التي سيكون لها بالغ أثر في ترابط المذهب ووحدة جهازه المفاهيميّ والمنهجيّ، على غرار عقيدة النصّ على الإمام. بمعنى أنّ مصطلح الإمامة عرف نوعاً من الاستقلال بالذّات تسمية ومفهوماً ضمن منظومة التّشيع، يدعم ذلك الجدّل الشّيعيّ المحتدم الذي أعقب وفاة إسماعيل - الخليفة المفترض لجعفر الصّادق (ت 148هـ/ 765م) - في حياة أبيه، والذي أعقبه انقسام مفصليّ وتاريخيّ حادّ، وذلك حول مدى صدقيّة التّنصيب والتّوريث الإماميّين. بما يعني أنّ الخوض

في مفهوم الإمامة لم يكن سابقا لهذا التاريخ فحسب، بل إن ذلك يؤشر أيضا على أن الخطوات الأولى لإطاره المفاهيمي (Conceptual Framework) كانت قد وضعت، وأن متعلقاته العقدية قد أنضج الجدل في شأنها واستقرت معالمها أو كادت في المخيال الشيعي عامة قبل هذا التاريخ. ولعلّ الفضل في إنشائها يعود إلى متكلمي الشيعة، الذين بلوروها ودفعوا سائر الفرق إلى البحث فيها والتّظهير. على هذا الأساس، قد لا نبالغ إن قلنا إن أبلغ إجراء وأدقّه وأكثره حزما وحسما في تاريخ المذهب هو ذاك الذي يُنسب إلى جعفر الصادق ومن سبقه وعاصره من المتكلمين، وهو ضبط مصطلح الإمامة (مركز عقيدة التشيع) ووضع أسسه العقدية الأولى، ولو أن الصادق ومعاصريه من المتكلمين تأخروا في معالجة هذا المفهوم لأعاق ذلك وتيرة تقدّم المذهب نظرا وإجراء، ولكانت عراه ربّما قد آلت إلى الانفصام والاندثار. إذ إلى الصادق يُنسب «إكمال توحيد الحركة الشيعية وتدعيمها وتأسيس قاعدة صلبة لتطوّرها العقائدي اللاحق»⁽³³⁾، كما إليه تُنسب الزّعامة السياسية والفكرية والتنظيمية والروحية الباطنية في نظر مصطفى غالب، أحد الباحثين المعاصرين المحسوبين على الإسماعيلية الذي يقول: «ومن استقراء النصوص التاريخية والعلمية الموجودة لدينا يتبين لنا أن الحركة الإسماعيلية نشأت نشأتها الأولى سنة 128 هجرية كحركة دينية علمية فلسفية تأويلية باطنية في العراق وفي الكوفة بالذات، خطّط لها ونظّمها الإمام جعفر الصادق (ع) عميد المدارس الفكرية في الإسلام»⁽³⁴⁾. لكن ذلك كان محلّ جدل وخلاف حادّين داخل الأوساط الشيعية كما سنرى.

لقد استشعر الصادق أن ضبط هذا المصطلح وتدقيقه ضرورة ملحة، وذلك لما يكتسيه من أهمية قصوى في ترسيخ انتمائه الجديد في الحقل المعرفي الشيعي بعد أن فقد انتماءه اللغويّ الأولي واستحال مصطلحا خاضعا للتّمّد المفاهيمي (Concept Stretching) قابلا للتحوّل من مدلوله الأصلي. وهذا التحوّل كان قادحا إلى توليد مصطلحات جديدة، هي عبارة عن منبثقات منه كالعصمة والحقّة

(33) فرهاد دفتري، الإسماعيليون: تاريخهم وعقائدهم، ترجمة سيف الدين القصير، بيروت، دار السّاقبي بالاشتراك مع معهد الدراسات الإسماعيلية، ط2، 2014، ص157.

(34) الحركات الباطنية في الإسلام، بيروت، دار الأندلس، ط2، 1402هـ/1982 م، ص71.

والرّجعة والغيبة والمهديّة، وهي بدورها مصطلحات لها حقول مفاهيميّة تقوم بينها علاقات متشابكة، وتسهم في توضيح مدلول المصطلح المركزي (الإمامة)، وتربطها به (علاقة الجزء بالكلّ)، فيستحيل بذلك مصطلحا رأسا ومنبثقاته فروعاً منه. ويمكن أن ندرجها ضمن الوحدات المصطلحيّة البسيطة (*Simple Term*) (*Units*)، التي هي من حيث بنيتها الصّرفيّة كيان صرفيّ معجميّ تامّ مستقلّ بنفسه. وميزة المصطلح البسيط أنّه يتوفّر فيه التجريد الاصطلاحي حسب تعبير عبد السلام المسديّ بناء على الطّاقة التّأليفيّة والكلّيّة والتّركيزيّة التي يختصّ بها⁽³⁵⁾.

ولعلّ أبرز ما يستوقف الناظر في مصطلح الإمامة ومتعلّقاتها، هو ما يوحى بمنهجية محدّدة في خلق هذه المصطلحات الجديدة التي تدور في فلك الإمامة وتساوقها، وينتبه إلى أنّ هؤلاء اللّغويّين والمتكلّمين انتهجوا ضوابط دقيقة في وضع هذه التّسميات، وصياغة هذه الاصطلاحات، وسنّ شروط سلامة تكوينها، سعياً إلى الضّبط المصطلحيّ، من ذلك الآليّة المصطلحيّة المبنية على التّمائل الصّرفيّ في صياغة مصطلح الإمامة ومنبثقاته (إمامة، عصمة، تقية، مهديّة، رجعة...).

وإذا كنّا لا نكاد نلاحظ تعدّداً في المنهجيات وطرائق الوضع المعتمدة في صياغة هذه التّسميات، إذ تنتظم في مجموعة موحّدة متماثلة نسبياً في البنى الصّرفيّة والمعجميّة وهي - بلا شكّ - لا ترقى إلى مرتبة النّظريّة المصطلحيّة الشّاملة بالمفهوم الحديث، فإنّ ذلك قد ينمّ عن وعي باكر بمنهجيات وضع المصطلح وطرق تسمية هذه المفاهيم العقديّة بطريقة اشتقاقية، من خلال تطويع هذه المنبثقات لشروط صياغة مصطلح الإمامة صوتياً وصرفياً من خلال هذه التّاء التي تمحّض كلّ هذه المشتقّات نحو الاسميّة لا نحو التّأنيث كما يبدو ظاهراً.

فهل أنّ ذلك لا يعدو كونه ضرباً من التّواضع بين من لهم أهليّة التّوليد والاشتقاق اللّغويّين؟ أو أنّ هناك إرادة تنزع إلى خلق منظومة معرفيّة لها خصوصيّتها واستقلاليتها عن السّائد المتداول ممثلاً في منظومة الخلافة وما يدور في فلكها فكراً ولغة؟ بمعنى هل إنّ مصطلح «إمامة» ضديد تقابليّ كلاميّ وبديل لغويّ لمصطلح «خلافة» المهيمن إجراءً وواقعاً وتاريخاً؟ وألا يجعل تواتر

(35) قاموس اللّسانيات مع مقدّمة في علم المصطلح، تونس، الدّار العربيّة للكتاب، 1984،

التاء في نهاية هذه المصطلحات نوعا من الإلصاق (Affixation) على الرغم من خصوصية العربية وطابع أبنيتها الصرفية الاشتقاقية أم هو نوع من انفلات الإمامة مركزا دلاليًا وثقافيًا ومن ثم كانت منبثقاته امتدادا له تركيبا ودلالة؟ ثم هل إن مصطلح «إمامة» يحيط إحاطة تامة بمدلوله؟ أي هل يستغرق مدلوله ومسماه؟ هل يحيط بصفاته وخصائصه كلها؟

قد لا نجانب الصواب إن قلنا إن تتبع منبثقاته أفقيًا، والإمام بأبعادها المعرفية، بل إن مجرد سماع مصطلحات كمصطلحات «إمامة» و«تقية» و«رجعة» و«غيبة» و«مهدية» قد يطرح في ذهن المتلقي جملة من التساؤلات حول المفاهيم والمرجعيات الثاوية وراء هذه الكلمات، وقد يكشف أن البعد التداولي لبعض المصطلحات إنما هو بعد منهجي شيعي مذهبي صرف أملت سياقات قول تنزع إلى الظهور بمظهر البديل المتفرد لغة وفكرا «جعل للشيعية نظريات اعتقادية أو أحكاما شرعية وتعبدية خاصة ميزتهم تمييزا جوهريا عن الإسلام السني»⁽³⁶⁾.

بإمكاننا القول مع آلان راي (Alain Rey) إنه بمجرد أن يستقل كل مصطلح بذاته فإنه «يأخذ شكل الصرف الحر (morphème libre) أي الكلمة غير القابلة للتفكيك»⁽³⁷⁾، على الرغم من أن الإمامة ومنبثقاتها لم تخل من زوائد اشتقاقية (Affixes) يمكن تصنيفها حسب موقع الزيادة في كل مصطلح على النحو التالي:

- سوابق (préfixes)، ومثالها [-ت-] في «تقية» و[-م-] في «مهدية».

- دواخل (infixes)، ومثالها [-ا-] في «إمامة».

- لواحق (suffixes)، ومثالها [-ة-] في كل.

ما يمكن أن يستنتج أن البناء الاشتقاقي لهذه المفردات قبل أن تستقيم مصطلحات يؤشر على طبيعة اللغة تطورا ومرونة، فـ«إمامة» مثلا اكتسب معنى التجريد بعد الزيادة (ـا-ة) من خلال ما اكتسب من صفات خاصة جديدة؛ فـ«أمم» معناها الأصلي تقدم وقاد، وبدخول عناصر الزيادة التي محضتها للاصطلاح تغيرت دلالتها تغييرا كبيرا، إذ أريد منها في وضعها الجديد وفق

(36) أجنس جولدسبير، العقيدة والشريعة في الإسلام، م.س، ص 222.

(37) Alain Rey, *La Terminologie : Noms et Notions*, Collections «que- sais-je ?», P.U.F., Paris, 1979, p.79.

التصوّر الشيعي مجموع الصفات التي يختص بها الإمام دون غيره نصّاً وعصمة ومعجزاً وسلالة علوية حسينية موسوية وإلهاماً وتأليهاً. ولعلنا في مقابل هذه المصطلحات الركائز في المتصوّر الشيعي نلمس نزعة إلى إعادة صوغ جملة من المفاهيم الكلامية كالخلافة والولاية في لغة غير لغة الرسمي السائد المرفوض من وجهة نظر شيعية عامة ومن وجهة نظر المفيد خاصة. وقد أبان المفيد عن وعي بما بين هذه المصطلحات من فروق.

بين الإمامة والخلافة والولاية:

تجدر الإشارة إلى أننا نلاحظ بين الإمامة والخلافة والولاية شبهة شكلية صوتية وصرفية (وزن فعالة) تمحّض عنه شبهة وظيفية على الرغم من التنازع المفاهيمي (Conceptual contest) بين هذه المصطلحات. فالإمامة ومنبثقاتها تتسق مع الخلافة والولاية من حيث المنهجية وضعا وبناء وشكلا وتجانسا تقريبا، فهي مجموعة من المفاهيم ذات علاقة متجانسة ومترابطة دلالية، إذ تنتهي كلها بالتاء. وقد نجد ما يسوّغ لهذه التاء، وما يوحي بوجود ارتباط دلالي بين هذه المفاهيم وغيرها المنتهية بهذا النوع من التاء إذا نظرنا في وزن «فعالة» الدال على «حرفة أو شبهة مثل: تجارة، حدادة، خياطة، وزارة، نيابة، إمارة، زعامة»⁽³⁸⁾. فإذا كانت الحرفة تعني الصنعة والكثرة والمهارة المتأبئة من أفعال الملازمة والاستمرار والمواظبة، إذ الحرفة «الدأب والدّيدن»⁽³⁹⁾. و«المُحَرِّفُ: الذي نما ماله وصلح وكثر... وأُحَرِّفَ: كدّ على عياله... واستغنى بعد فقر»⁽⁴⁰⁾، فإن هذه المتلازمات هي معان تتصل اتصالاً وثيقاً بمفاهيم الولاية والإمامة والخلافة. فالوليّ والإمام والخليفة هي مصطلحات عناوين على الإنسان الكامل في المنظومة المفاهيمية التي يدور في فلكها كلّ مفهوم وإن بدرجات متفاوتة. والمسلم به أنّها رتبة لا يعتليها إلا أفراد مخصوصون مهارة وتمرساً ومجاهدة وعلماً ودراية، أي هي

(38) يُنظر: سعيد الأفغاني، الموجز في قواعد اللغة العربية، بيروت، دار الفكر، 2003، ص 186.

(39) قاموس المعاني (معجم إلكتروني).

(40) لسان العرب، م.س، ص 90.

صنعة وكسب، إمّا ذاتي (الخليفة) أو موضوعي (الوليّ الصّوفي والوليّ الإمام الشّيعي).

من جهة أخرى، نلاحظ من خلال هذا التّناسب في الصّياغة بين المصطلحات الثلاثة، وكذلك فائض التّكثيف اللّغوي والدّلالي عند وضع هذه المصطلحات، إضافة إلى إجرائها بواسطة المصطلح المفرد لا المركّب وعيا لدى النّحاة والمتكلّمين بما يسمّى المجهود الأدنى أو الاقتصاد في اللّغة، وهو «مبدأ أساسي من المبادئ التي يستند إليها علم المصطلح في وضع المصطلحات، وغالبا ما يحقق السهولة في الأداء واليسر في الاستيعاب»⁽⁴¹⁾ والتّماسك المصطلحي والدقّة في التعبير.

لكنّ المعاجم تفرّق بين مصطلحي الولاية فتحا، والولاية كسرا. وتكاد تجمع على استخدام الولاية بمعنى النّصرة والتّوليّ، في حين تستعمل الثانية بمعنى السّلطان والإمارة⁽⁴²⁾. ولعلّ الولاية بالمعنى الأوّل هو الأقرب إلى روح الشّيع عامة والتصوّف خاصّة. ونحسب أنّ هذا بحث مستقلّ عمّا نحن منه بسبب.

مصنّفات المفيد توحى بترادف دلاليّ بين الإمامة والولاية على الفتح في المتصوّر الشيعي: «أجمعوا على أنّ عليّا (ع) كان بعد النبي ﷺ ظاهر العدالة واجبة له الولاية»⁽⁴³⁾، وترادف بين الإمامة والخلافة في المتصوّر السّني، لكن لا يبدو أنّ ثمة ما يوحى بالتقارب الدّلاليّ بين الإمامة والخلافة في المتصوّر الشيعي، على اعتبار أنّ «نزع مصطلح من منظومة مفهوميّة ذات مرجعيّة معيّنة وإطلاقه على مفهوم ينتمي إلى منظومة مفهوميّة مشابهة تعتمد مرجعيّة مختلفة قد يؤدّي إلى تعقيدات غير متوقّعة»⁽⁴⁴⁾؛ لذلك وجدنا المفيد في أغلب مصنّفات لا يورد هذه المفردة إلّا معرّضا، وبمَنْ تَمَصّصها مشنعا: «إذا تأملت قول أمير المؤمنين (ع) في خطبته في الكوفة عند ذكر الخلافة حيث يقول: فيا عجباً، بينا هو يستقيلها في حياته

(41) Helmut Felber, *terminology manual*, Unesco and Infoterm, Paris, p.114.

(42) الجوهري، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، م. س، ج 6، ص 2530.

(43) الفصول المختارة من العيون والمحاسن، [د.م]، مهر- المؤتمر العالمي لألفية الشّيح المفيد، ط 1، ص 120.

(44) على القاسمي، المعجم والقاموس: دراسة تطبيقية في علم المصطلح، مجلّة اللّسان العربيّ، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الرّباط، المغرب، العدد 48، ديسمبر (كانون الأوّل)، 1999، ص 29.

(يقصد أبا بكر)، إذ عقدها لآخر بعد وفاته (يقصد عمر)»⁽⁴⁵⁾. وحتى في المواضع النادرة التي يجمع فيها المفيد بين المصطلحين نجده يشحن الخلافة بحمولات الإمامة الدلالية الألوهية؛ من ذلك استدلاله بـ«حديث المنزلة» باستخلاف النبي علياً دون سواه عند توجهه إلى تبوك قائلاً له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فأوجب له الوزارة والتخصيص بالموّدة والفضل على الكافة والخلافة عليهم في حياته وبعد وفاته»⁽⁴⁶⁾. وفي موضع آخر يورد المفهومين تركيباً عطفياً يوهم بالتّرادف ظاهراً، لكنّه يُبطن الاختلاف والتّفضيل بدءاً بتقنية التّقديم والتّأخير: «لم يك أمير المؤمنين (ع) بالذي يحتج بباطل لاسيما وهو في مقام المنازعة والتوسّل بفضائله إلى أعلى الرّتب التي هي الإمامة والخلافة للرّسول ﷺ»⁽⁴⁷⁾.

ففي المتصوّر الشّيعي يقوى مصطلح «إمامة» على ضمّ حمولة مفاهيمية قصوى ويستوعب ما لا يستوعبه مصطلح «خلافة». لكنّ مفهوم الإمامة في المتصوّر السّني قد يلتقي في جزء منه مع الخلافة، لذلك وجدنا ابن خلدون يوائم بينهما: «الخلافة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدّنيا، به تسمّى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً»⁽⁴⁸⁾، الأمر الذي قد يكون أنتج نوعاً من الازدواجية المصطلحية استعمالاً وشيوعاً.

غير أنّ مصطلحاً الإمامة والخلافة في المتصوّر الشّيعي - ولاختيارات مذهبية - كانا عبارة عن خطّين متقابلين، بدءاً من التشقيق اللّغوي ومن استقصاء بعض دقائق المفهوم المسمّى به كلّ منهما والمستقى من دلّليتهما القديمة بالأساس، لأنّ «الخليفة استخلف في الأمر مكان من كان قبله، فهو مأخوذ من أنّه خلف غيره وقام مقامه. والإمام مأخوذ من التّقدّم، فهو المتقدّم فيما يقتضي وجوب الاقتداء به وفرض طاعته»⁽⁴⁹⁾، وانتهاء بأن استحال بفعل التّداول إلى ما

(45) الفصول المختارة، م.س، ص 247

(46) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، النّجف، المطبعة الحيدريّة، ط 2، 1973، ج 1، ص 8.

(47) نفسه، ص 97.

(48) المقدّمة، تح: محمّد محمّد تامر، القاهرة، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2005، ط 1، ص 153.

(49) الفضل بن الحسن الطّبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 1، تح: محسن الحسيني العاملي، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1994، ص 138.

يشبه القاعدة المنهجية، وهي أنّ مصطلح الإمامة علّم على التشيع في حين انزاح مصطلح خلافة نحو التسنن⁽⁵⁰⁾، وقد كان المفيد على وعي بهذا التصنيف وهو يحدّد مفهوم التشيع في قوله: «فأما إذا أدخل فيه (أي لفظ الشيعة) علامة التعريف فهو على التخصيص لا محالة لأتباع أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول - صلوات الله عليه وآله - بلا فصل ونفي الإمامة عمّن تقدمه في مقام الخلافة وجعله في الاعتقاد متبوعاً لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء»⁽⁵¹⁾.

على أنّ التصوّف قد استقلّ بمصطلح «ولاية»، وإن كنّا لا نعدم تواتره في الخطاب الشيعي للإشارة به إلى الإمام من منطلق علاقة الولاء والبراء: «(فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه)، ففرّق بينهما في الاسم بما أخبر به من فرق ما بينهما في الولاية والعداوة، وجعل موجب التشيع لأحدهما هو الولاء بصريح الذّكر له في الكلام»⁽⁵²⁾.

ما يمكن ملاحظته أنّ المسارات تتقارب بين هذه المفاهيم الثلاثة وتتداخل، لكن «في مرحلة استقرار المجال المعرفي يستأثر كلّ مصطلح بمفهوم، إمّا لكونه أظهر من حيث الدلالة اللغوية، وإمّا لشيوعه في التداول الاصطلاحي»⁽⁵³⁾. فينبغي ألاّ يُنظر إلى قضية التعدّد المصطلحي (إمامة - خلافة - ولاية) على أنّها مجرد تباين لفظي، وإنّما الفجوة من العمق بحيث تتسع لتشمل العمق المفاهيمي والخلفية الفكرية لكلّ توجه عقديّ. يهّمنا في هذا السياق أن نقارب توجه الشيعة الإمامية في الإمامة من خلال متصوّر الشيخ المفيد.

(50) Sayyed Houssein Nasr, *Islam perspectives et réalités*. Traduit de l'Anglais par H. Grès. Editions BUCHET / CHASTEL, Paris 1975, p.186.

(51) أوائل المقالات، [د.م.]، مهر - المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ، ص 35.

(52) نفسه، ص 14.

(53) ياسر بن محمّد باطّين، الاستطراد: قراءة في المصطلح والمفهوم، دراسات مصطلحية، مؤسّسة البحوث والدراسات العلميّة، معهد الدراسات المصطلحية، فاس، المغرب، العدد 13 - 14 (عدد مزدوج)، ص 126.

مصطلح «إمامة» عند الشيخ المفيد بين التصور والإجراء:

يُعدّ الشيخ المفيد واحداً من أبرز مراجع الشيعة الإمامية، وذلك لمكانته العلمية والروحية والسياسية في التاريخ الشيعي، فإلى جانب كونه إليه انتهت رئاسة الشيعة في عصره، صنّف ما يربو على مائة مصنّف في الفقه والكلام والتاريخ، أمّا مكانته الروحية فيستمدّها من الهالة الأسطورية المعاجزية التي أضفاها المخيال الشيعي على هذه الشخصية، سعياً إلى إثبات ارتباطه بالسّماء، إذ إليه تُنسب رسالتان تلقّاهما من المهدي في فترة ما اصطلح عليه بالغيبة الكبرى⁽⁵⁴⁾، فهو إذن علّم على هذه الفترة، بل هو علّم الإمامية (Les Imâmites) الأبرز خلال القرن الرابع هجريّاً، استفاد كما التشيع عموماً من ضعف الخلافة العباسية ومن هامش الحرية الفكرية والدينية التي منحها إياهم البويهيون الفرس وهم على المستوى الفكريّ معتزلة زيود، أمّا على الصعيد السياسي فهم الحكّام الفعليّون للخلافة العباسية آنذاك. وقد كانوا «القوة الجديدة ذات النسب العريق التي مكّنت الشيعة الإمامية من الوقوف في وجه خصومهم الذين حاولوا القضاء عليهم في السابق بالاستعانة بسطوة الخلافة، كما مكّنتهم من نشر آرائهم الدينية بشكل علني»⁽⁵⁵⁾، الأمر الذي حدا بالبعض إلى اعتبارهم قد تبنّوا ميولات للإمامية الاثني عشرية بغية مواجهة السّنة من العباسيين وكذلك خصومهم من الفاطميين⁽⁵⁶⁾.

سبقت ظهور المفيد على مسرح التفكير الشيعي قرونٌ هجريةٌ ثلاثة من الفعل التراكمي في حقل الإمامة نشأة ووضعاً وتطوّراً وشيوعاً. لكن لم يقرّر لهذا المفهوم قرار، إذ تنازعت فرق شيعية عديدة كبرى كيسانية وزيدية، إمامية وإسماعيلية،

(54) أوّل من أورد الرّسالتين هو أبو منصور الطّبرسي في كتابه «الاحتجاج على أهل اللّجاج»، وذلك بعد أكثر من مائة سنة من وفاة المفيد. يُنظر: أبو منصور الطبرسي، الاحتجاج، تح محمد باقر الخراسان، النجف، دار النعمان، 1966، ج 2، ص 322-325.

(55) Muhammad Hussayn Tabataba'i, *A SERIES OF ISLAM AND SHI'A (Shia-Quran in Islam- A Shi'ite Antology)*, Ansarian Publications, Qum, 2007, p.86.

(56) يُنظر: الشيخ الصدوق، إكمال الدّين وإتمام النّعمة وإثبات الرّجعة، النجف، المطبعة الحيدريّة، 1970، ص 85، والشيخ المفيد، المقنعة، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، دار المفيد، ط 1، 1413 هـ، ص 27، وكذلك: ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر، دار الكتب، [د.ت.]، ج 4، ص 258.

تفرّعت عنها عشرات أخرى، وكذلك أقوال وأفكار ورؤى متداخلة غلوًا واعتدالا، أنسنةً وتآليها، نصًا واختيارًا، عقلا وخرافة.

ولعل الخلاف الأشد والذي أرق المفيد، هو الخلاف الدّاخلي الذي طال تيار الإمامية، وجزّأها بصورة دورية إلى مجموعات صغيرة متناثرة في كلّ مرّة لا يحصل فيها انتقال سلس وطبيعي مرّن للإمامة العمودية.

في هذا الخضمّ الشيعي الفوضوي الشائك، مضافا إليه حيرة «السفارة» ومتاهة الغيبة واختلافات جمّة تنخر كيان التشيع برمته، كان لا بدّ للمفيد من أن يوجد طريقا سالكة، أو هكذا يراها. لم يختر الانكفاء والاجترار، بل اختار المواجهة عقلا وعلمًا، وانكبّ على دراسة هذه التعرّجات تقويما وتمحيصا وتكييفًا، ووضع ما سمّاه مارتن مكدرموت النظام التعليمي المركزي للإمامية⁽⁵⁷⁾.

من استباعات هذا النظام أن استقرّ متصوّر الإمامة معه تشديدا وتهديدا، تكريسا وتثبيتا وفق التصرّور التسلسلي للإمامية الاثني عشرية (Chiites duodécimains) الذين ابتعثهم من العدم والانتظار، واستطاع بتصديده للفرق الشيعية حجة وبرهانا راب الصّدع الذي حلّ بهم، ورتق الانشقاق الذي مزّقهم كلّ ممزّق، لكن هل كان المفيد عقليًا فعلا؟

ما يلفت النظر أوّلا أنّ الشيخ المفيد يحكمه وعي منهجي مفاهيمي في مصنّفاته عامّة وأوائل المقالات خاصّة، فنراه منذ الصّفحات الأولى وعلى امتداد الكتاب يحرص على تكريس نوع من الضبط المفاهيمي والمقارني وهو يعالج مسألة الفرق، إذ بضدها تميّز الأشياء كما تقول العرب، والمقارنة في نظر بيرلمان من الحجج شبه المنطقية (Arguments quasi-logiques) لأنّ «فكرة القياس مضنّنة في ملفوظها واللّجوء إليها يهدف إلى الإثارة أكثر ممّا يهدف إلى الإخبار»⁽⁵⁸⁾، وهو توجه عقليّ توخّاه المفيد وهو يدرس مجالات عصره المعرفية أصولا اعتقاديّة ومسائل عقلية وكلامية، وكذلك مبادئ الإمامية عامّة ورؤيتهم

(57) نظريّات علم الكلام عند الشّيخ المفيد، تعريب علي هاشم، مشهد- إيران، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرّضوية المقدّسة، ط 1، 1403 هـ، ص 175.

(58) Chaim Perelman et Lucie Olbrechts- Tyteca, *Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique*, Editions de l'université de Bruxelles, 3^{ème} édition, Bruxelles, 1976, pp 326-330.

في الإمامة خاصّة تأسيساً وتشبيهاً. من ذلك قوله مقارنة بين الإمامية وسائر الفرق في الشروط الواجب توفّرها في الإمام: «اتفقت الإمامية على أنّ الإمامة لا تثبت مع عدم المعجز لصاحبها إلا بالنّص على عينه والتّوقيف، وأجمعت المعتزلة والخوارج والزّيدية والمرجئة والمتسمّون بأصحاب الحديث على خلاف ذلك، وأجازوا الإمامة في من لا معجز له ولا نص عليه ولا توقيف»⁽⁵⁹⁾.

وما يمكن استنتاجه من هذا النمط في المعالجة والتّفكير أنّ الشيخ المفيد يخوض نمطين من المعارك الفكرية قصد إحداث تغيير في موقف المتلقّي الفكريّ والعاطفيّ: إحدى هذه المعارك خارجيّة تستهدف الخصوم من معتزلة وأشاعرة وخوارج ومرجئة وغيرها، والأخرى داخلية موجهة إلى البيت الشّيعي بشتّى تفرعاته كالزّيدية وكذلك الفرق التي انشقت عن الإمامية كالكيّسانية والسّليمانية والبرّية والجارودية⁽⁶⁰⁾.

ولمّا كان المصطلح «بنية لغويّة وحمولة مفاهيميّة»⁽⁶¹⁾، وكان المصطلح وعاء للمفهوم السّابق له، فإنّ المفيد الذي وجد مصطلح الإمامة جاهزاً وضعاً وتوليداً، ولكن بمفاهيم شتّى، فإنّه قام بتهديب حمولته المفهوميّة بما يتواءم وروح الشّيع الإمامي الاثني عشري، لذلك نراه يصرّ على ألوهية مصطلح الإمامة القائم على العصمة والنّص والمعجز والسّلالة العلويّة الحسينيّة وعلى محوريّة مصطلح الإمام عقيدة ووجوداً، فهو من القداسة بحيث عليه يتوقّف الوجود الإنساني والكوني عموماً، ومن الامتداد بحيث لا تسعه الأرض: «الأرض لا تخلو من حجة»⁽⁶²⁾.

فعلى يدي المفيد اكتمل هذا المصطلح ونضج، فهو القاعدة التي بنى وفقها نسق الشيعة الفكري، أو لنقل ثبت الكثير من مبادئها ومتعلقاتها، وربّما حسم فيها

(59) أوائل المقالات، ص 40.

(60) خصّ المفيد الجارودية بمصنّف سمّاه «المسائل الجارودية». وهم فرقة تنسب إلى أبي الجارود زياد بن أبي زياد. من الشيعة الزيدية، ثمّ انشقوا عنهم وقالوا بإمامة محمّد الباقر، ثمّ انشقوا عنه. يُنظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، م.س، صص 183 - 185.

(61) Marie-Claude L'Homme, *Sur la notion de « terme »*, la revue Meta, volume 50, n°4, décembre 2005, les Presse de l'Université de Montréal, p.1112.

(62) الشّيخ المفيد، الرّسالة الثّانية في الغيبة، تح: علاّ آل جعفر، [د.م]، مهر، المؤتمّر العالمي لألفية الشّيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ، ص 15.

الجدل حسما نهائياً، حتّى أن من عاصره أو أتى بعده كان عالية عليه. كما رفع شعار الاجتهاد والتّجديد بعيداً عن قوالب التّقليد، لكن في الأحكام الفرعية لا في الإمامة التي جعلها أصلاً من الأصول الموازية للوحي والنبوة، وبناها على أقوال الأئمة وعلى التّقليد والمعاجز الأسطورية، وأحيانا الأخبار الضّعيفة والمتهافة والتّأويلات الباطنية والمتعسّفة لبعض آيات القرآن أحيانا أخرى⁽⁶³⁾، فهو يرفض الأحاديث الضّعيفة من حيث المبدأ، لكنّه قد يغصّ عنها الطرف عند الاستدلال على الإمامة ويطلق عليها صفة التّواتر رغم كونها مختلقة مذهبيّة مشكوكا في صحتها، أو مختلفا في مناسبة قولها، منها حديث الاثني عشر: «الأئمة من بعدي عددهم عدد نساء موسى عليه السلام، اثنا عشر إماما»⁽⁶⁴⁾، وحديث الغدير (الولاية)، وحديث الثّقلين، وحديث الكساء، وحديث المنزلة، وحديث السفينة...

فالسّلطة الفوقيّة للإمامة لا تجعلها فوق كلّ الأحكام الفقهيّة والأصوليّة فحسب: «ليس يضرّ الإماميّة في مذهبها الذي وصفناه عدوّ التّواتر في أخبار النصوص على أئمتهم (ع) ولا يمنع من الحجّة لهم بها كونها أخبارا آحادا لما اقترن إليها من الدّلائل العقلية فيما سمّيناه وشرحناه من وجوب الإمامة وصفات الأئمة»⁽⁶⁵⁾، بل تسمو بها إلى ما فوق الاعتبار والقوانين الكونية كردّ الشمس لعلّيّ وتوقّفها له مرّتين، وقلعه صخرة عجز أصحابه مجتمعين عن قلعها، ومبارزته مع طائفة من الجنّ، وتكلّم الحيتان معه⁽⁶⁶⁾...

هذا التّدذب، أو ما يبدو تناقضا من المفيد يدعمه قوله: «متى وجدنا حديثا يخالفه الكتاب ولا يصحّ وفاقه له على حال اطرحناه، لقضاء الكتاب بذلك وإجماع الأئمة عليه. وكذلك إن وجدنا حديثا يخالف أحكام العقول اطرحناه لقضية العقل بفساده»⁽⁶⁷⁾.

(63) أحمد الكاتب، الشّيخ المفيد مؤسس المذهب البويهي (الاثني عشري): دراسة في منهج التّفكير والاجتهاد، القاهرة، دار رؤية للنشر والتّوزيع [د.ت.]، صص 72-73.

(64) موسوعة الشّيخ المفيد: النّكت في مقدّمات الأصول (في علم الكلام)، م.س، ص 48.

(65) الشّيخ المفيد، المسائل الحاروديّة، م.س، صص 46-47.

(66) يُنظر: الشّيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، م.س، صص 193-201.

(67) تصحيح اعتقادات الإماميّة، قم، المؤتمر العالمي لأفنية الشّيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ، ص 149.

من الرَّاجح أنَّه في ظلِّ غياب نصِّ قرآني صريح باتَّ في إمامة وعليٍّ وبنيه، عوَّل الشيعة على النصِّ النبويِّ استنتاجاً وتأويلاً، حتَّى استقرَّت لديهم جملة من الأحاديث، اختُزِلت تسميةً حتَّى استقرَّت مصطلحات مركَّبة أو وحدات مصطلحيَّة تتَّخذ شكل المركَّب الإضافي ويرتبط فيها الموصوف بالصفة أو المحدَّد (Détermié) بالمحدَّد (Déterminant): (حديث الثقلين، حديث الكساء...) للاستدلال على الإمامة عامَّة وإمامة عليٍّ بشكلٍ أخصَّ، ممَّا يوحي بأنَّ نقطة الارتكاز الدَّلالي أو ما سمَّاه سنفورد شين (Sanford Schane) النِّبر الأقوى إنَّما هو واقع على العنصر الثَّاني من المركَّب: «الثقلين، الكساء، الولاية...»، لا على العنصر الأوَّل (حديث)، وهو الأضعف، أي أنَّ العنصر الثَّاني هو المحدَّد والمميِّز للعنصر الأوَّل المحدَّد⁽⁶⁸⁾.

والمُلاحَظ أنَّها سمة كلِّ وحدة مصطلحيَّة مركَّبة تركيباً اسمياً مهما كان نوع الاسم «يتوسَّل بها المصطلحيون لتحديد الميدان المعرفي، ولتأمين الحصر الدَّلالي الذي يقوم على عزل المفهوم عن مفاهيم مجاورة عاملة في حقول معرفيَّة أخرى، وعلى تقييده وتخصيصه بالقياس إلى مدلول اللَّفظة المعجميِّ العام»⁽⁶⁹⁾. ودور هذا المركَّب تدقيقي، إذ أنَّ جنس «حديث» تشترك فيه أحاديث نبويَّة كثيرة ومتنوعة، ونقطة الارتكاز والحصر الدَّلاليين واقعة على مضمون الحديث أو ما تعلَّق به الحديث. أمَّا إجراؤها صفةً فإنَّما هو عبارة عن «تخصيص تنتقل بموجبه المفردة من دائرة المعجم إلى سجلِّ الاصطلاح. فبالمركب الاسمي ينتفي قدرٌ كبير من التعدُّد والاشتراك، وبه يتسنى للمصطلح أداء وظيفته المرجعية بنجاته من اللَّبس والغموض»⁽⁷⁰⁾.

(68) Sanford A. schane, *Generative Phonology*, PRANTICE HALL, INC, Engwood Cliffs, New Jersey, 1973, pp. 101-103.

(69) سعيد الخَلَّادي، المعجم والمصطلح بين الاختلاف والائتلاف، منتدى مجمع اللغة العربيَّة على الشَّبكة العالميَّة:

www-a-arabia.com، 05/12/2017.

(70) سعيد الخَلَّادي، المعجم والمصطلح بين الاختلاف والائتلاف، منتدى مجمع اللغة العربيَّة على الشَّبكة العالميَّة:

www-a-arabia.com، 05/12/2017.

من جهة أخرى، هذه الأحاديث مبنية بناء حجاجيًا، القصد منها: «توجيه المتلقي عن طريق الملفوظ نحو نوع محدد من النتائج وإقصاء ما سواها»⁽⁷¹⁾، ولكنها تسترعي العواطف والوجدان بدل العقل والبرهان. تجلياتها الأبرز إغراق المفيد في المعاجز وهو ما ينافي العقل والنص القرآني أيضا. وقد يفهم ذلك من جهة كون المفيد محكوما باستراتيجية دفاعية اندفاعية ترنو إلى تثبيت الإمامة الألوهية بكل الوسائل وتأصيل السلسلة الاثني عشرية في مرحلة تاريخية حرجة جرّاء مأزق الانتظارية ومتاهة الغيبة الطويلة، والسمو بالإمامة من عالم الأرض الذي لفظها إلى عالم السماء عساه يقبلها.

فالمفيد كان وجها لوجه مع لحظة أفول نجم «السفارة» بلا رجعة، وما أحدثه القرار من رجّة واهتزاز ما كان ممكنا الفكك منهما إلا بتوظيف كل الأدوات والأسلحة، فكانت الأساطير والمعاجز في مواجهة العوام من الأتباع، وكان الفكر الاعتزالي رافعة فكرية لا بديل عنها⁽⁷²⁾، استند إليها للتصدي لا للخصوم فحسب، ولكن أيضا للمتشككين من خواص الأنصار الذين قد لا يستهويهم خطاب الظنّ والتهويم والدوغمائية الذي ينحو نحو النزعة الباطنية في مقارنة متصور الإمامة. إنّ هذا التمزق بين الخطاب المؤسس على ما تقتضيه العقول والخطاب المبني على اللامعقول، جعل المفيد خصوصا والإمامية عموما يغضبان الطرف عما قد يفرزه من إرباك وارتباك ظرفيين في سبيل تجاوز الوهن والفراغ الذي أحدثته الغيبة والتأسيس لقاعدة شرعية ملزمة ستؤسس لنظرية سياسية واضحة المعالم تضادّ السائد القائم على الغلبة وقوة الشوكة.

يعود المفيد إلى اللحظات التأسيسية الأولى، لبني عليها المسار العقديّ الإمامي برمّته، فراه يسلم بإمامة كل من الصادق وأبيه الباقر على الرغم من كونها كانت محلّ خلاف شديد بين الشيعة. يقول ناسبا القول إلى الصادق استنادا إلى سلسلة من الرواة طويلة: «إنّ الله فرض ولايتنا وأوجب مودّتنا، والله ما نقول بأهوائنا ولا نعمل بأرائنا ولا نقول إلّا ما قال ربنا عزّ وجل»⁽⁷³⁾. ويسند إليهما

(71) Jean Claude Anscombe et Oswald Ducrot, *L'argumentation dans la langue*, Pierre mardaga éditeur, Bruxelles, 1983, p.30.

(72) يُنظر: مارتن مكدرموت، نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد، م.س صص 89 - 93.

(73) الشيخ المفيد، الأمالي، قم، دار التيار الجديد - دار المرتضى، المجلس السابع، 1413

من الأحاديث ما لا يخلو من غرابة متنا وتقوّل لفظاً إلى الحدّ الذي يسلب فيه من الخصوم الحدّ الأدنى من المشترك العقدي، على غرار قوله المنسوب للباقر والصادق: «نادى رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فحضروا بالسّلاح وصعد النبي ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معاشر المسلمين من أبغضنا أهل البيت بعثه الله يوم القيامة يهودياً»⁽⁷⁴⁾، وكذلك قوله في المخالفين: «اتّفقت الإمامية على أنّ من أنكر إمامة أحد الأئمة وجحد ما أوجبه الله تعالى من فرض الطّاعة فهو كافر ضالّ مستحق للخلود في النار»⁽⁷⁵⁾.

كما يغرق المفيد في تأليههما إلى حدّ تلقّي الوحي المباشر من الذات الإلهية من خلال الحديث الذي يسنده إلى سالم بن أبي حفصة لما دخل على جعفر الصادق معزياً في وفاة والده الباقر: «كنا نستعظم قول أبي جعفر (ع) قال رسول الله ﷺ بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله (ع) قال الله عزّ وجلّ بلا واسطة»⁽⁷⁶⁾.

لكن دعوى الألوهية القائمة على ارتباط الإمام بعالم الغيب سرعان ما انهارت أمام تحدّيات الواقع العملي ومجريات الأحداث ومقتضيات النصّ، فكلّما غرق الإمام في مأزق ما اضطرّ إلى المواربة والتبرير، ممّا كان له عميق الأثر على الأتباع شكّاً في الارتباط بالله تعييناً وتصصيماً، فالشرح النصي الذي أوقعه انقطاع الإمامة بموت إسماعيل قبل والده دفع الصادق إلى التشريع للبداء⁽⁷⁷⁾، وإلى إصدار فتاوى وأجوبة فقهية متناقضة تُعلّل غالباً بالتقيّة. كلّ

هـ، ص 60.

(74) نفسه، ص 126.

(75) أوائل المقالات، ص 44.

(76) الأمالي، م.س، ص 354.

(77) تجدر الإشارة إلى أنّ القول بالبداء يعود إلى المختار بن عبيد الثّقفي الملقّب بكيسان (ت 67 هـ)، وإليه تنسب فرقة الكيسانية، قال بإمامة محمّد بن الحنفية، بعد عليّ بن أبي طالب. وانتسب إليه علما ودعوة وقتالا وثأراً للحسين. وقد صدرت منه نزعات باطنية. والبداء هو أن يظهر لله خلاف ما يعلم أو خلاف ما يريد أو خلاف ما يأمر. وقد كان يوظّف هذه المقولة وفقاً للهِوى والضرورة، فإذا وافق قوله فعله كان ذلك دليلاً على صدقيته، وإن خالفه، كان يقول لأصحابه: بدا لربكم فيه. ويبدو أنّ جعفر الصادق التقط هذه المقولة تبريراً لمأزق التّوريث الطّارئ على سلسلة الأئمة الاثني عشرية. أمّا مرجعية هذا المصطلح التأصيلية فتستند إلى النصّ القرآني: «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنتَهُ حَتَّىٰ حِينٍ» [يوسف 12 / 35]. يُنظر: الشهرستاني، الملل والنحل، م.س، صص 170 - 172.

ذلك شرّع للانشقاق والانقسام⁽⁷⁸⁾. ففي ظلّ تشرذم التشيع عامّة وتشطّي الإماميّة خاصّة فرقا وجماعات، كان لا بدّ للمفيد من أن يكون مهووسا بمسألة التوحيد والاحتواء والبرهنة على صدقيّة الإماميّة، فهو يعنت نفسه وخصومه بالألّا يقبل إلّا بالمتصوّر الإمامي للإمام الجامع المانع - في نظره - الذي يستوعب كلّ خصائص المسمّى بصفاته وعمله نصّا وعصمةً ومعجزاً، حرصاً منه على أن يكون الاسم هو المسمّى نفسه، معتبراً ألّا أحقيّة للإمام المسلوب من كلّ علاماته صفاتٍ وخصائص. فكان مجادلاً بارعاً، ماهراً في استدراج خصومه إلى حيث يقف، تجلّى ذلك لدى محاججته الزيدية لما سأله مبررات إنكاره إمامة زيد بن عليّ، فكان ردّه أن استدرجهم بما سمّاه بيرلمان «الأرضيّة المشتركة بين الباث والمتلقّي»، وذلك بالقول: «أنا أثبت من إمامة زيد ما تثبته الزيدية وأنفي عنه من ذلك ما تنفيه، فأقول إنّ زيدا رحمة الله عليه كان إماماً في العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنفي عنه الإمامة الموجبة لصاحبها العصمة والنص والمعجز. وهذا ما لا يخالفني عليه أحد من الزيدية حسبما قدّمت»⁽⁷⁹⁾.

وتجلّى ذلك أيضاً مع الجاروديّة التي اتّفقت مع الإماميّة «على أن الإمامة كانت عند وفاة النبي ﷺ لأُمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وأنها كانت للحسن بن علي (ع) من بعده وللحسين بن علي بعد أخيه (ع) وأنها من بعد الحسين من ولد فاطمة (ع) لا تخرج منهم إلى غيرهم ولا يستحقّها سواهم ولا تصلح إلّا لهم، فهم أهلها دون من عداهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. ثم اختلف هذان الفريقان بعد الذي ذكرناه من اتفاقهم على ما وصفناه»⁽⁸⁰⁾.

فلكأننا بالمفيد يريد محاصرة الخصوم والمخالفين بكون الجاروديّة تتفق مع الإماميّة جوهرًا ومبتدأً ومساراً وأنّ انشقاقها عنها انتهاء هو عرضي شكلي لا غير. غير أنّ استدلالات المفيد ودعاواه سرعان ما تتهاوى اضطراباً وتناقضاً عندما يواجهه الجاروديّة بالألّا مبرّر عقلياً ولا أخلاقياً مطلقاً لحصر الإمامة في ولد فاطمة

(78) فرقة الكيسانيّة هم الذين شنّوا على الإماميّة في مقالتي «البداء» و«التقيّة» المنسوبتين للباقر والصادق. يُنظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، م.س، صص 186 - 187.

(79) الفصول المختارة، م.س، ص 340.

(80) المسائل الجاروديّة، م.س، ص 27.

بل في الحسين وذريته تحديداً دون الحسن وسائر أبناء عليٍّ إمام الإمامية الأول، معتبرين ذلك ضرباً من العار والتقصير⁽⁸¹⁾.

قد لا نبالغ إن قلنا إن انتصاره المطلق للحسين والأئمة من صلبه دون الحسن هو في الحقيقة طعن ضمني في أحقية الحسن بالإمامة وفي كفاءته السياسية وأفضليته العلمية باعتباره إماماً، وذلك من حيث أراد البرهنة على أفضلية السلسلة الاثني عشرية. يقول المفيد: «إن ولد الحسين (ع) إنما اختصوا بالإمامة لفضلهم على كل من عداهم من بني عمهم وغيرهم في المعاني التي يستحق بها الإمامة من العلم والورع والبصيرة بالتدبير والسياسة»⁽⁸²⁾. وحول امتلاك الإمام العلم الكلي المطلق يقول المفيد: «إن الأئمة من آل محمد ﷺ قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد ويعرفون ما يكون قبل كونه»⁽⁸³⁾.

وعندما يشتد الخناق على المفيد وهو يناظر الجارودية وتعوزه الحجة والبينة على إجراء الإمامة في الحسين وذريته دون سواهم نراه يواجههم بأنهم والإمامية يتساوون في فقدان هذا الدليل، وبالتالي أي فضل لهم في ذلك، مادام هذا الإصرار على المطالبة به لن يستفيد منه إلا الخصوم من معتزلة ومرجئة وحشوية وخوارج وكيسانية النافين أصلاً لمفهوم النص والقائلين بالشورى والاختيار بدلاً منه؟⁽⁸⁴⁾.

المفيد ومتصور البداء:

لم يكن الشيعة الإمامية بمعزل عن واقع الجدل الفكري والمناظرات الكلامية السائدة. ولما كانوا في حاجة إلى بلورة نظرية اعتقادية مستقلة لم يكن لهم من بدّ شأنهم شأن أغلب الفرق - من أن يستفيدوا من مبادئ الاعتزال بوصفها قواعد لبراهينهم في شتى قواعد المذهب بما فيها الإمامة⁽⁸⁵⁾. والشيخ المفيد لم يشدّ عن

(81) نفسه، ص 31.

(82) المسائل الجارودية، م.س، ص 31.

(83) أوائل المقالات، ص 67.

(84) المسائل الجارودية، م.س، صص 34 - 35.

(85) يُنظر: جولد تسيهر، العقيدة والشرعية في الإسلام، م.س، صص 222 - 224. الالفت للنظر أن مفكر الشيعة الإمامية قديماً وحديثاً ينفون تأثرهم بالمعتزلة نفياً قاطعاً، والحال أنه من الإجحاف الزعم بأن الاعتزال قد اندثر فكراً وانحسر تأثيره. بل لا يزال حضوره واضح المعالم لا في الفكر الشيعي فحسب بل في الفكر الأشعري والخارجي وغيره.

هذا المسار، فقد بدا أكثر اعتدالا ونزوعا إلى الاستئناس بالعقل المعتزلي محاولا قدر الإمكان الظهور بمظهر الرافض للمنهج الباطني⁽⁸⁶⁾ وهو يقارب الكثير من مباحث الإمامة وخصائص الإمام، وانصبّ جهده على إثبات السلسلة الاثني عشرية، بدءا بمحاولة رَأب الشَّرْخ الذي أحدثته الوفاة غير المنتظرة في المتصور الشيعي لوفاة إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق في حياة أبيه، وانشقاق قسم من الإمامية إثر هذا الزلزال في التسلسل الإمامي، مروراً بدحض عقيدة الفرقة «الواقفية» التي انتحت في شأنه منحى باطنياً رفضت بمقتضاه الإقرار بوفاة موسى الكاظم، معتبرة أنه سيبعث مهدياً بعد الغيبة⁽⁸⁷⁾، وانتهاء بالإمام الثاني عشر محمد المهدي وتبرير غيبته الطويلة. وقد وجدنا المفيد يطنب من التوسّل بالاستفهام المقارني آلية حجاجية يستدلّ بمقتضاها على شرعية الإمامة، والاستفهام عند ديكرو (Oswald Ducrot) «يُنشئ فعل الإلزام بالردّ، إلى درجة أن مجرد التّلفظ به يستحيل حجة توجّه المتلقّي نحو نتيجة ضمنيّة». وممكن حجاجيته في طاقته التوجيهية نحو نتيجة ضمنيّة غير مصرّح بها⁽⁸⁸⁾.

يقول الشريف المرتضى ناسبا القول إلى الشيخ المفيد: «يُقال لهذه الفرقة (أي الواقفية): ما الفرق بينكم وبين النّاوسية الواقعة على أبي عبد الله (ع) والكيسانية الواقعة على أبي القاسم بن الحنفية رحمة الله عليه والمفوضة المنكرة لوفاة أبي عبد الله الحسين (ع) الدافعة لقتله والسبائية المنكرة لوفاة أمير المؤمنين (ع) المدّعية حياته والمحمدية النّافية لموت رسول الله ﷺ المتديّنة بحياته، وكلّ شيء راموا به كسر مذاهب من عدناهم فهو كسر لمذاهبهم و دليل على إبطال مقالاتهم»⁽⁸⁹⁾.

حاول الشيخ المفيد من خلال قياسه العقليّ السّابق التّفصّي من المنطق الباطني الذي استند إليه الواقفية الذين أنكروا وفاة موسى الكاظم، معرّضا بصورة ضمنيّة

(86) يلاحظ أنّ المفيد يتعاطى مع التّوجّه الباطني تعاطيا براجمائيا وفق ما تمليه مقتضيات المذهب، إذ يرفضه في مواجهة الخصوم، ويقرّ به انتصارا للمذهب، على غرار دفاعه المستमित تبريرا لغيبة الإمام الثاني عشر.

(87) يُنظر: الشّهستاني، الملل والنحل، مج 1، م.س، ص 198.

(88) Oswald Ducrot, *interrogation et argumentation*, In: Langue française, n°52, 1981. L'interrogation, pp. 20-21. [www.persee.fr].

(89) الشريف المرتضى، الفصول المختارة، م.س، ص 314.

بالإسماعيلية الذين رفضوا وفاة إسماعيل بن جعفر الصادق. وقد حاول معالجة المأزق بطريقة عقلية، لكن لا تخلو من مخالطة، وذلك بنسف نظرية البداء التي استند إليها الصادق، معتبرا إياها محض عبث يستحيل على الذات الإلهية أن تأتيه في أمر من الخطورة بمكان كالإمامة استبعادا واستقباحا: «مهما بدا لله في شيء فلا يبدو له في نقل نبي عن نبوته ولا إمام عن إمامته»⁽⁹⁰⁾، خارقا التمشي الإمامي في الابن الأكبر، معتبرا إياه محض ظن: «إنما كان الناس في حياة إسماعيل يظنون أن أبا عبد الله (ع) ينص عليه لأنه أكبر أولاده»⁽⁹¹⁾، مكذبا النص عليه أصلا: «وأمّا إذا كان المعلوم من حاله أنّه يموت في حياته ولا يبقى بعده فليس يجب ما ادّعوه بل لا معنى للنص عليه، ولو وقع لكان كذبا... وإذا علم الله أنه يموت قبل الأول وأمره باستخلافه لكان الأمر بذلك عبثا»⁽⁹²⁾.

ولعل وجه المخالطة أنّه لم يملأ الحلقات المفقودة في هذه المسألة من قبيل تغييبه الحديث في مشروعية الانقسام الإمامي المفصلي الذي أعقب هذه الوفاة وكان له ما بعده من تحولات سياسية كبرى جزأت الجسم الشيعي المجزأ أصلا؛ كل فرقة تنتسب إلى أبناء الصادق الثلاثة الآخر في ظل غياب النص، وكذلك معالجته حديث البداء المنسوب إلى الصادق: «ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل ابني»⁽⁹³⁾ تأولا، وذلك بكونه رجوعا من الله عن الإذن بقتل إسماعيل مرتين، ولا علاقة للحديث بالإمامة في نظره⁽⁹⁴⁾.

ونشير إلى أن سلفه الشيخ الصدوق تأول الحديث بطريقة أخرى، وهي أن الله «اخترمه (أهلكه واستأصله) في حياتي (حياة الصادق) ليُعلم بذلك أنّه ليس بإمام بعدي»⁽⁹⁵⁾. أمّا الكليني فينسب إلى الصادق حديثا متعدّد الرواة يغرق في الباطنية، يتفصّل فيه من التعيين والتّصيص الذاتيين، وأنّ الأمر ليس إليه، وإنّما هو إنزال وتنزيل وترتيب إلهي، لأنّ للإمام - في نظره - صفات باطنية لا يعلمها إلا الله:

(90) نفسه، ص 309.

(91) نفسه.

(92) نفسه، ص 308.

(93) كمال الدين وتمام النعمة، م.س، ص 67.

(94) الفصول المختارة، م.س، ص 309.

(95) يُنظر: كمال الدين وتمام النعمة، م.س، ص 69.

«كنت عند أبي عبد الله (ع)، فذكروا الأوصياء وذكرت إسماعيل، فقال: لا والله يا أبا محمد ما ذاك إلينا وما هو إلا إلى الله عزّ وجلّ ينزل واحدا بعد واحد»⁽⁹⁶⁾.
 لكنّ موقف المفيد من مفهوم البداء بدا أكثر مرونة ونزوعا إلى العقل في «أوائل المقالات»، وفي «تصحيح اعتقادات الإمامية»: «لو لم يرد عليّ سمع بأنّ الله تعالى يغضب ويرضى ويحبّ ويعجب لما أطلقت ذلك عليه - سبحانه - ولكنه لما جاء السمع به صرتُ إليه على المعاني التي لا تأبأها العقول»⁽⁹⁷⁾.

الإمامة والقصاص القرآني:

دور المفيد تبريري في لبوس تأسيسيّ كما سبق الذكر. ومن العضلات الشائكة التي واجهته دائما ضمن القلب التورثي التسييجي للكون والتاريخ والإمامة هي مشكلة اضطلاع الصّبية بالإمامة ممثلة في محمد الجواد (ت 220 هـ) وابنه عليّ الهادي (ت 254 هـ)، ثمّ محمد المهدي (ت 260 هـ)، ممّا اضطرّ المفيد إلى استدعاء بعض النماذج النبوية حجّة شرّع بها إمكانية إجراء الإمامة في صغار السنّ قياسا، وهو قياس سليل مقولة الوراثة في نظرية الإمامة الإلهية التي تعتبر أنّ التراث الرّوحي انتقل لكثير من الأنبياء في ذرياتهم، استنادا إلى الآية: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ»⁽⁹⁸⁾. يقول المفيد: «على أنّ ما اشتبه عليهم من جهة سنّ أبي جعفر (ع) فإنّه بيّن الفساد، وذلك أنّ كمال العقل لا يستنكر لحجج الله تعالى مع صغر السنّ. قال الله سبحانه: «قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»، فخبّر عن المسيح (ع) بالكلام في المهد. وقال في قصّة يحيى (ع): «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». قد أجمع جمهور الشيعة مع سائر من خالفهم على أنّ رسول الله ﷺ دعا عليّا (ع) وهو صغير السنّ، ولم يدع الصّبيان غيره، وبأهل بالحسن والحسين (ع)، وهما طفلان، ولم يُر مباحل قبله ولا بعده باهل بالأطفال. وإذا كان

(96) أصول الكافي، بيروت، منشورات الفجر، ط1، 2007، ج1، ص166.

(97) أوائل المقالات، ص80.

(98) الحديد 26/57.

الأمر على ما ذكرناه من تخصيص الله تعالى حججه على ما شرعناه بطل ما تعلق به هؤلاء القوم»⁽⁹⁹⁾.

ولعل هذا الإغراق في الاستدلال على الجواد والهادي إنما هو في الحقيقة تشريع للقبول بالمهدي، الأصغر سنًا من سابقه، بل الأكثر جدلاً وغمراً وشكاً وإرباكاً لا نصاً فحسب بل صدقية وجود تاريخي أيضاً. وكلاهما أعوز الدليل فيهما المفيد، فلم يجد من بدّ سوى أن يلجأ إلى مقولة اللطف التي بدا وجودها إقحاماً هشاً زاد استدلالاته تكلفاً وتصنعاً: «اللطف الواجب على الله تعالى في الإمام هو نصبه و تكليفه بالإمامة، والله تعالى قد فعل ذلك، فلم يكن مخالفاً بالواجب، وإنما الإخلال بالواجب من قبل الرعية، فإنهم يجب عليهم أن يتابعوه ويمثلوا أوامره ونواهيه ويمكّنوه من أنفسهم، فحيث لم يفعلوا ذلك كانوا مخلفين بالواجب»⁽¹⁰⁰⁾.

الخاتمة:

يُستخلص ممّا تقدّم ما يلي:

- مصطلح «إمامة» تسمية ذات هويّة مضاعفة: لسانية وأخرى عرفانية (Gnosticism). لسانية بشكلها عرفانية بدلالاتها. والجمع بين الهويتين هو الذي جعل منها وحدة لغوية معجمية ذات مرجعية كلامية غنوصية.

- الإمامة وحدة مصطلحية بسيطة يمكن أن تنتمي إلى أكثر من نظام مصطلحي، وهذا لا يعني كونها من المشترك اللفظي. فهي في الحقول المعرفية الشيعية غيرها في مجالات بقية الفرق المعرفية، وكذلك في المجال التعبدي رغم وحدة الأصل اللغوي في كلّ.

- الإمامة هي روح التشيع ومرتكز وجوده، والقاعدة العقائدية العليا التي تميّز الشيعة عن سائر الفرق الكلامية، إذ أنّ شتى المجالات العلمية والمعرفية كالعقيدة وعلم الكلام وعلم الحديث وعلوم القرآن تستمدّ وحدتها واتساقها من الإمام أو ممّا يُنسب إلى الإمام تشريعاً وتنظيراً.

(99) الفصول المختارة، م.س، ص 316.

(100) الشيخ المفيد، النكت الاعتقادية، م.س، ص 45.

- نظم المفيد متصور الإمامة الإلهية لبنة لبنة، وكان همّه المركزي تثبيت حدّ واضح لها، قوامه إثبات إمامة السلسلة الاثني عشرية مشروعية وترتيباً، بدءاً بعليّ وانتهاً بالمهدي.

- لئن اعتبرنا تجوّزا محاولة الشيعة التأسيس لقاعدة شرعية ملزمة تؤسّس لنظرية سياسية واضحة المعالم فإنّ ما شهدته نظرية الإمامة الإلهية من انعراجات واهتزازات وانقسامات تشي بهشاشة هذه النظرية وعدم قيامها على أدلة قوية ونصوص واضحة وصريحة ومتواترة ولا حتّى أخباراً آحاداً. إضافة إلى كونها تركز على الشخص لا النظام، هذا الشخص هو الإمام أو بالأحرى عقل الإمام، ولذلك سمّيت بالإمامة.

- أقام المفيد شرعية الأئمة الاثني عشرية على العصمة والنصّ والمعجز، ولمّا أعجزته الأدلة والبراهين القاطعة في النصّ والعصمة لجأ إلى المعاجز لإثباتها، لأنّه وفق المنطق الشيعي لا تثريب على الأئمة في إتيان المعجزات ماداموا صنوا للأنبياء، أو هم في مراتب أعلى.

- تمزّق المفيد بين المنهجين العقلي والباطني أضعف المسلّمات التي صادر عليها في التأسيس لمفهوم الإمامة.

- ساهم إجراء المفيد مصطلح الإمامة مساهمة كبيرة في فهم الخلفية الدينية للإمامية ويسر إعادة تقييم عقائدها ومنظومتها الفكرية وتثبيتها.

- مفهوم الإمامة ذو طابع إشكالي، لذلك كان هاجس المفيد المركزي في مصنّفاته عامّة وفي أوائل المقالات خاصّة تحديداً تعريفاً لهذا المصطلح، أي أنّ همّه الجوهرية هو البحث في مدى قابلية مصطلح الإمامة للتعريف (Définable) وفق المتصور الإمامي الاثني عشري، وقد خاض من أجله نزاعات فكرية حادة مع سائر الفرق الكلامية.

- إذا كان المعتزلة يخضعون سائر مجالات المعرفة والبحث والنظر والإلهيات والنبوّات وسائر المسائل الاعتقادية إلى مقولاتهم الخمس عدلاً وتوحيداً ووعداً ووعيداً ومنزلة بين المنزلتين وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإنّ الشيعة يقيسون كلّ ذلك بشرائط الإمامة.

المصادر والمراجع

العربية:

- ابن الأبرص عبيد، الديوان، تح: أشرف أحمد عدرة، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1994.
- ابن تغري بردي (ت 874هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر، دار الكتب، [د.ت.]، ج4.
- ابن حنبل أحمد (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ - 2001م، ج7.
- ابن خلدون (ت 808هـ)، المقدمة، تح: محمد محمد تامر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2005، ط1.
- ابن زيد عدي، الديوان، تح: محمد جبار المعيب، بغداد، شركة دار الجمهورية للنشر والتوزيع، 1965.
- ابن منظور (ت 711هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط7، 2011.
- الجرجاني (ت 816هـ)، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983.
- الجوهري الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد، (ت 393هـ) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1407هـ - 1987م، ج5.
- الحموي ياقوت (ت 626هـ)، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993، ج3.
- الخلافي سعيد، المعجم والمصطلح بين الاختلاف والائتلاف، منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية: www.-a-arabia.com، 12/05/2017.
- الزبياني النابغة، الديوان، تح: عباس عبد الساتر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1996.
- الشهرستاني (ت 548هـ)، الملل والنحل، تح: عبد الأمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، بيروت، دار المعرفة، ج1.

- الشيخ الصدوق (ت 381هـ)، إكمال الدين وإتمام النعمة وإثبات الرّجعة، النّجف، المطبعة الحيدريّة، 1970.
- الشيخ المفيد (ت 413هـ)، تصحيح اعتقادات الإماميّة، قم، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ.
- الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، النّجف، المطبعة الحيدريّة، ط 2، 1973، ج 1.
- الشيخ المفيد، الأمالي، قم، دار التيار الجديد - دار المرتضى، 1413 هـ.
- الشيخ المفيد، الرّسالة الثّانية في الغيبة، تح: علا آل جعفر، [د.م]، مهر، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ.
- الشيخ المفيد، الفصول المختارة من العيون والمحاسن، [د.م]، مهر - المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط 1، [د.ت].
- الشيخ المفيد، المسائل الجاروديّة، [د.م]، مهر - المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ.
- الشيخ المفيد، المقنعة، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، دار المفيد، ط 1، 1413 هـ.
- الشيخ المفيد، أوائل المقالات، [د.م]، مهر - المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ط 1، 1413 هـ.
- الشيخ المفيد، موسوعة الشيخ المفيد: النّكت في مقدّمات الأصول (في علم الكلام)، تح: محمّد رضا الحسين الجلاّلي، [د.م]، دار المفيد للطباعة والنّشر والتوزيع، ط 1، 1431 هـ.
- الطبرسي أبو منصور (ت 620هـ)، الاحتجاج، تح محمد باقر الخراسان، النجف، دار النعمان، 1966، ج 2.
- العثماني عبد القادر، المصطلح وأبعاده الدّلاليّة في نماذج من المدوّنة الشّيعيّة من القرن الثّاني إلى القرن السّابع للهجرة، إشراف: يوسف العثماني، كلفة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس 2020، عدد T 10808.

- العثماني يوسف، دراسات في اللغة والمصطلح، تونس، دار الناهل للنشر والتوزيع، سلسلة وحدة البحث: مجتمع المصطلحات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، ط1، 2008.
- العسكري مرتضى، معالم المدرستين، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط5، 1993، ج1.
- القاسمي علي، المعجم والقاموس: دراسة تطبيقية في علم المصطلح، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، المغرب، العدد 48، ديسمبر (كانون الأول)، 1999.
- القلقشندي (ت 821 هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلمية، [د.ت.]، ج1.
- الكاتب أحمد، الشيخ المفيد مؤسس المذهب البويهي (الاثني عشري): دراسة في منهج التفكير والاجتهاد، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع [د.ت.].
- الكليني محمد بن يعقوب (ت 329 هـ)، أصول الكافي، بيروت، منشورات الفجر، ط1، 2007، ج1.
- المسدي عبد السلام، قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.
- المقرئ الفيومي أحمد بن محمد بن علي (ت 770 هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت، المكتبة العلمية، [د.ت.].
- بابطين ياسر بن محمد، الاستطراد: قراءة في المصطلح والمفهوم، دراسات مصطلحية، مؤسسة البحوث والدراسات العلمية، معهد الدراسات المصطلحية، فاس، المغرب، العدد 13-14 (عدد مزدوج).
- بخيت مصطفى، أثر العقيدة وعلم الكلام في النحو العربي، القاهرة، دار البصائر، ط1، 2011.
- جولدسيهر أجنس، العقيدة والشرعية في الإسلام: تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2013.

- دفترى فرهاد، الإسماعيليون: تاريخهم وعقائدهم، ترجمة سيف الدين القصير، بيروت، دار السّاقى بالاشتراك مع معهد الدّراسات الإسماعيليّة، ط2، 2014.
- سماعة جواد حسني، التّركيب المصطلحي: طبيعته النّظريّة وأنماطه التّطبيقيّة، مجلّة اللّسان العربي، مكتب تنسيق التّعريب في الوطن العربي، الرّباط، المغرب، العدد 50.
- عياد محمّد الهادي، الكلمة: دراسة في اللّسانيات المقارنة، تونس، مركز النّشر الجامعي، دار سحر للمعرفة، 2010.
- غالب مصطفى، الحركات الباطنيّة في الإسلام، بيروت، دار الأندلس، ط2، 1402هـ/1982م.
- قوجيلي سيّد أحمد، التّعريف بالتّجريد: حلّ مشكلة المفاهيم المتنازع عليها في العلوم الاجتماعيّة، مجلّة عمران، قطر، العدد 33/9، صيف 2020.
- كريّم المختار، المعجم المفهرس لألفاظ الشّعر الجاهلي ومعانيه، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2010.
- مكدرموت مارتن، نظريّات علم الكلام عند الشّيخ المفيد، تعريب علي هاشم، مشهد- إيران، مؤسسة الطبع والنشر التّابعة للآستانة الرّضويّة المقدّسة، ط1، 1403 هـ.

المراجع الأعجميّة:

- SCHANE Sanford, Generative Phonology, PRANTICE HALL, INC, Engwood Cliffs, New Jersy, 1973.
- ANSCOMBRE Jean Claude et DUCROT Oswald, l'argumentation dan la langue, Pierre mardaga, éditeur, Bruxelles, 1983.
- DUCROT Oswald, interrogation et argumentation,. In : Langue française, n°52, 1981. L'interrogation, pp 2021-. [www.persee.fr].

- FELBER Helmut, terminology manual, Unesco and Infoterm, Paris, 1984 .
- GOUADEC Daniel, Terminologie: constitution des données, afnor, Paris, 1990.
- GUY Rondeau, Introduction à la terminologie, Gaeton Maurin, Paris, 1995. GALLIE Walter Bryce , Essentially Contested Concepts, Meeting of the Aristotalian Society at 21, Bedford Square, London, 1956.
- Marie-Claude L’Homme, Sur la notion de « terme », la revue Meta, volume 50, n°4, décembre 2005, les Presse de l’Université de Montréal.
- Muhammad Hussayn Tabataba’i, A SERIES OF ISLAM AND SHI’A (Shia— Quran in Islam— A Shi’ite Antology), Ansarian Publications, Qum, 2007.
- NASR Sayyed Houssein, Islam perspectives et réalités. Traduit de l’Anglais par H. Grès. Editions BUCHET / CHASTEL , Paris, 1975.
- PERELMAN Chaim et OLBRECHTS— TYTECA Lucie, Traité de l’argumentation: La nouvelle rhétorique, Editions de l’université de Bruxelles, 3 eme édition, Bruxelles, 1976.
- REY Alain:
 - La Terminologie: Noms et Notions, Collection «que- sais- je ? », P.U.F., Paris, 1980.
 - La Terminologie: Noms et Notions, Collections- que- sous- j’en ? P.U.F., Paris, 1979.

التركيبة والترجمة

أ.د. حسن بن سليمان

مخبر «المباحث الدلالية واللّسانيّات الحاسوبية» (LR18ES46)

كلية الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منوبة - تونس

الملخص:

خلف الاختلافات الظاهرة بين تركيبات مختلف اللّغات، يطرح المقال فكرة مفادها أنّ الكليّات التركيبيّة تثبت إمكانية الترجمة، من خلال ردّ أيّة تركيبيّة إلى ثلاث كليّات، أي «عدد أدنى من الوظائف الكبرى والعلاقات التركيبيّة الكبرى المشتركة»، أو «خمس مقولات من المكوّنات المباشرة في السلسلة التركيبيّة، و«ثلاث طرق شكلية». وتشكّل هذه الكليّات «أسرة تكنولوجيّة واحدة من أدوات التّواصل» وتجعل انطلاقاً منها أيّة عمليّة ترجمة ممكنة، كما أنّها تقلّص في آن من استحالة التّرجمة.

الكلمات المفاتيح الترجمة، التركيبيّة، الكليّات، المقام، اعتباطيّة العلامة، النّحو، الوظيفيّة.

Résumé :

L'article pose que, sous les différences apparentes entre les syntaxes des différentes langues, il existe des universaux syntaxiques qui prouvent la traductibilité, en réduisant toute syntaxe à trois universaux, c'est-à-dire « un minimum de grandes fonctions et de grandes relations syntaxiques communes », ou « cinq catégories de constituants immédiats de la chaîne syntagmatique et « trois procédés formels ». Lesdits universaux constituent « une même famille technologique d'outils de communication » et rendent par-là même toute opération traduisant possible et limite « les impossibilités de la traduction.

Mots-clés Traduction, Syntaxe, Universaux, Situation, Arbitraire du signe, Grammaire, Fonctionnalisme.

1. التركيبية حججا قيّمة، تعلّقت باستحالة إمكانية الترجمة⁽¹⁾، لعلّها كانت أشدّ الحجج امتناعا عن الدّحض. كما رأينا ذلك عندما عرضنا آراء همبولدت (ت. 1835) وورف (ت. 1941) المتعلقة بانعدام تجانسيّة «رؤى العالم» بين اللّغات-أو آراء شارل سيروس (ت. 1946) أو آراء هاريس (ت. 1992) المتعلقة بانعدام ترابطات متبادلة بين المنطق والنّحو⁽²⁾.

2. هنا أيضا، ومن وجهة نظريّة في الترجمة، لم يتعلّق الأمر بإنكار الصّعوبات التي أبرزتها اللّسانيّات المعاصرة. كما لم يسمح بإنكارها، أو بالإفلات منها أو بتجاهلها. غير أنّه علينا أن نبحت فقط عن الأسباب النظريّة التي يسّرت عمليّا، طوال قرون، ممارسة الترجمة ممارسة تقريبيّة مقبولة جدّا، ثمّ أن نبحت عن الوسائل التي وفّرها التحليل اللّساني المعاصر نفسه لحلّ الإشكال الذي طرحه انعدام القياس بين اللّغات لا سيّما استحالة اختراق تركيبتها بصفة متبادلة.

3. جواب أوّل أوحث به اللّسانيّات: لئن استطعنا أن نترجم دوما رغم انعدام التّجانسيّة الجذري أحيانا بين تركيبة اللّغات، فلا بدّ أنّ ذلك أمكن، لوجود كليّات تركيبية كمّنت خلف الفوارق السّاطعة. أمّا ما تعلّق بالتركيبيّة، فقد أمكن، مع ذلك، أن نقول إنّه المجال اللّساني الوحيد حيث حقّقنا أقلّ الفوائد من تجديد الوظيفيّة واللّسانيّات البنيويّة الحديثة. إذ لم تزل في بداياتها هذه السّنوات دراسات أهل المنطق والإحصائيّين والرياضيّين عن الجملة ودراسات البنيويّين حول تقطيع الملفوظ، لتضع التركيبيّة في صدارة الدّراسات، وأن توفّر ظواهر جديدة جدية أن تستغلّها نظريّة في الترجمة.

(1) كان من المفروض، لو اتّبعتنا تخطيطا داخليّا تقليديّا، أن نتبع دراسة المعجم بدراسة علم التّركيب. لكنّه تعذّر علينا عمليّا أن نجد حلاّ للمشاكل التي طرحها التّركيب قبل أن نحلّل جواب الكليّات وجواب «المقامات» غير اللّغويّة عن الأسئلة التي طرحتها مشاكل الترجمة. (2) أنظر أعلاه الفصل IV (لا سيّما صفحتي 54-55، والمثال مقتبس عن فيناي ودربلناي). وقد يختار المترجمون اللّسانيّون أيضا من صيغة مايي، وإن انطلقت من زاوية مخالفة تماما: «يعجز نظامان نحويّان للغتين [...] عن اختراق بعضهما بعضا» (اللّسانيّات التّاريخيّة I، ص82). وربّما أفضى بنا التّساؤل عن سبب استحالة اختراق الأنظمة بعضها لبعض إلى همبولدت أو وورف.

فإلى أيِّ حدٍّ أُلْمِحتْ هذه الدِّراسات الحديثة إلى وجود كَلِّيَّاتٍ تَرْكِيْبِيَّةٍ؟
 بدا أنَّ البحث فعلاً عن هذه الكَلِّيَّات سلك ثلاثة اتِّجاهات. لم يُسلك الأوَّل منها إلَّا نادراً لأنَّه ذُكِرَ بصفة غير مريحة بالمحاولات القديمة التي سعت لتأسيس النَّحو العامِّ على مقولات منطقِيَّة عُثِرَ عليها في اللِّغات كُلِّها. وقد كتب بنفيسيت (ت. 1976) عن تلك المقولات قائلاً «تحوَّلنا عن دراسة مقولةٍ اختيرت ضمن مجموع اللِّغات وافترض أنَّها مثَّلت استعداداً في الفكر البشري⁽³⁾». إلَّا أنَّ هذا الاتِّجاه ظلَّ مع ذلك اتِّجاه دراسات الاختبار العملي الذي لم يمكن أن نتخلَّى عنه، وقد قدَّم بنفيسيت نفسه في دراسته عن «الجملة الموصولة قضِيَّة من قضايا التَّرْكِيْبِيَّة العامَّة⁽⁴⁾» أنموذجاً لتلك الدِّراسات حيث وضح أنَّ «ما يمكن مقارنته في الأنظمة اللُّغويَّة التي اختلفت عن بعضها بعضاً اختلافاً شديداً هو وظائف، وعلاقات بين تلك الوظائف أشارت إليها واسمات شكلِيَّة⁽⁵⁾. ليختم بقوله: «توصَّلنا، وإنَّ بطريقة لم تزل مجملة، إلى أنَّ الجملة الموصولة كيفما اقترنت بالموصول به (بواسطة ضمير، أو حرف، إلخ) عملت عمل «النَّعت التَّرْكِيْبِي» المعرَّف. وإجمالاً، يمكن أن تتوزَّع وحدات الجملة المركَّبة، بناءً على وظيفتها، في صنف الأشكال نفسه حيث تُنظَّم الوحدات البسيطة، أي الألفاظ، بناءً على سماتها الصِّرفِيَّة⁽⁶⁾». وإذا ما تمكَّنا من الاستدلال على وجود حدٍّ أدنى من الوظائف الكبرى والعلاقات التَّرْكِيْبِيَّة المشتركة الكامنة خلف تَرْكِيْبِيَّة اللِّغات المختلفة أشدَّ الاختلاف في ما بينها، ستفيد نظريَّة التَّرْجُمَة لا محالة من ذلك: إذ ربَّما كانت تلك الوظائف والعلاقات كَلِّيَّات التَّرْكِيْب، التي لم يتكلَّم عنها الفصل المخصَّص للكَلِّيَّات اللُّغويَّة بتاتا لا لأنَّنا ستحدِّث عنها هنا، بل لأنَّ حصيلتها منها إلى الآن لم تزل هزيلة جدًّا.

أمَّا الاتِّجاه الثاني الذي كشف لنا كَلِّيَّات التَّرْكِيْب، فهو الاتِّجاه الذي سلكته بعض الأبحاث البنيويَّة، لكن في المستوى الأعمَّ جدًّا في ما يمكن أن نطلق عليه

(3) الاتِّجاهات الحديثة في اللِّسانيَّات العامَّة، ص 133.

(4) في مجلَّة الجمعية اللِّسانية، ع 53، (1957-1958)، مجلَّد 1، صص 39-54.

(5) نفسه، ص 53.

(6) مجلَّة الجمعية اللِّسانية، 53 (1957-1958)، صص 53-54.

المنطق اللساني الشكلي أو البديهيات اللسانية - بديهيات ومنطق تم التسليم بهما من جهة أخرى على أنهما تعميمات اختبارية للظواهر المرصودة، بطريقة غير مستقصية. هذا إذا، ما قاله يالمسلاف (ت. 1965) بخصوص العلاقات الممكنة بين العلامات اللغوية: حيث لم ير سوى ثلاثة أصناف علاقات عامة: التبعية المتبادلة (يفترض أحد اللفظين الآخر والعكس صحيح)، والتعريف (يفترض أحد اللفظين الآخر دون أن يكون المقابل صحيحا)، والتجميع (يتناسب اللفظان دون أن يفترض أحدهما الآخر⁽⁷⁾). لكن يالمسلاف لم يعلن في أي موضع آخر عن العلاقات الثلاث بوصفها أحالت إحالة خاصة إلى التركيبيّة، لأنّه أنكر ضرورة دراسة التركيبيّة دراسة مستقلة⁽⁸⁾. لكن أصناف العلاقات العامة الثلاث، التي رُدت بشكل خاصّ إلى التركيبيّة هذه المرّة، وجدت جزئيا في ما سمّاه تسنيار (ت. 1954) العطف والرّبط (التبعية) والنقل⁽⁹⁾. ولن يمكن لأيّة نظرية في الترجمة إلّا أن تتقبّل باهتمام بالغ براهين قد تختزل تركيبيّة أيّة لغة في ثلاث كليّات. لكن يالمسلاف وتاسنيار⁽¹⁰⁾، ألمحا في هذا المضمار، إلى إمكانيّة وجود هذه الكليّات أكثر من أن يثبتا وجودها. وقد احتلّت أبحاث شومسكي في الاتجاه نفسه موقعا غير بعيد عنهما. فقد قصد بوضوح، انطلاقا من «نواة جمل أساسية صغيرة [إنكليزية]» (جمل بسيطة تقريرية، مبنية للمعلوم، خالية من الأفعال أو جمل اسمية⁽¹¹⁾) تأسيس شكلانية رياضية عكست بأمانة بنية تلك الجمل الأساسية. وبعد استكمال هذا البناء، يتمّ استخلاص منها (بواسطة خصائص تلك الشكلانية الرياضيّة المحض بعد استغلالها بصفة عميقة)⁽¹²⁾ الجمل الممكنة في الإنكليزية

(7) يالمسلاف، لويس، مقدّمات، ص 14-15.

(8) نفسه، ص 16، 37، 46، 54-64.

(9) أنظر تسنيار عناصر علم التركيب، ص 11 والصّفحات الموالية، 323 والصّفحات التالية، 361 والصّفحات التالية.

(10) يمكن الإشارة إلى أعمال ف. ميكيس المتعلقة ببنية الصّيغ. أنظر على سبيل المثال مقالة «هل إن الصّيغ مزدوج؟»، مجلّة الكلمة، 3، 1-2، (1947 VIII)، صص 32-39، أنظر أيضا رد هـ. فراي في مجلّة الكلمة، 24، (1948 VIII)، صص 65-70.

(11) شومسكي، الأبنية التركيبيّة، صص 106-107.

(12) المصدر نفسه، ص 5.

وَالصَّحِيحَةَ بِنُيُوتًا جَمِيعَهَا بِفَضْلِ نَوْعٍ مِّنَ «النَّحْوِ التَّحْوِيلِيِّ»: هُوَ ضَرْبٌ مِّنَ الْجَبْرِ الطَّبِيعِيِّ⁽¹³⁾ سَمَحَ بِالتَّصَرُّفِ مَعَ صَيَغِ أُنْبِيَةِ اللُّغَةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي لُغَةٍ مَا كَمَا لَوْ كَانَتْ صَيَغًا حَسَابِيَّةً. أَوْحَى مِنْهَجَ التَّحْلِيلِ هَذَا، أَوْ بِالْأُخْرَى، مِنْهَجَ تَمَثِيلِ التَّرَكِيبِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ، بِإِمْكَانِيَّةِ إِجْرَاءٍ لَّاحِقًا مَقَارَنَاتٍ مَوْضُوعِيَّةٍ صَارِمَةٍ بَيْنَ الشَّكْلَانِيَّاتِ الرِّيَاضِيَّةِ الْمُسْتَخْلَصَةِ مِنْ لُغَتَيْنِ أَوْ مَجْمُوعَةٍ لُّغَاتٍ، أَوْ مِنَ اللُّغَاتِ جَمِيعَهَا. وَهُوَ أَمْرٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَمُدَّنَا، بِوَسِيلَةٍ مُخْتَلَفَةٍ، بِكَلِّيَّاتِ التَّرَكِيبِيَّةِ. وَيَأْمُلُ شَوْمُسْكِي نَفْسَهُ بِلُغِ هَذِهِ «الْخِلَاصَةُ النَّهَائِيَّةُ»⁽¹⁴⁾ مِنْ بَحْثِهِ - الَّذِي لَمْ يَزَلْ فِي بَدَايَتِهِ.

كَمَا بَدَأَ أَنَّهُ تَمَّ الْعَمَلُ عَلَى تَوْضِيحِ كَلِّيَّاتِ التَّرَكِيبِيَّةِ مِنْ خِلَالِ دَرَسَاتٍ انْتَهَجَتْ مَسْلَكًا ثَالِثًا، هُوَ الْمَسْلُوكُ الَّذِي تَوَخَّاهُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً اللَّسَانِيَّاتُ الْبِنْيُوتِيَّةُ فِي مَعْنَاهَا الْحَقِيقِي، أَيِ لِسَانِيَّاتِ اللَّسَانِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَيْسَتْ اللَّسَانِيَّاتُ الَّتِي اسْتَثْمَرَهَا الرِّيَاضِيُّونَ وَأَهْلُ الْمَنْطِقِ. فَمِنْذُ أَنْ سُحِبَتِ قَاعِدَةُ الْإِسْتِبْدَالِ الْمَتَوَلِّدَةِ عَنِ التَّحْلِيلِ الصَّوْتِيِّ، عَلَى الْوَحْدَاتِ الدَّلَّالَةِ - الْكَلِمَاتِ - لَتَكُونُ تَحْلِيلًا تَوْزِيعِيًّا مُوسَّعًا، أَمْكَنَ دَرَسَةُ «أَقْسَامِ الْخُطَابِ» (بِالْمَعْنَى الْمَادِّي الْأَوْسَعِ لِلْكَلِمَةِ: أَيِ الْفُرُوعِ الدَّلَّالَةِ الَّتِي قَدْ تَوَجَّدَ فِي الْمَلْفُوظِ) دُونَ لُجُوءٍ لِلتَّصْنِيفَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْمَعْنَى. يَقُولُ فَرَايسُ (ت. 1565) «عَلَى الْكَلِمَاتِ، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَحْتَلَّ مَجْمُوعَةُ الْمَوَاقِعِ نَفْسَهَا فِي قَوَالِبِ الْمَلْفُوظِ الْإِنْقِلِيزِيِّ الْحَرِّ الْأَدْنَى، أَنْ تَنْتَمِيَ إِلَى الْقِسْمِ الْكَلَامِيِّ الْوَاحِدِ»⁽¹⁵⁾. لَكِنْ مَا إِنْ نَحْصَلُ، بِوَسِيلَةِ هَذَا الْمَنْهَجِ، عَلَى أَقْسَامِ خُطَابِ حَدَّدْتَهَا تَوْزِيعَاتِهَا الْمُمَيَّزَةِ فِي الْخُطَابِ، حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ نَشْرَعَ فِي تَحْلِيلِ الْعِلَاقَاتِ الثَّابِتَةِ، ضَمَّنَ الْخُطَابِ، بِوَسِيلَةِ أَقْسَامِ الْخُطَابِ فِي مَا بَيْنَهَا. أَيِ أَنْ نُؤَسِّسَ تَحْلِيلَ «الْمَكُونَاتِ الْمُبَاشِرَةِ» لِتَرْكِيبِيَّةِ الْمَلْفُوظَاتِ، عَلَى أَسْسِ تِلْكَ الْمَقَايِسِ التَّوْزِيعِيَّةِ ذَاتِهَا.

قَدَّمْ لَنَا كِتَابَ فَرَايسِ أَنْمُودَجًا مِنْهَجِيًّا فِي اسْتِخْدَامِ هَذَا الصُّرْبِ مِنَ التَّحْلِيلِ كَادَ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمَ وَحِيدًا مِنْ نَوْعِهِ. لَكِنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى الْإِنْقِلِيزِيَّةِ، دُونَ آيَةِ إِحَالَةٍ

(13) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 44.

(14) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 106-107.

(15) فَرَايسُ، بِنْيَةٌ، ص 74.

على قيمة هذا المنهج في اللسانيّات العامّة. وقد نجد، والحقّ يقال، لدى بعض ممثلي هذا المنحى اللساني الأمريكي، لدى نيدا مثلاً (ت. 2011) تعميماً لهذا التحليل التركيبي التوزيعي، كما سبق أن رأينا في الفصل المخصّص للكليات. إذ نحا نيدا إلى العثور في لغات العالم على أربعة «أقسام خطاب» كبرى أو أصناف: «ما دلّ على الأشياء»؛ و «ما دلّ على الأحداث»؛ و «ألفاظ مجردة»، هي محوِّرات للصّنفين السّابقين؛ و «واصلات». ولربّما رسمت العلاقات بين هذه الأصناف الأربعة الخطوط الكبرى لتركيبية عامّة لسانيّة أشدّ وضوحاً من علاقات بالمسلاف، أو تسنّيار كما أنّها ربّما غطّت إجمالاً وبصفة شبه مرضيّة أصناف أو أقسام الكلام لدى فرايس: «ما دلّ على الأشياء» الصّنف I؛ «ما دلّ على الأحداث»، الصّنف II؛ المحوِّرات، صنفاً 3 و 4 وأقسامها أ، ب، ت، ث، ج، غ؛ فيما ربّما غطّى صنف الواصلات أقسام ج، ع، س، ش. غير أنّ التركيبية العامّة لدى هذه النّزعة الأمريكيّة ظلّت إلى حدّ الآن غامضة: ذلك أنّ أقسام الخطاب المعرّفة على ذلك النّحو في المجال الاستبدالي، تتحوّل «مكوّنات الملفوظ» في المجال التركيبي [...] «مكوّنات مستقلة، مكوّنات مفردة، مكوّنات مباشرة»⁽¹⁶⁾.... لكن تلك المكوّنات المباشرة، التي تمّ تعريفها بوضوح في توزيعها بوصفها أقساماً للكلام لم يتمّ تعريفها بالوضوح نفسه في وظيفتها التركيبية. ويمكن أن يقدّم تحليل فرايس⁽¹⁷⁾ جملة في شكل أقسام الخطاب:

المثال: Take the uniforms of the regiment which are there

$$f + 1 + f + f + 1 + f + 2 + f + 2$$

كما قد يقدّم هذا التحليل صورة من تقطيع الجملة إلى «مكوّنات مباشرة»، بواسطة طريقة توزيعية:

المستوى الأوّل: خذ أزياء الفيلق التي توجد هناك.

المستوى الثّاني: خذ أزياء الفيلق التي توجد هناك.

المستوى الثّالث: خذ أزياء الفيلق التي توجد هناك.

(16) فرايس، بنية، ص 257، 264، 258.

لأحد مجموعات «وظائف الكلمة» الخمس عشر عند f ترمز الأرقام «للأصناف» وترمز (17) 2 + 4 + 1 + A + F + 1 + A + فرايس. والصّيغة التي قد تميّز هذه المجموعات هي:

المستوى الرَّابع: خذ أزياء الفيلق التي توجد هناك.

لكنَّا لم نظفر في مواضع أخرى من الكتاب بما يفيدنا ما الذي ميِّز تحليل هذه «المكوّنات المباشرة». إذ بدت جميعها، بوصفها مكوّنات، متساوية تركيبًا. كما أنّنا لم نعلم بالتحديد علّة القواعد التَّركيبِيَّة المحض التي سمحت بالتّوافقات الشَّكليّة أو أقصتها عن مواقعها المتبادلة، توافقات وصفها فرايس وصفا دقيقا (في الفصل XII)⁽¹⁸⁾. حتّى وإن علمنا أنّ جميع اللّغات امتلكت تركيا قبل أن يفكّك إلى مكوّنات مباشرة (مثلما أنّها امتلكت جميعها شكلا صوتيًا يفكّك إلى صواتم)، فقد علمنا فقط أنّ اللّغات انتمت إلى مجموعة جدّ عامّة من الأنظمة يفكّك فيها الملفوظ، إلى وحدات دالّة أدنى من الرّسالة المجملّة، وأنّ مواقع هذه الوحدات في الملفوظ ذات دلالة. لكنّا لم نعلم هل توافقت هذه الوحدات الدّنيا تركيبًا في ما بينها وفق علاقات قد يشكّل بعضها كليات تركيبيّة.

4. علينا أن نرى في مقارنة مارتنبي بالتّأكيد (ت. 1999) حاليًا مقارنة مفصّلة لهذه القضية⁽¹⁹⁾ أعني أعمق الأبحاث في تمييز «مكوّنات الملفوظ المباشرة» هذه على أساس وظيفتها التَّركيبِيَّة الصّرف. إذ رصد تحليله حقًا، منذ البداية، قصور بحث سابير (ت. 1939) وفرايس ليتلافى التّقص فيهما حيث قال: «يبدو أنّنا، في هذا الموضوع، قادتنا دوما العناية بالشّكل أكثر من الوظيفة⁽²⁰⁾»، ليضيف: «تُحلّل السّلسلة إلى عناصر دالّة: حيث يوجد عدد معيّن منها؛ ونعتبر قليلًا أنّ هذه العناصر الدّالّة جميعها من صنف واحد، وأنّها انتمت قبل كلّ شيء إلى مقولة واحدة، هي مقولة العناصر الدّالّة، ثم يُنظر لاحقًا في إمكانيّة تصنيفها، وتوزيعها على عدد من الأصناف [الشَّكليّة] «المميّزة»⁽²¹⁾.

منشغلا بالتعرّف على «المواقع» التي شكّلت VII في الواقع، كان فرايس في الفصل (18) علامات أو خصائص شكليّة في أقسام الخطاب أكثر من انشغاله بالبحث عن وظيفة تلك «المواقع التَّركيبِيَّة المخصصة».

(19) أنظر مارتنبي، عناصر، صص 104-107. وانظر أيضًا للكاتب نفسه عرضين مختلفين اختلافا طفيفا حول نفس الموقف: «بعض سمات التَّركيبِيَّة العامّة، وعناصر التَّركيبِيَّة الوظيفيّة».

(20) مارتنبي، بعض سمات، ص 10.

(21) المصدر نفسه، ص 4.

إنّ المنهج الذي دعا إليه مارتيني، مع ذلك، شأنه شأن منهج الأمريكيين، هو التحليل التوزيعي؛ لكن اكتشافه هو التالي: إنّ التحليل التوزيعي، في ما تعلق بالتركيبة، عديم الفائدة إذا تناول الوحدات الدالة الدنيا (أي اللفاظم)، لأنّ موقع اللفظم في السلسلة المنطوقة ليس دوما مفيدا⁽²²⁾. حيث كتب: «إذا عوّضت «غدا» في جملة «سأطلق غدا» بـ «في السيارة» أو بـ «حقائي»، لم يدلّ ذلك على أنّي اضطررت للاختيار بين غدا، و في السيارة و بحقائي، إذ أنّ استخدام أحدها يمنع استعمال الاثنين الآخرين، مثلما أنّ اختيار / م / في بداية كلمة مرض يمنع استخدام / ب /...⁽²³⁾. إنّ السمة التي وجب الاستناد إليها إذا رمنا عزل وظائف تركيبية وتمييزها، هي «استقلالية»⁽²⁴⁾ بعض العلامات أو مجموعات العلامات النسبية أي «مكوّنات الملفوظ المباشرة» التي استخلصها فرايس مثلا دون تمييز بينها.

استنادا لهذه الأسس المنهجية، استخلص مارتيني بوضوح أحداث تركيبية عامة، أي أحداثا تعلّقت «بالطرق التي استخدمتها اللغات، عموما، لتعبّر عن وظيفة أحد عناصر السلسلة [التركيبية]»؛ أعني «أحداثا أساسية في كلّ تركيب»⁽²⁵⁾. فما هي هذه الأحداث؟ بداية، انطوت اللغات على طرق عامة أبرزت علاقات أحد عناصر الملفوظ ببقية عناصر الملفوظ الأخرى. ونظرا إلى سمة خطيّة اللغة⁽²⁶⁾، لم يتجاوز عدد هذه الطرق ثلاثا: إمّا أن يستلزم معنى العنصر المعجمي المعني علاقته ببقية عناصر الملفوظ (مثال: غدا، بسرعة، إلخ...)؛ أو ألاّ يستتبع العنصر علاقته بالسياق، فيقترب بعنصر يشير لتلك العلاقة (مثال: إلى، ل، مع)؛ أو أن يُشار

(22) مارتيني، عناصر، ص 104.

(23) مارتيني، عناصر، ص 105.

(24) يمكن أن نقول عن «استقلالية» المكوّنات المباشرة للسلسلة النسبية ما قاله مارتيني عن التمييز بين هذين المكوّنين «إنّ مقياسي الوحيد هنا هو مقياس الاستقلالية التركيبية، إذ وجدت عناصر ضمنّت الاستقلالية التركيبية (...) كما وجدت عناصر لم تضمن الاستقلالية التركيبية (...). هذا هو المقياس الشكلي، المقياس التوزيعي في جوهره الذي يفيدني في التمييز».

بعض سمات، ص 14.

(25) مارتيني، بعض سمات، ص 5 و 10.

(26) المرجع نفسه، ص 1

إلى علاقة ذلك العنصر ببقية العناصر بواسطة موقعه من الملفوظ (مثلاً: ضرب زيد عمراً، ضرب عمرو زيداً). ثم يقع جمع هذه العناصر التَّرْكِيْبِيَّةِ أو مكوّنات السّلسلة التّسقيّة المباشرة في خمسة مقولات عامّة: مقولة «اللفاظم أو المركّبات المستقلّة» (مثال: بالأمس). ومقولة «اللفاظم أو المركّبات غير المستقلّة»⁽²⁷⁾ أي «التّوابع»⁽²⁸⁾ (مثال: رئيس الجامعة): وهي مجرّدة في ذاتها من كلّ إشارة إلى وظيفتها التَّرْكِيْبِيَّةِ، وتكتسب هذه العلاقة إمّا من موقعها (مثال: سيتحدّث رئيس الجامعة)، أو من مقولة أخرى (مثال: عند رئيس الجامعة). و«الفاظم أو مركّبات وظيفيّة» (مثال: إلى، مع، عند). و«الفاظم أو مركّبات إسناديّة» قد يؤدّي حذفها إلى هدم الملفوظ بصفته تلك. (مثال: تكلم في جملة أمس تكلم رئيس الجامعة بالمدرج الكبير؛ يمكن أن نحذف في هذا الملفوظ أمس، وفي المدرج الكبير، لكنّه لا يمكن أن نحذف المركّب الإسنادي: تكلم رئيس الجامعة). وأخيراً معدّلات (أو مميّزات أو صيغ)⁽²⁹⁾، تختلف اختلافا كلياً عن اللفاظم الوظيفيّة إذ أنّها لا تشير إلى وظيفة لفظم آخر، بل تحيّن، وتخصّصه، وتتمّمه: هي إذاً عناصر جاذبة في المركّب (مثال: الـ في «رئيس الجامعة»؛ والـ في: «المدرج الكبير»-) في حين أنّ اللفاظم الوظيفيّة هي عناصر نابذة في المركّب (مثال: عند في «عند رئيس الجامعة») وجّهت مركّبها نحو قسم آخر من الملفوظ).

5. يمكننا أن نوّكد الآن، دون تحفّظ، أنّ عناصر التَّرْكِيْبِيَّةِ العامّة هذه لم تجلب، في ما يخصّ التّرجمة، سوى محصول زهيد من الكليات. وقد يقال، لأوّل وهلة، إنّ من غير المفيد أن يُثبت أنّ لغات العالم جميعها تلجأ إلى خمس مقولات مميّزة من المكوّنات المباشرة للسّلسلة التَّرْكِيْبِيَّةِ، وأنّها تصرّفت في ثلاث طرق شكلية لتشير للعلاقات التَّرْكِيْبِيَّةِ الخالصة بين تلك المكوّنات المباشرة.

لكنّ الجواب، هنا مرّة أخرى، هو ما قدّمناه في الفصل المخصّص للكليات اللّغويّة عامّة. إذ أنّ كونيّة عدد محدود من الوحدات والطّرق الأوليّة في موضوع التَّرْكِيْبِيَّةِ أمر أساسي من أجل نظريّة في التّرجمة. فأن تعتمد اللّغات البشريّة

(27) المرجع نفسه، ص 104، 116.

(28) المرجع نفسه.

(29) مارتني، بعض سمات، ص 71، عناصر، ص 117، وعناصر التّركيب الوظيفي، ص 10.

جميعها، في هذا الخصوص، أصنافا موحدة من الطّرق، لتؤسّس بذلك أسرة تكنولوجيّة موحدة من وسائل الاتّصال، هو أمر يحدّد من العقبات التي تواجه التّرجمة أو يحدّد من استحالتها، تماما كأنّ تلجأ لغات العالم جميعها إلى تقطيع الوحدات الثّاني إلى صواتم، والتّقطيع الأوّل إلى لفاظم⁽³⁰⁾.

6. إنّ التّحفّظ الحقيقيّ الذي يمكن أن نبديه بشأن كلّيات التّركيبية هو تحفّظ ورف (ت. 1941). وقد استعاد مارتيني هذا التّحفّظ وألحّ عليه -على الأقلّ مرّة واحدة- من زاوية نظر التّرجمة. فعلى صعيد التّجربة غير اللّغويّة التي اكتسبها الإنسان من خلال علاقته بالعالم، تتربط عناصر التّجربة. وضرب على ذلك المثال التّالي: قدّمت زيدا لعمرو. فما هي عناصر التّجربة التي ميّزتها في هذا الحدث؟ «لا شكّ أنّك (أ) ستعيّن شخصا ثانيا (ب)، وشخصا ثالثا (ج). ولا بدّ أن يُعبّر أيضا عن عنصر آخر في التّجربة أي عن حدث التّقديم (م. ث) تعبيراً لغويّاً⁽³¹⁾». ولا بدّ من الإشارة، بالوسائل اللّغويّة، إلى العلاقات غير اللّغويّة الموجودة بين أ، ب، ج، و م. ب. «وما وافق هذه العلاقات، على الصّعيد اللّغوي، هو ما أطلقنا عليه الوظيفة⁽³²⁾». لقد فكّرنا دوما أنّ العلاقات بين عناصر التّجربة لا يمكن إلّا أن تكون نفسها مهما كانت اللّغة. وفي هذا السّياق تحديدا برزت تحاليل ورف. حيث بيّن مثلاً أنّ «التّجربة» نفسها (التي تتمثّل في تنظيف فوهة سلاح بواسطة قضيب) نظرت إليها اللّغة الإنكليزيّة حرفيّاً نظرة مختلفة تماما عن نظرة لغة الشّاوني. إذ أنّ الإنكليزي يستخلص ثلاثة عناصر في هذه التّجربة: نظّف، بواسطة، قضيب، ومسند إليه ومفعول: *I clean it with a ramrod*. أمّا الشّاوني، فلها عناصر التّجربة نفسها في خصوص القائم بالفعل (ni). ومفعول ذلك الحدث هنا، (a)، لكنّه يستخلص ثلاثة عناصر أخرى من التّجربة في الحدث نفسه: موضع مجفّف (pèkw)، وداخل الفوهة (alâk)، وبواسطة حركة آلة (h)؛ ومن هذا جملته: *Nipekwâlakha*⁽³³⁾. وقد حلّل ورف

(30) أنظر سابقا الفصل XII، صص 205-206.

(31) مارتيني، بعض سمات، صص 2-3.

(32) المرجع نفسه، صفحة نفسها.

(33) ورف، الكلام، ص 208. وردت أمثلة أخرى إنكليزيّة - إسكيمو وأمثلة إنكليزيّة -

بالطريقة نفسها الجملة الإنكليزية: *I push his head back* ومقابلها الشاوني المحلل في عناصر التجربة التي انتقتها هذه اللغة: حركة الضَّغَط على شيء ما ورد فعله، موضع من الرأس، بواسطة اليد، و«مضاف» عاقل. وينقل التركيب الشاوني نفسه الجملة الإنكليزية التالية رغم أنَّها بدت لنا جدَّ مختلفة: *I drop it in water and it bobs back* [حركة الضَّغَط على شيء ما ورد فعله، موضع من سطح الماء، و«مضاف» غير عاقل]⁽³⁴⁾.

ومن جهته، رصد مارتني⁽³⁵⁾ الظاهرة نفسها في اللغات الهندو أوروبية: فمثلا، التجربة نفسها التي يترجمها الفرنسي بالبنية التركيبية التالية: أشعر بوجع في رأسي، يترجمها الإيطالي: رأسي تؤلمني. («في حالة، كان المسند إليه في الخطاب هو المتكلم، في الحالة الأخرى، كان المسند إليه الرأس المتألم؛ وفي حين كان التعبير عن الألم اسمياً في الفرنسية، كان التعبير عن الألم فعلياً في الإيطالية»)، وبينما أُلِّمُّ إلى الرأس في الحالة الأولى، أُسند إلى الإنسان المتعب في الحالة الثانية⁽³⁶⁾). ومن هنا تكرر تنبيه الكاتب إلى أنَّه «يتطابق مع كل لغة تنظيم معطيات التجربة تنظيمًا خاصًا بها»⁽³⁷⁾.

وقد كتب مارتني في اللسانيات، وإلى حدود العصر الراهن، «انطلقنا من الفكرة التقليديَّة المتمثلة في أنَّ الأفراد هم في النهاية أفراد عبَّروا عن الأشياء نفسها، وأنَّه يمكن العبور من لغة لأخرى بواسطة الترجمة، وبالتالي فإنَّ المفاهيم تقريبا وبشكل ظاهر هي نفسها في كل مكان، وإنَّ العلاقات بين المفاهيم في كلِّ حال، لا بدَّ أن تكون نفسها. علينا أن نسلِّم أنَّ هذه الفكرة خاطئة: فعندما نعبر من لغة لأخرى، فليست وحدها الأشكال والكلمات هي التي تتغيَّر (اعتباطية

هوبي، ص 210؛ وأمثلة إنكليزية - هوبي، ص 213.

(34) ورف، الكلام، ص 235. أمثلة أخرى وردت صص 234 (شاوني)، والصَّفحة 243 (نوتكا). وقد وردت هذه الأمثلة جميعها محللةً بصور.

(35) سبق أن عبَّر سيروس عن فكر ورف، غير أنَّ ذلك جاء في ألفاظ المنطق، في سؤاله المشار إليه آنفاً: «ألم تغطَّ عرضيَّة التعبير عرضيَّة، أشدَّ خطورة، على مصير المنطق وأشكال المعرفة؟» (التوازي، صص 72-73).

(36) مارتني، عناصر، ص 23.

(37) نفسه، ص 16. أنظر أيضاً ص 23.

سوسير)، وليست كذلك المفاهيم وحدها هي التي تتغير، بل يتغير معها اختيار العلاقات التي يُعبر عنها⁽³⁸⁾. ليختم بقوله: «يجب ألا نقرر أبداً أن ما يميز لغة عن أخرى إنما هو أساسا اختيار أشكال التعبير الشكلية المختلف، بل إن ما يميزها بالأحرى هو نمط تحليل التجربة التي تعبر عنها، ونوع العلاقات التي قد نلاحظها بين الحلقات اللغوية»⁽³⁹⁾.

7. كادت هذه التحاليل، التي تستحق كل إجلال، أن تدفع بالمرجم إلى اليأس نهائياً: على الأقل في ما تعلق بالتركيبة، لم تُفد الكليات في شيء. وما هم إذا وجدنا، في كل مكان، في اللغات كلها، الوحدات التركيبية نفسها (لفظ مستقل، لفظ تابع، لفظ إسنادي، ولفظ وظيفي، ومعدل). وما هم أيضاً إذا وجدنا في أي مكان أن اللغات جميعها تلجأ إلى الطرق التركيبية الشكلية الثلاث نفسها (معنى الكلمة المعجمي المنطوي على وظيفتها التركيبية الخاصة، كلمة متخصصة مساعدة تشير إلى وظيفة كلمة أخرى، مواقع متبادلة بين كلمتين). وما هم، طالما أن هذه الأشكال التركيبية الكلية غطت وظائف لسانية لم تعبر عن علاقات كلية بين عناصر التجربة التي تم تحليلها. كتب مارتني: «من المفيد دون شك [...] أن نعلم هل تم التعبير عن التقابل بين البناء للمجهول والبناء للمعلوم في لغة ما بواسطة علامة إعرابية خاصة [...]، أو لاحقة متميزة [...] أو وسائط مخصوصة [...] لكن ما هو أهم بكثير هو أن نعرف هل ميزت تلك اللغة بين البناء للمجهول والبناء للمعلوم⁽⁴⁰⁾». فإذا لم تميز تلك اللغة بينهما، فإمكاننا، بالتأكيد، أن ننقل محتوى التجربة الموصوفة في جملة مسندة للمجهول (عوض أن نقول قُدم زيد لعمر و من قبل محمد سنقول إنَّ محمداً قُدم زيدا لعمر و)، لكننا

(38) مارتني، بعض عناصر، ص 14. في تأليفه «عناصر التركيب الوظيفي»، قرب الكاتب ضمناً تحاليله من تحاليل ورف عندما قال «ومهما كان الأمر الذي وجب الاحتفاظ به من فرضية ورف، فإن الشيء الذي يحتفظ به ينطبق سواء على التركيب كما على مظاهر البنية اللسانية الأخرى»، (ص 10).

(39) بعض سمات، ص 15.

(40) نفسه، ص 15.

لن نكون أبداً واثقين أننا ترجمنا في الآن نفسه الطَّرِيقَةَ (المختلفة عن طريقتنا) التي رأى بها المتكلم الحدث، وتصوّره، وحلّله. ومع ذلك، وطالما أننا نترجم. فهل فعلنا ما شوّه، أو تجنّب، أو أهمل هذه الصّعوبة عندما ترجمنا؟ يبدو فعلاً أنّ الجواب النظري عن هذا السؤال أوحى به مرّة أخرى بلومفيلد (ت. 1949). فالقاسم المشترك في التّرجمة من لغة إلى أخرى والوحيد المؤكّد -الوحيد الثّابت -هو المقام الذي أحالت إليه الرّسالة في لغة -المصدر والرّسالة في لغة -الوصول.

اتّخذ انعدام قياس الأبنية التّركيبية بين اللّغات -وهو انعكاس لانعدام قياس «رؤى العالم» أو «تنظيمات التجربة» -إذا ما نظر إليه من زاوية المقام المشترك الذي عبّرت عنه رسالتان في لغتين مختلفتين، هيأةً صادرةً، وفرضيةً جديدةً بالدراسة عن قرب. وقد أوحى مارتن نفسه بهذه الدّراسة، سواء عندما رفض النّظر في تصوّرات ورف الأصولية المسبقة (حيث كتب بحذر «مهما كان المحصول الذي وجب الاحتفاظ به من فرضية ورف...»؛ أو عندما رفض هو بنفسه تأويل القيمة الأصولية لتحليله الورفية بعض وقائع اللّغة حيث افترض: «قد تؤدّي اختلافات التحليل [اللساني لتجربة العالم] إلى طريقة مختلفة في النّظر للظاهرة، أو قد يؤدّي تصوّرٌ مختلف للظاهرة إلى تحليل [لساني] مختلف للمقام. وفي الواقع يستحيل فصل الحالتين عن بعضهما بعضاً»⁽⁴¹⁾. إنّ مارتن محقّ تماماً على صعيد اللّسانيّات الوصفية. لكنّه دعانا، من خلال الأمثلة نفسها التي ضربها، إلى التّنبّت من فرضية ورف بصفة أعمق حيث كتب «سيان مثلاً [أن يقول الفرنسي أشعر بألم في رأسي] أو أن يقول أيضاً رأسي تؤلمني. إنّ الحاسم هو أن يلجأ الفرنسي والإيطالي بصورة طبيعية في مقام معيّن إلى طريقتين في التحليل مختلفتين تمام الاختلاف⁽⁴²⁾». وهو أمر صحيح متى تعلّق الأمر بوصف الأبنية التّركيبية وصفاً محضاً. غير أنّ إمكانية التعبير لسانياً عن المقام الواحد،

(41) مارتن، التّقابل، ص 101.

(42) المرجع نفسه، ص 23.

في اللغة الواحدة، بواسطة ملفوظات مختلفة، دون إضرار أو تضخيم واضحين بالسمات الدلالية المفيدة لأمر يحتاج بحثا في نظرية الترجمة.

إنّ سؤالاً مثل: كيف أصبح الطقس اليوم؟ يمكن أن يولّد حقيقة ستّة أو سبعة أجوبة مختلفة تركيبياً، دون أن نتمكن فعلاً من إثبات أنّ تلك الأجوبة استلزمت تحليل «المقام» التي أحالت إليه تحليلاً مختلفاً في جوهره:

Il fait du vent:	هاجت الرّيح:
Le vent souffle:	ثارت الرّيح:
Ça souffle:	هبّت الرّيح:
Il vente:	نفخت الرّيح:
Ça vente:	هي تنفخ:
Le temps est plutôt venteux:	الطقس ريّح:
La journée est plutôt ventée:	اليوم هيج:

وقد سبق أن أشار مارتنى إلى قصور فرضية ورف هذه وهو يحلّل التّقابل بين الاسم والفعل، في الملفوظين: المطر متهاطل، وتهاطل المطر دون انقطاع. حيث قال: «في عديد الحالات، تضمّن الملفوظان السّابقان محتوى دلاليّاً واحداً، أو أنّهما، والأمران سواء، استخدما في مقامات متماثلة فأحدثا في سلوك المستمع التّأثير نفسه⁽⁴³⁾».

دفعت هذه الوقائع إلى الاعتقاد أنّ فرضية ورف، على الأقلّ في جزء منها، مؤسّسة على حلقة مفرغة، سبقت الإشارة إليها: أن تسلّم بوجود رؤية للعالم مختلفة نظراً لوجود أبنية لغوية مختلفة؛ ثم تفسّر أنّ تلك الأبنية اللغوية مختلفة لأنّها عكست رؤية للعالم مختلفة. إذ وجدنا حالات لم تعبّر فيها اعتبارات مبنية لسانيّاً بطريقة جدّ مختلفة، عن طرق مختلفة في تنظيم التجربة، ولا حتّى عن رؤية مختلفة عن التجربة، [عن المقام]. وقد تكون مخلفات النّحو المنطقي القديم لمدرسة Port-Royal هي الدّافع لأن نفكّر، ما دامت اللغة عبّرت عن المنطق، أنّ ملفوظين مختلفين لا بدّ أن يعبّرا وجوباً، حول المقام نفسه، عن تحليلين منطقيّين مختلفين.

(43) مارتنى، التّقابل الفعلي - الإسمي، ص 101.

ولعلّها دفعت، بعدئذٍ، إلى أن تعبّر الجملة الإنكليزيّة *He swann accross the river* عن رؤيةٍ للعالم مخالفة لـ *Il traversa la rivière à la nage*.

وقد نميل إلى البحث عن تفسير هذه الظواهر المستعصية على فرضيّة ورف -تفسيراً جدّ مفيد لنظرية الترجمة- في نظرية اعتباطيّة العلامة. فقد ألفنا، عندما كنّا نفكر في هذه النظرية، أن نحصرها في اعتباطيّة الوحدات الدالّة الدّنيا أي اللّفاظم والكلمات، غير أنّ الظواهر التي كنّا نحلّل أثبتت أنّ الرّسالة أو الجملة بوصفهما علامتين موحّدين كانتا من نوع قانون اعتباطيّة العلامات. فعندما يقول الهوبي، متّخذاً من قصف الرّعد الذي يسمعه مرجعاً، *rehpi* (دون إحالة إلى القائم بالفعل)، وعندما يقول الفرنسيّ: *il tonne* (أو هو يقصف) وهو يحيل إلى فاعل وهمي؛ ويقول الإيطالي: *tuona* دون إحالة إلى فاعل حاضر في السّياق لكنّ اللّاحقة الإعرابيّة *a* دلّت على أنّ الفعل مسند إلى ضمير المفرد الغائب)، يمكن لنا أن نعتبر أنّ الجمل الثلاث هي علامات اعتباطيّة متساوية في هذا المقام المشترك. وكذلك عندما يقول الإنكليزي *He swann accross the river* مقابل قول الفرنسي *Il traversa la rivière à la nage*، هناك اعتباطيّة العلامات الكبرى.

فسر هذا كيف أنّه، كلّما اشتركت المقامات أو تشابهت، أمكنت الترجمة أو أمكن أن توجد الترجمة، كما فسّر خاصّة كيف أنّه، كلّما كانت سمات المقام الدلاليّة المفيدة موصوفة ومعرفّة وخاضعة للإحصاء بشكل محدّد (وهو الحال في الميادين العلميّة جميعها)، كانت الترجمة ممكنة وتامّة⁽⁴⁴⁾ مهما كان الفارق وانعدم القياس بين التّركيبية في لغة الانطلاق ولغة الوصول.

لقد أفضت هذه التّحاليل إلى اعتبار إمكانيّة الترجمة حالة خاصّة من حالات تعلّم التّواصل. حيث ألح اللّسانيّون الذين اعتنوا بدراسة هذه القضية على هذا الأمر، بصيغ متنوّعة مقاربة: «التّواصل ليس إلّا ما كان مشتركاً بيننا، وهو أن تجعل مشتركاً بعض السّمات الدلاليّة المفيدة في مقام معيّن». ذلك ما قاله «مايي» ليس

(44) أنظر أعلاه ما صرّح به في هذا الخصوص بنفيسيت، وبلومفيلد وجاكسون. ص 180، 2012، 2013، 219. ومن الزّاوية نفسها، تساءل بويسنس «إن كان للّفاظ العلميّة، على غرار لفظة هليوم، ذات «المخصّص» المحدّد، «قيمة» (البنويّة والاعتباط، ص 408).

معنى الكلمة إلاّ معدّل الاستعمالات اللغويّة لدى الأفراد والمجموعات ضمن المجتمع الواحد»، وهو ما قاله بالي أيضا، (ت. 1947) مكرّرا أقوال الآخرين إنّ اللّغة، بوصفها ظاهرة اجتماعيّة، لم تعبّر، من تجربة فرديّة، إلاّ عن الجانب الذي يمكن أن يراه الأفراد الآخرون. وهو ما عبّر عنه عالم المنطق كواين (ت. 2000) عندما قال «المعنى اجتماعي⁽⁴⁵⁾»؛ وما عبّر عنه عالم المنطق ريشاردس (ت. 1943) عندما قال «إنّ اللّغة [...] هي جهدنا الجماعي لتقليص، تلك الاختلافات بين الدلالات [الفرديّة للتّجربة نفسها أو المقام]⁽⁴⁶⁾ إلى الحدّ الأدنى. فالترجمة حالة من حالات التّواصل، كما هو شأن اكتساب التّواصل، يتمّ فيها التّواصل أوّلا عن طريق التّعريف على بعض سمات المقام، بوصفها سمات مشتركة بين متكلّمين. حيث يتمّ تجاوز انعدام تجانسيّة التّركيب بفضل وحدة المقام.

8. وقد يعترض علينا أحد بقوله إنّنا إزاء تعريف ضربٍ من التّرجمة السّقيمة، والتّرجمة الدّنيا، تقريبا من جنس التّرجمة التي تعمل على إنشاء لغةٍ خليطٍ ولغةٍ مزيج. لنكرّر أنّه، من أجل نظريّة في التّرجمة، لا مجال أن نعتبر أيّ نقطة انطلاق تسمح بالخروج من دائرة استحالة التّرجمة، نقطة انطلاق فقيرة جدّا. إذ أنّ اللّجوء إلى المقام غير اللّغوي بوصفه وحدة قيس ملفوظين لغويّين سمح قبالا بإحداث شرح أوسع ممّا اعتقدنا في انعدام القياس بين اللّغات (لا سيّما التّركيبية الخاصّة بها): إذ سمح، فعلا، بتوضيح أنّ نظريّة استحالة التّرجمة مؤسّسة بكاملها على استثناءات. بل إنّها تعميم للحالات الاستثنائيّة تعميما شمل الحالات جميعها. وقد تكون نظريّة استحالة التّرجمة صحيحة إذا أسّسناها إحصائيّا على التّعداد: أن نُحصي في نصّ، أو في مدوّنة ما، الجمل (أو أجزاء ملفوظ صغرى) تعذر، بسبب التّركيبية، ترجمة المقام الذي عبّرت عنه ترجمة تامّة، إلى لغة أخرى مخصوصة.

كما سمح اللّجوء نفسه إلى المقام بإبراز «اعتباطيّة العلامات الكبرى» في حالات عديدة ربّما حاولت أن ترى فيها نظريّة ورف اختلافا في وجهة نظر تعلّقت بتحليل تجربة غير لغويّة تحليلا لسانيا. فأن تقول جملة Lave tes

(45) كواين، المعنى والتّرجمة (بالإنكليزيّة): Meaning and translation، ص 157.

(46) ريشاردس، من أجل نظريّة، ص 251

mains (اغسِلْ يديك) عوضاً عن Lave-toi les mains (اغسل اليدين بنفسك)، أو جملة Je me sèche avec la serviette (أجفّف يديّ بالمنديل) عوضاً عن جملة Je m'essuie avec la serviette (أمسح يدي بالمنديل)، لا يستلزم لجوء لـ «رؤى العالم» ولا حتّى لـ «وجهات نظر» مختلفة عن العالم. إذ امتدّت اعتباريّة العلامات الدّنيا تدريجيّاً لتكوّن اعتباريّة العلامة الكبرى. ويصبح الأمر أكثر وضوحاً متى تعلّق بتعديلات الملفوظ الصّوتيّة الخالصة. فالمتكلّمون شمال باريس -نورماندي أو بيكارد- بفعل جاذبيّة صوتيّة دلاليّة في الآن نفسه، آل بهم الملفوظ إلى: «سأنتف البطاطا للغداء»، *pour midi*، (دون أن يكون بإمكاننا أن نستنبط، فالأمر واضح، أنّ العدول عن قشّر *peler* أو جرّد من القشرة *éplucher* غير شيئاً من زاوية نظر الملفوظ المتعلّق بالحركة الموصوفة. وفي أشدّ أمثلة ورف وضوحاً (*Nipelawâlakha*)، وبعد زوال آثار المفاجأة الأولى، قد يجد التحليل أنّ الملفوظين الفرنسيّين *passer la baguette dans l'âme du fusil* «أدخل القضيب في روح البندقيّة» أو «ضرب فوهة البندقيّة بضربة قضيب» (استخدام أخرق) «أدخلا عناصر تجربة شبه متماثلة مع داخل ثقب، ومع باستخدام آلة. وفي النهاية، سمح اللّجوء المنظّم إلى المقام غير اللّغوي بوصفه عنصراً من عناصر المرجع بتصوّر التّرجمة (انعدام تجانسيّة التّركيبيّة بين اللّغات) لا على أنّها خاصيّة داخلية متّصلة بطبيعة اللّغة ذاتها عموماً، أو بطبيعة لغتين مخصوصتين، قبلًا، بل على أنّها مسار؛ أو بالأحرى على أنّها تقدّم. حينئذ يمكن لنا أن نصف هذه التّرجمة -تماماً مثل تعلّم التّواصل لدى الطّفل- على أنّها سلسلة محاولات تّرجييّة يصوّب بعضها بعضاً تدريجيّاً، حيث يحسّن كلّ لجوء للمقام غير اللّغوي وعودة له (أي إلى الممارسة) تحليل العلاقات بين الملفوظ والمقام. وقد بيّن اللّسانيّون⁽⁴⁷⁾ أحياناً كيف انطلق اكتساب الطّفل القدرة على التّواصل (بواسطة اللّغة)، على الأقلّ بشكل متساو، من «اعتباريّة العلامة الكبرى» -أي من ملفوظات كاملة، ومقاطع من الملفوظ مطوّلة- بقدر ما انطلق من اكتساب دوالّ منعزلة: حيث ربطت المعادلات الأولى بين مقام في مجمله

(47) أنظر مارتني، عناصر، ص 186 و 203 على سبيل المثال.

وملفوظ في مجمله، وبفضل مقارنة الاختلافات بين الملفوظات والمقامات المتشابهة والمختلفة جزئياً يتم تحديد الوحدات الدالة الدنيا تدريجياً. وقد نظر المترجمون لهذا الضرب من التعلم عندما حبّذوا السفر إلى البلد الذي يترجمون لغته: فهم يتنقلون لاكتساب أو معاينة التلازم العملي ميدانياً بين محتوى الملفوظات اللغوية الدلالي الصّرف من جهة، وجملة سمات المقام الدلالية المفيدة التي أحالت إليها تلك الملفوظات.

إنّ تصوّر المقام هذا نفسه على أنّه وحدة للمقارنة بين ملفوظين لهو التّصوّر الوحيد القادر على أن يؤسّس في أطروحات ورف نفسها جوانب صحّتها. وإذا تمكّنا أن نثبت أنّ لغتين مختلفتين حلّلتا التجربة غير اللغوية بطريقة مختلفة، فلن يكون ذلك بالإطمئنان للتحليل اللساني، بما أنّ أبنية مختلفة تمام الاختلاف قد تعبّر اعتباطياً عن مقامات متشابهة تمام التشابه. بل سيكون، مثلما ساعد بشكل جيّد هاتوري (ت. 1995) ⁽⁴⁸⁾ على تبينه، بواسطة تحليل متزامن لسمات الملفوظ المفيدة دلاليّاً من جهة، وسمات المقام المعبرة دلاليّاً التي أحال الملفوظ إليها. فعندما يقول الياباني: «هذه بئر عميقة»، فإنّ تحليله الدلاليّ يحيل إلى سعة حجم مجوّف فارغ؛ وعندما يقول المنغوليّ: «هذه بئر عميقة»، فهو يعيّن الجزء المجوّف المملوء ماء. وعندما يقول اليابانيّ: ضع هذا هنا، فإنّ العملية التي يتصوّرها تتمثّل في وضع الشّيء على سطح؛ في حين يرى المنغوليّ في اللفظ نفسه عملية العدول عن إمساك ذلك الشّيء وتركه ⁽⁴⁹⁾. لكنّ الدليل الذي أثبت حقّاً أنّ المقام يظلّ القاسم المشترك بين لغتين، وملفوظين، هو ما أدركه هاتوري من اختلافات المحتويات الدلالية بين أزواج الملفوظات،

(48) هاتوري، *The Analysis of meaning*.

(49) هنا أيضاً، سمحت أمثلة هاتوري بالاستدلال على أنّه لا يجب استخلاص، انطلاقاً من البنية اللغوية المختلفة، رؤية العالم المختلفة، قبل التّثبت من «اعتباطية العلامات الكبرى» التي تحيل إلى مقام واحد: ففي الفرنسية يُستعمل دون تمييز، في شمال باريس *Pose ça sur la table*: ضع هذا على الطاولة، («رؤية العالم» اليابانية) أو *Quitte ça sur la table* دع هذا على الطاولة («رؤية العالم» المنغولية) دون أيّ اختلاف؛ في حين صار، في جنوب فرنسا *Pose ta veste* ضع السترة العلامة الكبرى الاعتباطية لمقام وافق *Quitte ta veste* دع سترتك. وبما أنّ العمليتين - المقامين: تخلى عن شيء ووضع شيئاً أصبحا أحياناً مقترنين، فقد اشتملت اعتباطية العلامة الكبرى عليهما دون تمييز.

وهو يبحث بالتأكيد عن أسباب إخفاق التّواصل، تماما كما أن يظلّ الملفوظ غامضا لدى متكلّمين بلغة واحدة. (وقد تكون الجملة الفرنسيّة البئر عميقة مثلا على هذا الغموض. حينها قد يعتمد المتكلّم إلى التّصويب متعرّضا إمّا إلى عمق البئر، أو إلى عمق الماء.)

9. هدفت التّحاليل السّابقة إلى التّصدّي، بله إلى إنكار، أطروحات ورف والآراء المتعلّقة ببنية التّجربة المميّزة في كلّ لغة، أقلّ ممّا هدفت إلى إثبات لم، وكيف، وإلى حدّ ظلّت التّرجمة ممكنة، رغم تحاليلها التي لا تقبل النقاش، مهما انعدم التّجانس بين التّركيبية. بل يمكن أن نعتبر أنّ مفهوم المقام لدى بلومفيلد ظلّ مفهوما سمح حاضرا وسيسمح مستقبلا أكثر، في زوج معيّن من اللّغات، بتحليل المقامات غير اللّغويّة المشتركة التي لم تشكّل ترجمتها صعوبات، والتّعرف علميّا على المقامات غير اللّغويّة غير المشتركة، التي قال عنها هاتوري: «حتّى إن رأينا الأشياء التي عيّنتها الكلمة [أو الجملة]، فإنّنا لا نعرف سمات تلك الأشياء التي ألف السّكان الأصليون أن يولوها اهتمامهم⁽⁵⁰⁾». فإذا كان الملفوظ في نصّ منغولي استثمر تشابه التّركيب بين أسقط قبله ووضع رسالة على الطّولة، فإنّ هامشا فيلولوجيا أو أجناسيا في أسفل الصّفحة «قد يترجم» المقام الحقيقيّ. ولئن خوّلت الإحالة إلى الممارسة الاجتماعيّة (إلى ظواهر قد يلاحظها الجميع، وإلى مقامات) التّواصل أحاديّ اللّغة، فإنّ كلّ ما يمكن أن يكون موضوع تواصل بين متكلّمين بلغة واحدة يمكن أن يكون موضوع تواصل بين متكلّمين بأكثر من لغة. غير أنّ العمل سيكون ببساطة أطول، وتحليل أسباب النّجاح أو الإخفاق أدقّ، وقد لا يكتب لهذا العمل أن ينتهي. لم ينكر مفهوم المقام، تماما مثل اعتباريّة العلامات الكبرى الملحق به، فحسب وقائع استحالة التّرجمة، بل ربّما كانا الوحيدين تقريبا اللّذين أسّساها علميّا بواسطة طريقة البقايا، والإشارة إلى منزلتها الحقيقيّة، التي تظلّ هامّة.

الفصل 14 من كتاب جورج مونا، قضايا نظريّة في التّرجمة، قاليمار، 1976، ص ص. 251-270.

(50) هاتوري، تحليل المعنى، ص 210.

جورج مونا:

لساني فرنسي، (1910-1993)، أستاذ اللسانيات وعلم العلامات بجامعة أكس أون بروفنس بفرنسا، أعلن نفسه من أتباع اللساني الفرنسي أندري مارتني المؤثر والرائد في المدرسة الوظيفية في اللسانيات. عالج في أعماله عديد المواضيع والمحاور منها تاريخ اللسانيات، تعريفها، وفروعها المختلفة، وقضاياها التقليدية (علم العلامات، علم الدلالة، الترجمة، ...)، وصلاتها بمختلف فروع المعرفة (الفلسفة، الأدب، وخصوصا الشعر. في مجال التاريخ والمجتمع، أعلن نفسه من خلال رؤيته الفلسفية والفكرية ماركسيًا. كما تخصص في المجال الإيطالي. وتميّز بموقف سياسي «تقدمي» من خلال المشاركة مع 121 مثقفا وجامعيا وفتانا في توقيع «إعلان الحق في العصيان في حرب الجزائر» المنشور يوم 6 سبتمبر 1960. وقد تعلّق الإعلان بإعلام الرّأي العام الفرنسي والعالمي بحركة رفض حرب الجزائر والتّصدي للحكومة الفرنسية ولموقفها من حركة التحرير الجزائرية معبرين عن «احترامهم لكلّ من رفض حمل السلاح ضدّ الشعب الجزائري المناضل حسب تعابير الإعلان.

أعماله:

- Avez-vous lu Char ? Gallimard, 1946 ; nouvelle édition augmentée d'une Note préliminaire, « Folio essais » n° 131, 1989 ; quatrième édition revue et augmentée, Éditions Agone, coll. « Éléments », 2017.
- Les Belles infidèles. Essai sur la traduction, Cahiers du Sud, 1955 ; Presses universitaires de Lille, 1994.
- Machiavel, Club français du livre, 1958 ; Presses universitaires de France, 1964.
- Savonarole, Club français du livre, 1960.
- Poésie et société, Presses universitaires de France, 1962, édition revue, 1968.
- Les Problèmes théoriques de la traduction, Gallimard, 1963, et « Tel » n° 5, 1976.
- La Machine à traduire, Mouton, 1964.

- Lyrisme de Dante, Presses universitaires de France, 1964.
- Histoire de la linguistique. Des origines au xx^e siècle, Presses universitaires de France, 1967 et « Quadrige » n° 218, 1996.
- Ferdinand de Saussure, Seghers, 1968.
- Clefs pour la linguistique, Seghers, 1968, plusieurs rééditions revues et augmentées.
- La Communication poétique, précédé de Avez-vous lu Char ? Gallimard, 1969.
- Introduction à la sémiologie, Minuit, 1970.
- Clefs pour la sémantique, Seghers, 1972.
- La Linguistique au xx^e siècle, Presses universitaires de France, 1972.
- L'Agrammatisme, avec R. Tissot et F. Lermite, Mardaga, 1973.
- Dictionnaire de la linguistique (dir.), Presses universitaires de France, 1974 et « Quadrige » n° 153, 1993.
- Linguistique et philosophie, Presses universitaires de France, 1975.
- Linguistique et société, Dessart et Mardaga, 1976.
- Linguistique et traduction, Mardaga, 1976.
- Linguistique et littérature, avec D. Leflem et J. Darbelnet, Presses universitaires de Laval, 1976.
- La Littérature et ses technocraties, Casterman, 1978.
- Les Sémiologies du texte littéraire, Athlone Press.
- *Camarade poète 1*, Galilée, 1979.
- *Camarade poète 2*, Galilée, 1979.
- *Franck Venaille*, Seghers, « Poètes d'aujourd'hui » n° 245, 1982.
- *D'un monde à l'autre*, Ipomée, 1984.
- *Sept poètes et le langage*, Gallimard, « Tel » n° 200, 1992.
- *La Sémantique*, « Petite bibliothèque Payot » n° 317, 1997.
- *Plaisir au poème, chroniques de Georges Mounin*, Cent mille signes, pour les éditions Agone, 2015.
- *Correspondance. René Char, Georges Mounin*, Gallimard, 2020.



العدد 6

الفكر اللساني

في هوية المجلة :

تمثل مجلة "الفكر اللساني" مجمعا علميا يزخر بالأعمال الأكاديمية التي تنبع من الجامعة وتستثمر طاقات الباحثين في بحث السديد من الإشكاليات والقيم من المطارحات في صميم اللغة تفكيراً وتداولاً. وهو ما نشأت واستوت على عرش البحث اللساني لتحقيقه بإشراف صفوة من الأساتذة والدارسين من كافة العالم العربي وأروبا، وذلك لتتفتح النفوس وتتلاقح الأفكار وتتقادح العقول، ومن أؤكد أهدافها :

• مواكبة أحدث المواضيع والدراسات اللسانية والتفاعل معها وإنفاذها إلى القارئ في ضرب من التيسير والتأصيل.

• إعادة النظر في بناء المعرفة اللسانية وذلك بإثارة القضايا والمشكلات في المباحث اللغوية.

• نشر المعارف اللغوية والإحالة على مواردها ومراجعتها والإسهام في تعزيز حركة الترجمة المصطلحية ومزيد تنميتها وتعميقها، ومواكبة حركة البحث اللساني في العالم.

ولن تألو المجلة جهداً في نشر القيم والمفيد من الدراسات والمستقيم الذي يجدد ويؤصل للمعرفة وللتفكير.

ISSN 2811-6275



PRIX : 15 DT
15 \$